أُمبَرْتو إيكو

العدد صفر

Numero Zero



نقله عن الإيطالية أحمد الصمعي



UMBERTO ECO

أُمبَرْتو إيكو

العدد صفر

ترجمة
أحمد الصّمعي

دار الكتاب الجديد المتحدة

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإيطالية 2015

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير 2017

العـدد صفر

ترجمة أحمد الصمعي

موضوع الكتاب رواية

الحجم 16 × 23 سم

تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة

التجليد برش مع ردّه

ISBN 978-9959-29-695-5

(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2016/318

دار الكتاب الجديد المتحدة

الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،

هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +

05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +

ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان

بريـد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع حصري في العالم ما عدا ليبيا دار المدار الإسلامي

الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس

هاتف 04 03 75 1 961 +/بريـد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

توزيع داخل ليبيا شركة دار أويا لاستيراد الكتب والمراجع العلمية

زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ ليبيا

هاتف وفـاكس 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +

بريد إلكتروني **oeabooks@yahoo.com**

1
السبت 6 حزيران/ يونيو 1992، الساعة 8

في هذا الصباح لا يسيل الماء من الحَنَفيّة.

«بلوب، بلوب»، صوتان كتجشُّؤ رَضيعٍ، ثمّ لا شيء.

طرقتُ باب جارتي: كلّ شيء عندهم طبيعي. لعلّك أقفلتَ الصِّمام، قالت لي. أنا؟ لا أعرف حتّى مكانه، أَسكُن هنا منذ وقت قليل، تعرفين ذلك، ولا أعود إلى البيت إلا في المساء. يا إلٰهي، ولكن حين تغيب أُسبوعاً ألا تُغلق الماء والغاز؟ أنا، لا. إهمال كبير، دعني أدخل، سأريك ذلك.

فَتَحَت الخزانة الصغيرة التي تحت المَجْلى، وحرّكتْ شيئاً، فسال الماء. أرأيت؟ لقد أقفلته. اعذريني، إنّني شارد الذهن. آه، أنتم العازبون *singles*! اخرجي Exit يا جارة، الآن حتى هي باتت تتكلم الإنكليزية.

لنفكّرْ بهدوء. لا وجودَ للأشباح، إلا في الأفلام. ولستُ ممّن يمشون في أثناء نومهم، وحتّى إن كنتُ منهم، فلن يُمكنني أن أعرف بوجود ذلك الصِّمام، وإلا لكنتُ استعملتُه وأنا يَقظٌ، لأنّ الدشّ يُسرّب الماء وأقضي الليل دون أن يغمض لي جفن وأنا أسمع باستمرار صوت تلك القطرة، أبدو كأنّني في فالديموسّا*. وبالفعل، كثيراً ما أستيقظ وأنهض، لإغلاق باب الحمّام وكذلك الباب بين حُجرة النوم والمدخل حتّى لا أسمع صوت تلك القَطَرات الملعونة.

---

* فايديموسّا (Valldemossa) بلدة تقع في منطقة جزر البليار شرقيّ إسبانيا معروفة بعيونها المائيّة الكثيرة. [م].

لا يُمكن أن يكون، مثلاً، تماسّاً كهربائيّاً (مقبض الصِّمام يُغلق بقبضة اليد، كما تدلّ على ذلك العبارة نفسها)، ولا يُمكن أن يكون فأراً، فحتى إن مرّ من هناك فليست لديه القدرة على تحريك هذه الآلة الغريبة. فهو مِقْبض من الحديد قديم الصُّنع (كلّ شيء في هذه الشّقة يعود في الأقلّ إلى خمسين سنة مضت)، وزيادةً على ذلك هو صَدِئ. فتحريكه يحتاجُ إلى يدٍ. يدٍ تُشبِهُ يدَ البَشَر. وليست عندي مدخنة ينزل منها قردُ شارع مورغ*.

لنُفكّرْ برويّة. لكلّ معلول علّته، في الأقلّ هذا ما يقولون. لنُبعد فكرة المُعجزة، لا أرى لماذا يهتمّ الربّ بدشّي، فهو ليس البحر الأحمر. وإذن، للمعلول الطبيعيّ علّة طبيعيّة. مساء أمس، قبل أن أنام، تناولتُ قرص ستيلنوكس بكأس من الماء. فإلى ذلك الوقت كان الماء ما زال يجري إذن. وفي هذا الصباح انقطع. ومن ثَمَّ، يا عزيزي واتسون**، قد أُغلق المقبض في أثناء الليل – ولَسْتَ أنتَ من أغلقه. كان في بيتي أشخاصٌ إذن. وأكبر من خشيتهم إيقاظي بضجّتهم (كانوا صامتين كالقبور) خشيتهم أن يوقظني سُقوط القطرات، الذي كان يُضجرهم هم أيضاً، بل لعلّهم تساءلوا كيف لم تُوقظني. ولذا، بنباهتهم الفائقة، فعلوا ما قد كانت فعلته أيضاً جارتي، قطعوا الماء.

ثمّ؟ ها هي ذي الكتب مُتراكمة في فوضاها المُعتادة، ويُمكن أن يكون نصف أفراد الاستخبارات في العالم قد اندسوا فيها وتصفّحوها صفحة صفحة، دون أن أفطن لذلك. لا فائدة من أن أنظر في الأدراج أو أن أفتح خزانة المداخل. إن كانوا يريدون اكتشاف شيء ما، ففي وقتنا الحاضر لا يبقى إلا شيء واحد: أن يفتّشوا في الحاسوب. وربّما يكونون قد عمدوا، لربْح الوقت، إلى نسخ كلّ شيء وعادوا إلى بيوتهم. والآن، بعد أن فتحوا كلّ وثيقة وأعادوا فتحها، سيكونون قد فطنوا إلى أنه لا يوجد في الحاسوب أيّ شيء يُمكن أن يهمّهم.

ما الذي كانوا يأملون العُثور عليه؟ هذا واضح – أُريد أن أقول إنّي لا أرى

* إشارة إلى قصّة إدغار ألان بو «جرائم شارع مورغ» حيث يتّضح أنّ من ارتكب الجرائم هو قرد من فصيلة «أورنغ-أوتنغ». [م].

** واتسون هو مرافق شرلوك هولمز. [م].

تفسيراً آخر – إنّهم يبحثون عن شيء يتعلّق بالجريدة. ليسوا أغبياء، لقد ظنّوا دون شكّ أنّني سجّلتُ ملاحظات عن كلّ العمل الذي أنجزناهُ في هيئة التحرير – فإن كنتُ أعرف شيئاً عن حادثة برَغّادوتشيو [Braggadocio]، فلا بدّ أن أكون إذن قد سجّلتُ ذلك كتابةً في موضع ما. لعلّهم فهموا الآن أنّني احتفظتُ بكلّ شيء على قُرْص. ولا شكّ في أنّهم قد زاروا المكتب أيضاً، ولم يجدوا فيه أقراصاً لي. لذا فقد استنتجوا (ولكن الآن فقط) أنّني قد أحتفظ بالقرص في جيبي. ويقولون لأنفسهم: يا لنا من أغبياء، كان علينا أن نفتّش جيوب سترته. أغبياء؟ بل مُغفّلون. لو كانوا أذكياء لما تعاطوا مهنة قذرة كهذه.

الآن سيُحاولون من جديد، سيصلون في الأقلّ إلى الرسالة المسروقة، سينقضّ عليّ في الشارع نشّالون مُزيّفون. ينبغي إذن أن أتحرّك بسرعة قبل أن يُحاولوا مرّة أخرى، سأُرسلُ القرص إلى صندوق بريد، ثمّ أنتظر الفرصة لسحبه. ما هذه السخافات التي تخطر ببالي، سقط ميّت هنا وسيماي اختفى. ليسوا محتاجينَ إلى أن يعرفوا: هل أعرفُ، وماذا أعرفُ. سيقتلونني على سبيل الاحتياط، وينتهي كلّ شيء. ولا يُمكنني أن أُصرّح في الصّحف بأنّني لا أعرف شيئاً عن تلك القضيّة، لأنّ قول ذلك سيكون تصريحاً مني بأنّي أعرفُ.

كيف انتهيتُ إلى هذا المأزق؟ أظنّ أنّها غلطة الأستاذ دي ساميس وكوني أعرف الألمانيّة.

لماذا خطر ببالي دي ساميس، وهي قضية تعود إلى أربعين سنة مضت؟ ذلك بأنّني ظننتُ دائماً أنّني لم أحصل على الإجازة من الجامعة، وسبب ذلك هو دي ساميس، وأنا في هذه الورطة لأنّني لم أحصل على الإجازة. زيادةً على أنّ زوجتي «آنّا» تركتني بعد عامَيْن من الزواج لأنّها اقتنعت، وهذه كلماتها، بأنّي فاشل بالضرورة – تُرى ماذا حكيتُ لها قبل ذلك كي تُعجَب بي؟

لم أحصل البتّة على الإجازة لأنّني كنتُ أعرف الألمانيّة. كانت جدّتي من جِهة ألتو آديجي* (جنوب التيرول) وجعلتني أتكلّم الألمانية. ومنذ السنة الأولى في

* جهة تقع في شمال إيطاليا على الحدود مع النمسا أغلب أهاليها يتكلّمون الألمانية. [م].

الجامعة، قبلتُ ترجمة كُتُب من اللغة الألمانية لكي أدفع تكاليف دراستي. في تلك المدّة كانت معرفة اللغة الألمانية مِهنة في حدّ ذاتها. أن تقرأ وتترجم كُتُباً وتُترجم كتباً لا يفهمها الآخرون (وكانت الكتب تُعَدّ آنذاك مُهمّة)، وكان المبلغ مجزياً أكثر مما لو ترجمت عن الفرنسيّة وحتى الإنكليزية. أظنّ أنّ الشيء نفسه يحدث اليوم لمن يعرف اللغة الصينيّة أو الروسيّة. على أيّ حال، إمّا أن تُترجم من الألمانيّة وإمّا أن تحصل على الإجازة، لا يُمكن فِعلُ الأمرينِ معاً. وبالفعل، فالترجمة تعني أنّك جالس في بيتك، في الدفء أو في البرد، وتشتغل مُنتعلاً خُفَّيْن مُريحَيْن، وزيادةً على ذلك تتعلّم الكثير من الأشياء. فلِمَ متابعة الدروس في الجامعة إذَن؟

ودون رغبة حقيقيّة، قرّرتُ أن ألتحق بدورة اللغة الألمانيّة. قلت في نفسي إنّ ذلك لن يتطلّب منّي كثيراً من الدّرس، فأنا أعرف كلّ شيء عنها. كان النجم فيها آنذاك الأستاذ دي ساميس، الذي جعل لنفسه ما كان يُسمّيه الطَّلبة عشّ النّسر في بناية باروكيّة قديمة يُصعد إليها عبر سُلّم كبير يُطلّ على بهو فسيح. من ناحية يوجد معهد دي ساميس، وفي الجانب الآخر قاعة المُحاضرات، بحسب ما كان يُسمّيها الأستاذ بفخرٍ، وهي ببساطة قاعة تسع نحو خمسين شخصاً.

ولا يمكن الدخول إلى المعهد إلا بعد لُبس خُفّ. في المدخل عدد كافٍ منها للمساعدين واثنان أو ثلاثة من الطّلبة. ومن بقي دون خُفّ ينتظر دوره خارجاً. كان كلّ شيء مُلمّعاً، حتىّ الكتُبُ على الرفوف حَسَبَ ظنّي. وحتّى وجوه المساعدين، المُتقدّمين جدّاً في السنّ، الذين ينتظرون منذ أزمنةٍ ما قبل التاريخ دورهم للجلوس على كُرسيّ الأُستاذيّة.

كان للقاعة سقف مُقبّب مُرتفع جدّاً ونوافذ قوطيّة (ولم أفهم البتّة سرّ وجودها في بناية باروكيّة) وزُجاجيّات خُضْر. وفي الساعة المُحدّدة، أي الساعة الواحدة وأربع عشرة دقيقة، يخرج الأُستاذ دي ساميس من المعهد، يتبعه على بُعد متر المُساعد الأكبر سنّاً، وعلى بُعد مترَيْن الأساتذة الأحدث سنّاً، دون سنّ الخمسين. ويحمل له المساعد الأكبر سنّاً الكُتُب، في حين يحمل الأحدث سنّاً منهم آلة التسجيل – كانت آلات التسجيل في نهاية الخمسينيّات ضخمة، كأنها «رولز رويس».

ويقطع دي ساميس الأمتار العشرة التي تفصل المعهد عن قاعة المحاضرات كما لو كانت عشرين متراً: لم يكن يتبع خطّاً مستقيماً بل مُلتوياً، لستُ أدري: أَنصِفُ دائرة هو أَم نصف إِهْلِيْلَج، قائلاً بصوت مرتفع «لقد وصلنا، لقد وصلنا»، ثم يدخل القاعة ويجلس فوق نوع من القاعدة المنحوتة - تكاد تنتظر منه أن يستهلّ قائلاً: ادعوني إسماعيل*.

الضوء الأخضر عبر الشبابيك الملوّنة، يمنح وجهه شحوب الموتى وهو يبتسم بمكر، في حين يُشغّل المساعدون آلة التسجيل. ثمّ يتابع قائلاً: «على عكس ما أَفْصَحَ عنه حديثاً زميلي المُوقّر الأستاذ بوكاردو..». وهكذا دواليك طَوَال ساعتَيْن.

كان ذلك الضوء الأخضر يجعلني في حالة نُعاسٍ رقراقٍ، وهو ما يُرى في أعين مساعِدِيه أيضاً. كنتُ أُشاطرهم معاناتهم. عند انتهاء الساعتَيْن، بينما نندفع نحن الطّلبة إلى خارج القاعة، كان الأستاذ دي ساميس يأمر بإعادة لفّ الشريط، ثم ينزل من المصطبة، ويجلس بصفة ديمقراطيّة في الصف الأوّل مع المساعدين، ويستمعون كلّهم مرّةً أخرى إلى ساعتَي الدرس، ويُوافق الأستاذ على كلّ فقرة تبدو له جوهريّة. مع الإشارة إلى أنّ الدّرس كان عن ترجمة الكتاب المقدّس، بألمانيّة لوثر. متعة صِرْف، كان يقول رفاقي مدهوشينَ.

في ختام السنة الثانية، مع حضور نادر للدروس، جازفتُ باقتراح موضوع أُطروحة عن السُّخرية عند هاينه (كان الصَّلَف الذي يميّز طريقته في تناول موضوعات الحبّ التعِس يبدُو لي مُواسياً - كنتُ أستعدّ كذلك لمعاناة تجاربي الغراميّة) : «أنتم الشباب، أنتم الشباب» قال لي دي ساميس بأسف «تُريدون على الفور الاندفاع لدراسة المؤلفين المعاصرين..».

فهمتُ، بنوع من الإلهام، أنّ الأُطروحة مع دي ساميس سقطت في الماء. فكّرتُ حينئذٍ في الأستاذ فيريو، الذي كانَ أصغرَ سنّاً، والذي كان معروفاً بحدّة ذكائه ومهتمّاً بالحقبة الرومانسيّة وما جاورها. ولكن الرفاق الذين هم أَقدَم عهداً منّي نبّهوني على أنّ دي ساميس سيكون في كلّ الأحوال المُشْرِف الثاني على

---

* جملة تبدأ بها قصة «موبي ديك». [م].

الأطروحة، وأنّ عليّ ألا أتّصل بالأستاذ فيريو بصفة رسميّة، لأنّ دي ساميس سيعلم بذلك وسيحقد عليّ حقداً لا نهاية له. يجب أن أتصرّف بطريقة غير مباشرة، كما لو كان فيريو هو الذي طلب منّي أن أعدّ الأطروحة معه، بحيث يؤاخذ دي ساميس على ذلك فيريو بدلاً منّي. كان دي ساميس يمقت فيريو، لسبب بسيط، هو أنّه هو الذي منحه كرسيّ الأستاذيّة. تجري الأمور في الجامعة (آنذاك، وحتى الآن، على ما أظنّ) بطريقة معاكسة لجريها في العالم العادي، فليس الأبناء هم الذين يمقتون آباءهم بل الآباء هم الذين يمقتون أبناءهم.

ظننتُ أنّ باستطاعتي أن ألقى فيريو بطريقة تكاد تكون عفويّة في أثناء إحدى المُحاضرات الشهريّة التي يُنظّمها دي ساميس في قاعة المُحاضرات، والتي يحضرها كثير من زملائه لأنّه ينجح دائماً في دعوة باحثين مشهورين.

إلاّ أنّ الأُمور تسير على هذا النحو: ما إن تتمّ المحاضرة حتى يبدأ النقاش، الذي يحتكره المُدرّسون، ثمّ يخرجون كلّهم لأنّ المُحاضِر مَدْعوّ للفطور في مطعم «السلحفاة»، أفضل المطاعم في تلك الناحية، لهُ طابع منتصف القرن التاسع عشر، لا يزال النادل يلبس فيه بذلة. يحتاج الذهاب من وكر النّسر إلى المطعم إلى قطع شارع كبير مقنطر، ثم اجتياز ساحة تاريخيّة، والانعطاف عند زاوية بناية عظيمة وأخيراً المرور عبر ساحة أُخرى صغيرة. طَوَال المرور من الشارع المُقنطر يتقدّم المُحاضِر يحيط به الأساتذة، يتبعهم على بعد متر المكلّفون بالدروس، وعلى بعد مترَيْن يأتي المُساعدون وعلى بعد مسافة معقولة أكثر الطّلبة جُرأة. عند بلوغ الساحة التاريخيّة يذهب الطّلبة، وعند زاوية البناية العظيمة يذهب المُساعدون، ويجتاز المكلّفون بالدروس الساحة الصغيرة، ولكنّهم يُحيّونهم على عتبة المطعم، حيث لا يدخل إلا الضيف والأساتذة.

وهكذا لم يعلم الأُستاذ فيريو البتّة بوجودي. وفي هذا الوقت كرهتُ تلك البيئة، وهجرتُ الدروس. كنتُ أُترجم كالآلة، وكان عليّ أن أقبل ما يعطونني، فكنتُ أحوّل إلى لغة دانتي* كتاباً في ثلاثة أجزاء عن دور فريدريش لِيسْت في خلق

* دانتي أليغييري [فلورنسا 1265–1321] صاحب الكوميديا الإلٰهية يُعَدّ أبا اللغة الإيطالية. [م].

الـ Zollverein، الاتّحاد الجُمركي الألماني. هذا ما يُفسّر سبب عدولي عن الترجمة من الألمانية، ولكن فات أوان الالتحاق مرّةً أخرى بالجامعة.

المُشكلة هي أنّك لا تقبل الفكرة: وتُواصل العيش وأنتَ مُقتنع بأنّك في يوم من الأيّام ستجتاز كلّ الامتحانات وستُقدّم أُطروحتك لنيل الشهادة. وإذا عاشَ المرء بآمالٍ مستحيلةٍ، فهو فاشل. وعندما تفطن إلى ذلك، عندئذٍ تستسلم للقَدَر.

في البداية وجدتُ عملاً هو تربية طفلٍ ألماني، كان شديد الغباء حتى إنه لم يكن يذهب إلى المدرسة، في إينغادينا. طقس جميل، عُزلة مقبولة، وصبَرْتُ فيها سنة لأنّ الراتب كان جيّداً. ثمّ حاصرتني ذات يوم أمّ الولد، في أحد الأروقة، وأفهمتني أنّها ستكون سعيدة بتسليم نفسها (لي). كانت لها أسنان بارزة وظلّ شاربين، فأفهمتها بأدب أنّني لا أُشاطرها الفكرة. بعد ثلاثة أيّام أعفتني من العمل، قائلة إنّ الولد لم يُحقّق أيّ تقدّم.

بحثتُ عندئذٍ عن لقمة العيش في مهنة الكتابة. كنتُ أريد الكتابة في الصحافة، ولكنّني لم أُقبَل إلا في بعض الصحف اليوميّة المحلّيّة، أشياء مثل النقد المسرحي للعُروض الجهوية والفرق الجوّالة. سنحت لي فرصة حضور التجارب المسرحية قبل العرض، متجسّساً من وراء السّتار على الراقصات وهنّ يرتدينَ زيّ البحّارة، ومسحوراً بسِمَنِهِنَّ، ثمّ كنتُ أتبعهنّ إلى بائع الحليب، لتناول عشاء من قهوة بالحليب – وإذا كانت لديهنّ بعض النقود، أُضيفَ إليها بيضة بالزبدة. هنالك بدأت تجاربي الجنسيّة الأُولى مع مُغنّية، على أن أُشيرَ إليها إشارة متسامحة في مقالة – في صحيفة سالوتسو، وكان يكفيها ذلك.

كنتُ بلا مَوْطن، وأقمتُ في مُدُن مختلفة (ولم آتِ إلى ميلانو إلا لأنّ سيماي دعاني إليها)، وراجعتُ نُصوصاً لِما لا يقلّ عن ثَلاث دور نشر (جامعيّة، ولم أُراجِع نصوصاً لكِبار الناشرين البتّة)، فلإحداها، حرَّرْتُ مداخل موسوعة (كان عليّ أن أُحقّق التواريخ، وعنوانات الأعمال، إلى غير ذلك)، كلّها أشغال حصلتُ منها على

ما كان باولو فيلّاجيو* يُسمّيه ثقافة فظيعة. الفاشلون، شأنهم شأن العِصاميّين، يملكون معارف أكثر من المُتفوّقين، إذا كنت تريد أن تتفوّق فعليك أن تعرف شيئاً بعينه، دون إضاعة الوقت في معرفة كلّ شيء، مُتعة المعرفة مُخصّصة للفاشلين. كلّما أكثرتَ من معرفة الأشياء، سارت الأشياء في غير طريقها.

اهتممتُ بضعَ سنوات بقِراءة مخطوطات كان الناشرون (أحياناً حتى الكبار منهم) يُسلّمونها إليّ، لأنّ المخطوطات التي كانت تصل إليهم لم يكن هناك مَن يُريد قراءتها. كانت مُكافأتي خمسة آلاف ليرة للمخطوط الواحد، وكنتُ أقضي اليوم كلّه مُستلقياً على الفراش أقرأ بجُنون، ثمّ أكتب تقريراً في صفحتين أضمّنه أفضل ما عندي من سُخرية لتحطيم المؤلّف المُتهوّر، وفي دار النشر كانوا يتنفّسون الصُّعَداء ويُكاتبون المُتهوّر بأنّه يُؤسفهم رفض العمل، إلى آخره. قِراءة مخطوطات لن تُنشر أبداً يُمكن أن تُصبح مِهنة.

في هذه الأثناء كانَتْ لي تلك القصّة مع آنّا، وانتهت كما كان ينبغي أن تنتهي. منذ ذلك الحين لم أستطع (أو لم أُرِدْ بكلّ ما لديّ من قوّة) إيلاء أيّ امرأةٍ اهتماماً، خوفاً من الإخفاق مرّة أُخرى. بشأن الجنس، تصرّفتُ بطريقة علاجيّة، بعض المُغامرات بحَسَب المصادفات، لا خوف فيها من التعلّق بامراةٍ، ليلة وكفى، شكراً، كان شيئاً جميلاً، وبعض العلاقات الدورية بمُقابل، كي لا تصير الرغبة هاجساً (جعلتني الراقصات غير مُبالٍ بالسِّمَن).

في أثناء ذلك كنتُ أحلم بما يحلم به كُلّ الفاشلين، أن أُؤلّف يوماً كتاباً يملأ قلبي فرحة وجيبي نقوداً. ومن أجل أن أتعلّم كيف يصير المرء كاتباً عظيماً اشتغلتُ زنجيّاً (أو ghost writer، [الكاتب الظلّ] مثلما يقولون اليوم، بعبارة لائقة سياسياً) لمُؤلّف روايات بوليسيّة، كان هو أيضاً من أجل أن يبيع كتبه يُوقّع باسم أميركي، مثل مُمثّلي أفلام الـ «وسترن سباغيتّي»*. كان جميلاً أن أعمل في الظلّ، مُحتجباً خلف ستارَيْن (الآخر، واسم الآخر).

---

* Paolo Villaggio: من كبار المُمثّلين الفُكاهيّين الإيطاليّين وهو أيضاً مُنشّط تلفزيوني ومُؤلّف روايات ساخرة أصبحت أفلاماً مشهورة. [م].
* عبارة تُطلق ببعض السُّخرية على أفلام الوسترن ذات الأصل الإيطالي مع أنّها تعدّ أفلاماً مشهورة كتلك التي أخرجها سارجيو ليوني. [م].

كان من السهل كتابة رواية بوليسيّة للآخرينَ، يكفي تقليد أُسلوب تشاندلر*، أو في أسوإِ الأحوال، أسلوب ميكي سبيلاّن*؛ ولكن عندما أردتُ كتابة شيء من إبداعي، فطنتُ إلى أنّ وصف شخصٍ ما أو شيءٍ يجعلني ألجأ إلى التلميحات الثقافيّة: إذ لم أكن قادراً على أن أقول: إنّ فلاناً كان يمشي ذات عشيّة صافية وجميلة، بل كنتُ أقول إنه يمشي «تحت سماءٍ كناليتّويّةٍ»*. ثمّ أدركتُ أن دانّونتسيو* أيضاً كان يفعل الشيء نفسه: فمن أجل أن يقول إنّ المسمّاة كوستانسا لاندبروك كانت لها بعض الخِصال، كان يكتبُ قائلاً إنّها تبدو مِن خَلْقِ توماس لورنس*، وبشأن إيلينا موتي كان يلحظُ أنَّ سِماتها تُذكّر ببعض رسوم مورو الشاب*، وكان أندريا سبيريلّي يُذكّر بصورة النبيل المجهول في متحف بورغيزي*. وهكذا إن أردتَ قراءة روايةٍ فعليك أن تتصفّح بعض كُتُب تاريخ الفنّ التي تبيعها أكشاك الصحف.

إذا كان دانّونتسيو كاتباً رديئاً، فهذا لا يعني أن أكون أنا أيضاً كذلك. وللتحرّر من عادة الاستشهاد بالآخرين الرديئة قرّرتُ ألا أكتبَ أبداً.

باختصار، لم تكن حياة جديرة بالاهتمام. وفي الخمسين من عمري جاءتني دعوة سيماي. لمَ لا ؟ لا بأس في أن أُجرّب هذه أيضاً.

---

* Raymond Chandler [1888–1959] : كاتب أمريكي مُؤلّف روايات بوليسيّة بطلها فيليب مارلو. [م].
* Mickey Spillane واسمه الحقيقي Frank Marrison Spillane [1918–2006] كاتب أمريكي مُؤلّف روايات بوليسية بطلها مايك هامّر. [م].
* نسبةً إلى Giovanni Antonio Canal المعروف بـ Canaletto [البندقية 1697–1768] وهو رسّام معروف برسم مناظر سماء البندقيّة. [م].
* الشاعر الإيطالي الكبير غابرييلي دانونتسيو Gabriele D’Annunzio [1863–1938] كان أيضاً أحد أبطال الحرب العالمية الأولى. [م].
* Thomas Lawrence [1769–1830] رسّام إنكليزي مشهور عُرف برسم بورتريه الأُسرة المالكة الإنكليزية. [م].
* الرسام الفرنسي الرمزي غوستاف مورو [1826–1898] معروف برُسومه المُستوحاة من الكتاب المُقدّس. [م].
* متحف بروما في حديقة بورغيزي. [م].

ماذا أفعل الآن؟ إن وضعت قدمي خارج البيت، فإنّي أكون مجازِفاً. يجدر بي أن أنتظر هنا، فهُم في الأغلب خارج البيت وينتظرون خروجي. وأنا لن أخرج. في المطبخ عدد من عُلَب البسكويت (Crackers) ومُعلّبات اللحم. ومنذ البارحة بقيت لي أيضاً نصف زجاجة من الويسكي. قد تكفي لقضاء يوم أو يومَيْن. سأصبّ لنفسي قليلاً من الويسكي (وربما قليلاً آخر، ولكن بعد الظُّهر لأنّ الشرب في الصباح يُؤدّي إلى الغَباء) وأُحاول أن أعود إلى بداية هذه المُغامرة، ولا أحتاج إلى قراءة ما في القُرص لأنّني أتذكّر كلّ شيء بكُلِّ وضوحٍ، حتّى الآن، في أقلّ تقديرٍ.

الخوف من الموت يَمنَعُ شتاتَ الذِّهن.

2
الاثنين 6 أبريل/ نيسان 1992

كان لسيماي وجه شخص آخر. أريد أن أقول إنّي لا أتذكّر أبداً اسم من يُدعى روسّي، أو برامبيلّا، أو كولومبو، ولا حتّى مادزيني أو ماندزوني*، لأنّ له اسم شخص آخر، لا أذكر سِوى أنّه يجب أن يكون له اسم شخص آخر. حسناً، لا يُمكن أن تتذكّر من سيماي وجهه لأنه يبدُو وجه شخص ليس شخصه. وبالفعل كان له وجه الجميع.

«كتاب؟»، سألته.

«كتاب. مُذكّرات صحافي، قصّة سنة من العمل لإعداد جريدة يوميّة لن تُنشر أبداً. ومن جِهة أُخرى، فإنّ اسم الجريدة سيكون «الغد»، وهو اسمٌ يشبه شعاراً، لحكوماتنا، سنتحدث عنه غداً. سيكون عُنوان الكتاب إذن «الغد: أمس». جميل، أليس كذلك؟»

«وتريدُ أن أكتبه أنا؟ لِمَ لا تكتبه أنت؟ فأنت صحافي، أليس كذلك؟ في الأقلّ، ما دُمتَ تديرُ هذه الجريدة..».

«كونك مديراً لا يجعلك بالضرورة تعرف الكتابة، وليس ضرورياً أن يعرف وزير الدفاع رمي قنبلة. لا شكّ في أنّنا طَوَال العام المقبل سنُناقش الكتاب يوماً بيوم، أنت تضع الأسلوب، النكهة، وأنا سأرسم الخُطوط العامّة».

* Rossi, Brambilla... ألقاب مُتداولة كثيراً في إيطاليا، فهي مِن ثَمَّ ليست لها أيّة خصوصيّة. [م].

«أتعني أنَّ كِلَيْنا سيَظْهَرُ اسمُهُ مُؤَلِّفاً للكتابِ، أم تعني أنّه سيكون حِواراً يجريه كولونّا مع سيماي؟».

«لا، لا، يا عزيزي كولونّا، الكتاب سيَظْهَرُ بِاسمي أنا، وأنت بعد كتابته ستختفي. لا أُريدُ أن أُسيءَ إليكَ، لكنّك ستكون زنجيّاً. إنّ دوما* [Dumas] كان لديه زنجيّ يساعده، فَلِمَ لا يكون لي زنجيّ أيضاً».

«ولماذا اخترتني أنا بالذات؟»

«لأنّك تملك موهبة الكاتب..».

«شكراً».

«... ولكن لم يفطن إلى ذلك أحد».

«أشكرك ثانية».

«اعذرني، ولكنّك حتّى الآن لم تُسهم إلّا في جرائد محليّة، وكنت محرّراً في بعض دور النشر، وممثّلاً لها، وكتبت رواية لشخص آخر (لا تسألني كيف عرفت، ولكن وصلت المعلومات إلي، وهي مُقنعة، وفيها نَسَق)، وفي سنّ الخمسين هرعتَ إليّ، ربما لأن لدي عملاً لك. أنت تعرف الكتابة، وتعرف ما الكتاب، ولكنك في فاقة. لا تستحِ من ذلك. أنا أيضاً، فإن كنتُ سأُدير جريدة لن تصدر أبداً، فما ذلك إلّا لأنّني لم أبلُغ البتّة القائمة القصيرة لجائزة بوليتزر. لم أُدِرْ سوى صحيفة أسبوعيّة رياضيّة وصحيفة شهريّة للرجال وحدهم، أو للرجال الوحيدين، كما تشاء..».

«لعلّ كرامتي تجعلني أرفض».

«لن تفعل ذلك لأنّني أعرض عليك مُدّةَ سنة راتباً شهريّاً قدرُهُ ستّة ملايين ليرة، غير مُصرّح بها».

---

* Alexandre Dumas [1802–1870] كاتب فرنسيّ مشهور من أشهر مُؤلّفاته المعروفة **الفرسان الثلاثة** و **الكونت دي مونتي كريستو**. [م].

«هذا كثير على كاتب فاشل. وبعد ذلك؟»

«بعد ذلك، عندما تُسلّمني الكتاب، لنقُلْ في غُضون ستّة أشهر من إنهاء التجربة، عشرة ملايين أُخرى، على الفَوْر، نقداً. وهذه الأخيرة أدفعها من جيبي».

«وبعد ذلك؟»

«بعد ذلك أنت وشأنك. إن لم تُبذّر كلّ شيء في النساء والخُيول والشمبانيا، فستجني في سنة ونصف أكثر من ثمانين مليون ليرة مُعْفاة من الضرائب. سيكون لديك كلّ الوقت لتدبير أُمورك».

«لحظة كي أفهم جيداً. إذا أعطيتني ستّة ملايين فكم ستجني أنتَ، أرجو المعذرة، ثمّ سيكون هُناك المُحرّرون الآخرون، فضلاً عن مصاريف الإنتاج والطباعة والتوزيع، وأنت تقول لي إنّ هناك شخصاً، ناشراً، كما أفترض، مستعدّاً لتحمّل مصاريف سنة لِتجربة لن يفعل بها بعد ذلك شيئاً؟»

«لم أقُلْ إنّه لن يفعل بها شيئاً. سيجني منها نَفْعاً ما. أمّا أنا فلا، إذا لم تُنشر الجريدة. لا شكّ في أنّه ليس من المُستبعد أن يُقرّر الناشر في نهاية الأمر أن تُنشر الجريدة، ولكن عندئذٍ ستُصبح جريدةً ذات شأن ولستُ أدري هل سيُقرّر أن أُواصل أنا إدارتها. لذا فأنا أهيّئ نفسي لاحتمال أن يقرّر الناشر في نهاية العام أنّ التجربة أَعْطت النتائج المُنتظرَة وبالإمكان إذن إغلاق المكتب. وهكذا فأنا أستعدّ لذلك: إذا عُدِلَ عن المشروع، فسأنشر الكتاب. سيكون مثل قنبلة وسيدرّ عليّ أرباحاً من حُقوق المُؤلّف. أو قد يكون هناكَ بدلاً من ذلك، إن جاز التعبير، مَن لا يُريد لهذا الكتاب أن يُنشَرَ، فيدفع لي مبلغاً من المال معفًى من الضرائب».

«فهمتُ. ولكن، إن كنتَ تُريد أن أُشارك بإخلاص، فينبغي أن تقول لي مَن يدفع الأجر، وما هدف مشروع جريدة «الغد»، ولِمَ قد يُخفِق وماذا ستقول أنتَ في الكتاب الذي، بكُلّ تواضع، سأكتبه أنا».

«إذن، من سيدفع الأُجور هو الكومندتور فيمركاتي. ربّما تكون قد سمعتَ به..».

«فيمركاتي. يظهر اسمه من حين إلى آخَر في الصحف: إنّه يُدير ما يقربُ من عشرة فنادق على الساحل الأدرياتيكي، ويملك عدداً كبيراً من دور المُتقاعدين والمعَوَّقين، وله بعض الصفقات المريبة التي كَثُر في شأنها اللغط، ويُدير بعض المحطّات التلفزيّة المحليّة التي تبدأ برامجها في الحادية عشرة ليلاً ولا تُذيعُ سوى مبيعات بالمَزَاد العَلَني، ومبيعات عبر التلفزة، ومُنوّعات إباحيّة..».

«ونحو عشرين من المطبوعات».

«صحفٌ هابطةٌ، على ما أظنّ، وأقاويل عن بعض المشاهير، ومجلّات على شاكله «*Them*»، و «*Peeping Tom*»، ومجلّات أُسبوعيّة عن تحقيقات بوليسية مثل «الجريمة المُصوّرة»، و «**ما وراء ذلك**»، كلّها قُمامة، ***trash***».

«كلّا، هُناك أيضاً مجلّات مُتخصّصة في العناية بالحدائق، والأسفار، والسيارات، والقوارب الشراعيّة، والطبيب في المنزل. إمبراطورية. جميل هذا المكتب، أليس كذلك؟ لدينا فيه حتّى نبتة جمّيز، مثل كِبار مسؤولي التلفزة الوطنية RAI. وعندنا أيضاً ما يُسمّونه في أمريكا *open space*، لفريق التحرير، ومكتب خاصّ بك، صغير ولكنّه مُحترَم، وقاعة للأرشيف. كلُّه بلا مقابلٍ، في هذه البناية التي فيها كلّ شركات الكومندتور. وما عدا ذلك، فإنتاج الأعداد الصِّفريّة وطباعتها سيُنجزانِ بوسائل المجلّات الأُخرى، بحيث نُخفّض تكاليف التجربة بصفة مقبولة. ومقرّنا في وسط المدينة، ولا مثل كُبرَيات الصّحف التي ينبغي لك أن تركب خطّين من المترو وحافلة للوصول إليها».

«ولكن ماذا ينتظر الكومندتور من هذه التجربة؟»

«يُريد الكومندتور وُلوج الصالونات الرسميّة للأوساط المالية، والمصارف ورُبّما الصُّحف الكُبرى أيضاً. الأداة هي جريدة جديدة مُستعدّة لقول الحقيقة في كلّ شيء. اثنا عشر من أعداد الأعدد الصفريّة، لنقل 0/ 1، 0/ 2 إلى آخره، مطبوعة في عدد قليل جدّاً من النُّسخ المُخصّصة سيُقوِّمها الكومندتور ثمّ سيسعى إلى أن تصل إلى من يعرفه هو. ومتى أظهر الكومندتور أنّ بإمكانه أن يخلق صُعوبات لما يُسمّى بالصالون الرسمي للمالية وللسياسة، فمن المُحتمل أن يدعوه

الصالون الرسمي إلى العُدول عن هذه الفكرة، فيَعْدل هو عن مشروع «الغد»، ويُسمح له بالدخول في الصالون الرسمي. لنقُلْ، مثلاً، اثنين من مئةٍ من أسهم صحيفة كبيرة، أو مصرف، أو محطّات تلفزيّة يُحسب لها حساب».

أطلقتُ صفيراً لفرط دهشتي: «اثنان من مئةٍ هذا هائل! هل لديه الأموال الكافية لعمليّة كهذه؟»

«لا تكن ساذجاً! نتحدَّث عن التمويل، لا عن التجارة. اشترِ أوّلاً، وسترى أنّ أموال التسديد ستصل إليك».

«فهمتُ. وفهمتُ أيضاً أنّ التجربة لن تكون إلّا إذا لم يقُل الكومندتور إنّ الجريدة في نهاية المطاف لن تظهر. ينبغي أن يظنّ الجميع أنّ آلات الطباعة مُتحمّسة للعمل فوراً، إن جاز القول..».

«لا شكّ في ذلك. بل إنّ الكومندتور لم يَقُل لي إنّ الجريدة لن تصدر أبداً، إنّما أنا أُخمّن ذلك، أو بالأحرى أنا موقِنٌ بذلك. ولا ينبغي أن يعرفه مُشاركونا في العمل، الذين سنلتقيهم غداً: يجب أن يعملوا وفي ظنِّهم أنّهم بصَدَد صناعة مُستقبلهم. هذا الأمر نعرفه أنا وأنت فقط».

«ولكن ماذا لَو كتبتَ كلّ ما فعلتَ لخدمة ابتزاز الكومندتور؟»

«لا تستعمل كلمة ابتزاز. نحن سننشر أخباراً، مثلما تقول النيويورك تايمز، «all the news that's fit to print...»، كلّ الأخبار التي تستحقّ أن تُنشر».

«... وربّما ما يزيد على ذلك قليلاً..».

أرى أنّنا يفهم أحدنا الآخر. وإذا أراد الكومندتور استعمال أعدادنا الصفريّة لبثّ الرُّعب في قُلوب بعضهم أو لتنظيف مُؤخّرته، فهذا شأنه هو، لا شأننا نحن. ولكن المهمّ هو أنّ كتابي ليس عليه أن يَقُصّ ماذا قرّرنا في اجتماعاتنا التحريريّة، فأنا لا أحتاج في هذا الأمر إليك، يكفيني جهاز تسجيل. يجب أن يعطي الكتاب فكرة عن جريدة مختلفة، أن يُبرز كيف عملتُ ما في وسعي على مدى عام كامل لتحقيق نموذج من صحافة مُتحرّرة من كلّ أنواع الضغوط، مشيراً إلى أنّ المُغامرة

أخفقت لاستحالة أن يكون ثمّة صوت حُرٌّ. وللوصول إلى ذلك أنا أحتاج إلى أن تبتدع، وأن تسموَ إلى المثال، أن تكتب مَلْحمة، إن فهمت ما أعني..».

«سيقول الكتاب عَكْس ما حدث. ممتاز. ولكنّهم سيُكذّبونك».

«من سيُكذّبني؟ الكومندتور، الذي سيقول لا، المشروع لا يهدف إلّا إلى الابتزاز؟ من الأفضل أن يجعلهم يظنون أنّه عَدَلَ عن المشروع لأنّه هو أيضاً واجه ضغوطاً، وفضّل أن يقتل الجريدة حتّى لا تصبح صوتاً تُوجِّهه جهةٌ أخرى. وهل سيُكذّبنا رفاقنا في التحرير، الذين سيُقدّمهم الكتاب على أنّهم صُحفيّون غاية في النَّزاهة؟ سيكون كتابي [«بيتزلّر»* *betzeller*]- هكذا كان يَنْطقها، مثل الجميع - «لن يُريد أحد الاعتراض عليه أو لن يقدر أحد على الاعتراض عليه».

«حسناً، ما دامَ كلٌّ منا رجلاً دون سَجايا، وأعتذر عن التلميح، فإنّي أقبل الاتفاق».

«يُعجبني التعامل مع أشخاص صادقين يقولون ما في قلوبهم».

* بدلاً من *bestseller* أي كتاب ناجح وفي أعلى ترتيب على مستوى عدد النسخ المبيعة. [م].

3
الثلاثاء 7 أبريل/ نيسان

اللقاء الأوّل لفريق التحرير. ستّة أشخاص، يبدُو أنّ ذلك يكفي.

نبّهني سيماي على أنّه ليس عليّ أن أطوف هُنا وهُناك لإجراء تحقيقاتٍ كاذبة، بل يجب أن أبقى في قسم التحرير لتسجيل مُختلف الوقائع. وهكذا، لتسويغ حُضوري، استهلّ قائلاً: «يا سادة، ليتعرَّف بعضنا بعضاً. أُقدّم إليكم الدكتور كولونّا، رجل له تجربة صحفيّة كبيرة. سيعمل تعبيراً بديلاً - ولذا سنُسمّيه مساعد الإدارة؛ مُهمّته الرئيسة مُراجعة كلّ مقالاتكم. كلٌّ منكم قادم من تجارب مُختلفة، وهناك فَرْق بين العمل في جريدة من جرائد اليسار المُتطرّف وبين ممارسة تجربة، إن جاز القول، في «**صوت القُمامة**»، وما دامَ عددنا قليلاً (كما تَرَوْن)، فإن من كان يُعنى في السابق بإعلانات الوَفَيات ربّما سيكون عليه أن يكتب مقالاً تحليليّاً عن أزمة الحكومة. ينبغي إذن أن نُوحّد الأسلوب، وإذا اشتدّت رغبة أحدكم في استعمال تعبير مثل «*Palingenesi*» (تناسخ - تقمص)، فسيقول لكم كولونّا إنّ ذلك غير مُمكن وسيقترح عليكم تعبيراً بديلاً».

فقلتُ: «بعث أخلاقيّ عميق».

«هو ذا. وإذا كتب أحدكم في وصف حالة مأساويّة قائلاً إنّنا في «عين الإعصار»، فأتصوّر أن الدكتور كولونّا ستبلغ به الحَصَافة أن يُذكّركم بأنّه بحسب كلّ الكُتُب العلميّة عين الإعصار هي النُّقطة الوحيدة التي يَعُمّ فيها السّكون، في حين أنّ الإعصار يعصف من حولها».

فتدخّلتُ قائلا «لا ، يا دكتور سيماي، في هذه الحالة يجب بالفعل استعمال «عين الإعصار» لأنّه لا يهمّ ماذا تقول الكُتُب العلميّة، القارئ لا يعرف ذلك، و«عين الإعصار» هي التي تُوحي إليه بالفعل أننا في قلب العاصفة. هكذا عوّدته الصحافة والتلفزة. كما أقنعته بأن ينطق *süspèns*، كما في الفرنسية، و *management* في حين أنّ الصواب أن يقول *suspèns* (وتُكتب *suspense* لا *suspence*) و *mànagment*».

«فكرة جيّدة، يا دكتور كولونّا، ينبغي أن نستعمل لغة القارئ، لا لغة المُثقّفين الذين يقولون «التأشير» بدلاً من تذكرة السفر. ومن ناحية أُخرى يبدُو أنّ ناشرنا قال مرّة إنّ مُعدّل سنّ مُشاهدي برامجه التلفزيّة (أعني السنّ الذهني) هو اثنتا عشرة سنة. قُرّاؤنا ليسوا كذلك، ولكن من المُفيد دائماً أن يُقَدِّر المرء سنّاً لقُرّائه: سيكون سنّ قُرّائنا فوق الخمسين، وسيكونون بورجوازيّين طيّبين ونُزهاء يُحبّون النظام والقانون، ولكنّهم شَرِهون في كلّ ما يتعلّق بالقيل والقال وكَشْف مُختلف مظاهر الفوضى. ننطلق من مبدإ أنّهم ليسوا ما يُسمّى بالقرّاء النهمين، بل على العكس فأغلبهم لا يملك كتاباً في بيته، لكنّهم إن اضطُرّوا إلى الحديث تحدَّثوا عن آخِرِ كتابٍ صَدَرَ وبيعت منه ملايين النُّسخ في كل أنحاء العالم. ربّما لا يكون قرّاؤنا ممّن يقرؤون الكتب، لكنّهم مفتونون بالرسّامين الغريبي الأطوار الذين تُباع لوحاتهم بالمليارات. وعلى النحو نفسه، لن تجدهم البتّة يسعون إلى رؤية نجمة السينما ذات الساقين الطويلتين، لكنّهم مع ذلك يريدون معرفة كلّ أسرارها الغرامية. والآن، لنَدَع الآخرين يقدّمون أنفسهم. ولنبدأ بالأنثى الوحيدة بيننا... السيّدة، أو الآنسة...».

«مايا فريزيا. عزباء، أو حرّة أو غير مُتزوّجة، *single*، كما تُريدون. عمري ثمانٍ وعشرون سنة، إجازة غير كاملة في الآداب، اضطررت إلى الانقطاع عنها لأسباب أُسَريَّة. أُسهم منذ خمس سنوات في مجلـة تُعنى بالقيل والقال «*gossip*»، كان عليّ أن أرتاد عالم العُروض الفنيّة لمعرفة أصحاب العلاقات الغراميّة، وأضبط مكاناً يفاجئهم فيه المُصوّرون؛ أحياناً كثيرة وجب عليّ أن أُقنع مُغنّية، أو مُمثّلة، باختلاق صداقة حميمة مع شخص آخر، وأحملهما إلى الموعد مع المُصوّرين، أعني أن يمشيا واليد في اليد، أو حتى مع قبلة خاطفة. في البداية أعجبني ذلك، ولكنّني تعبتُ الآن من رواية الأكاذيب».

«ولماذا قبِلتِ، يا حُلوة، المُشاركة في مُغامرتنا؟»

«أظنّ أنّ الجريدة اليوميّة ستتحدّث عن أشياء أكثر جديّة، وسيُمكنني أن أُعرّف بنفسي من خلال تحقيقات لا دخل فيها للصداقة الحميمة. يحدوني حبُّ الاطّلاع، وأظنّ أنّني بارعة في تقصّي الحقائق».

كانت نحيفة الجسم وتتحدّث بحماسةٍ حذرةٍ.

«ممتاز. وحضرتك؟»

«رومانو برغادوتشيو..».

«يا له من اسم غريب، من أين أنت؟»

«فعلاً، هذا أحد مصادر شقائي في هذه الحياة. يبدُو أنّ له مدلولاً غير جميل في اللُّغة الإنكليزية*، ولكن لحُسن الحظ ليس كذلك في اللُّغات الأُخرى. كان جدّي مجهول الأبوَيْن وأنت تعلم أنّ اللقب في هذه الحالة يختلقه مُوظّف البلديّة. وإذا كان ساديّاً فبإمكانه أن يُعطيك حتّى لقباً مُخجلاً، في حالة جدّي كان المُوظّف نصف ساديّ، وكان لديه نصيب من الثقافة. . . أمّا أنا، فإنّني مُتخصّص في كَشْف الفضائح، وأعمل بالذات في جريدة ناشرنا، «**ما وراء ذلك**». ولكنّه لم يستعملني البتّة، كان يُكافئني حسب المقال».

أمّا الأربعة الآخرون، فالمَدْعوّ كامبريا أمضى لياليه في مراكز الاعتقال والشرطة لالتقاط الأخبار الطازجة، كخبر اعتقال، أو موت في حادث مُروّع على الطريق السيّارة، ولم يصنع لنفسه مسيرة مهنيّة؛ أمّا لوشيدي فقد كان يُوحي بالثقة من أوّل نظرة وشارك في منشورات لم يسمع باسمها أحد؛ وبلاتينو قادم من مسيرة طويلة في مجلّات أُسبوعيّة مُتخصّصة في مختلف الألعاب والألغاز؛ وكوستانتسا عمل سابقاً بصفة مُراجع في بعض الصّحف، ولكنّ الجرائد أصبحت تتكوّن من عدد كبير من الصفحات، ولا أحد بإمكانه مُراجعتها كلّها قبل

* المُتَبجِّح. [م].

طباعتها، الآن حتّى الصُّحف الكبرى صارت تكتب Simone de Beauvoire أو Beaudelaire، أو Roosvelt، ومهنة المُراجع صارت بالية مثل مطبعة غوتنبيرغ. لا أحد من رِفاق الطريق الخمسة قادم من تجارب مُثيرة. كأننا على جسر الملك لويس القديس*. لستُ أدري كيف سعى سيماي للعثور عليهم.

بعد أن تمّت عمليّة التقديم، رسم سيماي ملامح الصحيفة.

«إذن، سنصنع صحيفة يوميّة. لماذا سميّناها «الغد»؟ لأنّ الجرائد التقليديّة كانت تروي، وللأسف ما زالت تروي، ما حدث أمس، لذا تُسمّى *Corriere della Sera*، أو *Evening Standard*، أو *Le Soir*. الآن نحن نعرف أخبار اليوم السابق من التلفاز في نشرة الثامنة مساء، فالصحف إذن تَقُصّ دائماً الأشياء التي سبق أن عرفناها، وهذا يُفسّر انخفاض مبيعاتها. في جريدة «**الغد**» هذه الأخبار التي قد صارت قديمة ونتِنت مثل السمك الفاسد جديرة دائماً بأن يُذكّر بها ولكن يكفي مقال في عمود صغير يُقرأ في بضع دقائق».

فسأله كامبريا : «ماذا يجب إذن أن تَقُصّ الجريدة؟»

«لقد صارت الجريدة اليوميّة أكثر شبهاً بصحيفة أُسبوعية. سنتحدّث عمّا يُمكن أن يحدث غداً، من خلال مقالات في العمق، وملاحق فيها تحقيقات، واستشرافات غير مُنتَظرة. . . أُعطيكم مثالاً. في الساعة الرابعة انفجرت قنبلة، وفي اليوم التالي عرف الجميع ذلك. حسناً، نحن من الساعة الرابعة إلى مُنتصف الليل، قبل الشُّروع في الطباعة، نكون قد اكتشفنا أحداً قادراً على مدّنا بخبر غير معروف عن المسؤولين المُحتملين، خَبَر لا تعرفه حتى الشرطة نفسها، ونرسم سيناريو لما سيحدث في الأسابيع القادمة من تداعياتٍ لتلك الحادثة. . .».

---

* تلميح إلى رواية الكاتب الأمريكي ثورنتون وايلدر [Thornton Wilder] «*The Bridge of San Luis Rey*»: الشخصيّات التي تقصّ الرواية حِكايتهم أشخاص من أنحاء مختلفة لقوا حتفهم في انهيار جسر من الحبال في البيرو بأميركا الجنوبية ورأى أحد رجال الدِّين أنّ ذلك رسم من الإلٰه فأخذ يبحث عمّا جمعهم كلّهم ذلك اليوم فوق ذلك الجسر. تماماً مثل أعضاء هيئة التحرير الذين جاؤوا من تجارب مختلفة.

فقال برَغّادوتشيو: «ولكن لإنجاز تحقيق من ذلك النوع في ثماني ساعات يجب أن يكون فريق التحرير أكبر عشر مرّات في الأقلّ من فريقنا وأن تكون لدينا شبكة هائلة من الاتصالات، ومخبرون وغير ذلك».

«صحيح، وعندما سنصنع جريدة بحقّ، هذا ما ستكون عليه. ولكن في الوقت الحاضر، على مدى سنة، يكفي أن نظهر أنّ ذلك ممكن. وهو ممكن لأنّ (العدد صفر) يُمكن أن يتّخذ أيّ تاريخ، ويُمكن أن يكون مثالاً لما كان بالإمكان أن تكون عليه جريدة قبل الآن ببضعة أشهر، عندما أُلقِيت القنبلة مثلاً. في تلك الحالة نحن نعرف ماذا حدث إثر ذلك، ولكنّنا سنتحدّث كما لو كان القارئ لا يزال يجهله. لذا فإنّ جميع تحقيقاتنا الفضوليّة سيكون لها مذاق الأشياء الجديدة، والمفاجِئة، بل أجازف بقول نبوءة. أي سنقول لصاحب الجريدة: انظر كيف ستكون جريدة **الغد** لو أنها صدرت أمس. فهمت؟ وإن أردنا، ولو لم يُلقِ أحد قنبلة، فبإمكاننا ببساطة أن نُصدر عدداً «**كما لو أنّ**».

«أو أن نُلقي نحن القنبلة إن كان ذلك يخدم مصلحتنا»، قال برغّادوتشيو بضحكة استهزاء.

«لا تتفوّه بسَخَافات»، حذّره سيماي. ثمّ قال، وكأنه راجع نفسه: «وإن أردتَ بحقّ أن تفعل ذلك، فلا تقُلْ لي عنه شيئاً».

بعد انتهاء الاجتماع وجدتُ نفسي أَنْزل السُّلّم جنباً إلى جنب مع برغّادوتشيو. «ألم يعرف أحدنا الآخر من قبل؟» سألني. «لا يبدُو لي»، قلتُ له، فأجابني «قد يكون»، بنَبْرة فيها بعض الشكّ، مُستعملاً فوراً ضمير الحميميّة. في اجتماع هيئة التحرير فرض سيماي ضمير التشريف، وأنا في العادة أحتفظ بالمسافة، لم نشرب البتّة من كأس واحدة، ولكن برَغّادوتشيو كان يريد بلا شكٍّ الإشارة إلى أنّنا صِرْنا زميلينِ. لم أكُنْ أُريد التظاهر بالاستعلاء فقط لأنّ سيماي قدّمني على أنّني رئيس التحرير أو شيء من هذا القبيل. ومن جِهة أُخرى، كان ذلك الشخص يُثير فُضولي ولم يكن لديّ شيء أفضل لأفعله.

أمسكني من مَنْكِبي وعرض عليّ أن نشرب كأساً معاً في مكان يعرفه. كان

يبتسم بشفتَيْه اللّحيمتَيْن وبعينَيْه البقريّتَيْن، بطريقة كانت تبدو لي كريهة. كان أصلع، مثل فون شتروهايم*، بقذاله المستوي على رقبته، ولكن الوجه كان أشبه بـ تيلّي سفالاس، الملازم كوجاك*. هو ذا، لا بدّ لي من الاستشهاد، دائماً.

«جميلة تلك الفتاة مايا، صحيح؟»

أحرجني أن أعترف له بأنّني ألقيتُ عليها نظرة خاطفة - قلتُ له إنّني أبقى على مسافة من النساء. فهزّني قليلاً من مِرْفقي قائلاً: «لا تكن خجولاً، يا كولونّا. لقد رأيتك، كنتَ تنظر إليها دون أن ينتبه إليك أحد. أرى أنّها من النوع الذي لا يَرْفُض. الحقيقة أنّهنّ كلّهنّ مُستعدّات، يكفي أن تعرف كيف تستميلهنّ. نحيفة أكثر ممّا ينبغي حَسَب ذَوْقي، بل أكثر، ليس لها نهدان، على كلّ، مقبولة».

كنّا قد وصلنا إلى شارع تورينو وفي مستوى كنيسة انعطف بي إلى اليمين للدخول في شارع ضيّق فيه عطفة، ليس مُضاءً إلّا قليلاً، بأبواب مغلقة لا يدري أحد منذ متى، خالٍ من الدكاكين، كما لو كان شارعاً مهجوراً منذ زمن طويل. فيه مثل رائحة تعفّن، ولكن قد يكون ذلك من قبيل الحسّ المُتزامن لا غير، بسبب الجُدران المُقشّرة والمُغطّاة برسوم حائطية صارت باهتة. وفي أعلى الحائط كان هناك أُنبوب يخرج منه دخان، وليس واضحاً مكان مأتاه لأنه حتّى النوافذ العُليا كانت مُوصدة كما لو أنّه لا يَسْكن أحد في الطوابق العُلوية. لعلّه أُنبوب منزل يُطلّ على شارع آخر، ولا أحد يهتمّ بأن يمتلئ بالدخان شارع مهجور.

«هذا نهج بانييرا، أَضيق شارع في ميلانو، وإن لم يكن مثل «ري دي شا كي باش»* في باريس، الذي لا يكاد يمرّ فيه شخصان. سمّوه نهج بانييرا ولكن

---

* Erich von Stroheim (1885–1957) كان مُمثّلاً ومُخرجاً وكاتباً أميركيّاً من أصل نمساوي أصلع الرأس. [م].

* Telly Savalas (1922–1994) مُمثّل أميركي من أصل يوناني عُرف بالدور الذي أدّاه في مسلسلات بوليسيّة باسم الملازم كوجاك وكان أصلع. [م].

* ورد بالفرنسيّة «Rue du chat qui pêche» مذكور أيضاً في رواية **مقبرة براغ** التي تجري أحداثها في باريس. [م].

في ما مضى من الزمن كان يُسمّى مضيق بانياريا، لوجود بعض الحمّامات العموميّة من تاريخ الرومان».

في تلك اللحظة برزتْ من الزاوية امرأة تدفع أمامها عربة رضيع. «قلّة إدراك أو سُوء إعلام»، علّق برغّادوتشيو. «لو كنتُ امرأة لما مررتُ من هنا، ولا سيّما في المساء. يزرعون فيك سكّيناً دون تردّد. خسارة، لأنّ تلك المرأة لا بأس بها، كالأُمّ الطيّبة المُستعدّة لمُضاجعة سمكريّ، التفتْ وراءك، انظر كيف تُرقّص عَجِيزتها. لقد وقعتْ في هذا المكان جرائم قتل. وراء هذه الأبواب التي صارت الآن مغلقة تُوجد دون شكّ أَقْبية مهجورة، وربّما أيضاً ممرّات سريّة. هنا، في القرن التاسع عشر، ثَمَّةَ مَن يُدعى أنطونيو بوجيا، شخص لا عَمَل له ولا مَوْطن، جذب إلى أحد هذه الأقبية مُحاسباً، بدعوى أنّه يريده أن يُلقي نظرة على دفاتر حساباته، وضربه بفأس. وتمكّنت الضحيّة من النجاة، وأُلقي القبض على بوجيا، وعُدَّ مجنوناً وأسكنوه مأوى المجانين مدّة سنتَيْن. ولكن ما إن استعادَ حريّته حتى عاد إلى تصيّد أشخاص سُذّج وأثرياء، كان يَجْلبهم إلى قَبْوه، وهناك يسلبهم، ثمّ يقتلهم ويدفنهم في المكان عينه. «Serial Killer» كما يقولون اليوم*، ولكنّه قاتل عديم الحذر، لأنّه ترك آثاراً لعلاقاته التجاريّة بالضحايا وفي نهاية الأمر اعتُقِل، وحفر أعوان الشرطة في قبوه فعثروا على خمس جثثٍ أو ستّ ونُفّذ في بوجيا الشنق قريباً من باب لودوفيكا. وسُلّم دماغه إلى مخبر التشريح بـ «المستشفى الكبير» - كان آنذاك زمن لومبروزو*، وكانوا يبحثون في الأدمغة وفي ملامح الوجه عن العلامات الجنائية الوراثيّة. ويبدو أن رأسه دُفن بعد ذلك في مُزوكّو، ولكن من يدري، تلك البقايا هي مادّة نفيسة لمُتعاطِي السحر وأتباع الشيطان من كلّ ملّة... وحتّى الآن، لا يزالون هنا يذكرون بوجيا، كأننا في لندن زمن «جاك السَّفّاح»، لا أودّ قضاء الليل فيه، ومع

* ورد بالإنكليزية «serial killer» أي من يقتل الأشخاص على نحوٍ مُتسلسل. [م].
* Cesare Lombroso (1835-1909) أستاذ في الطبّ، يهودي النشأة من مُؤسّسي المدرسة الإيطالية في علم الإجرام. [م].

ذلك فهذا المكان يجذبني. وغالباً ما أعود إليه، وأحياناً أُدبِّر بعض المواعيد هنا».

بعد أن خرجنا من نهج بانييرا وجدنا أنفُسَنا في ساحة مِنتانا وأدخلني برغّادوتشيو بعد ذلك في نهج موريجي، وهو أيضاً مُعتم ولكنْ فيه بعض الدكاكين الصغيرة وأبواب جميلة. ثمّ وصلنا إلى فُسحة فيها مساحة فسيحة لإيقاف السيارات تُحيط بها بقايا أثريّة. «أرأيت» قال لي برغّادوتشيو «تلك التي على اليسار هي بقايا رومانيّة، لا أحد يكاد يتذكّر أنّ ميلانو كانت أيضاً عاصمة الإمبراطوريّة. لذا لا يمسّها أحد، وإن كانت لا تُهمّ أحداً. ولكن تلك البقايا التي وراء موقف السيارات منازل هدمتها قنابل الحرب الأخيرة».

لم يكن لهذه المنازل المُهدّمة ذلك القِدَم الهادئ الذي تجده في الآثار القديمة، التي تراضت مع الموت، بل كانت ترمق مُفزِعةً بحَدقاتها الفارغة غير المُطمئنّة، كالمُصابة بالقَرّاض.

«لست أدري جيّداً لماذا لم يُحاول أحد إعادة بناء هذا المكان» كان يقول برغّادوتشيو، «ربّما هي منطقة مَحْميّة، أو لأنّ موقف السيارات يُدرّ على المالكين أكثر ممّا يُمكن أن تُدرّ منازل للكِراء. ولكن لمَ ترْك آثار القنابل؟ هذا الفضاء يُثير فيّ رعباً أكثر من نهج بانييرا، ولكنه جميل لأنّه يُظهر لي كيف كانت ميلانو بعد الحرب، في هذه المدينة لم يبقَ إلّا القليل من الأماكن التي تُذكّر كيف كانت المدينة قبلَ خمسين سنة مَضَتْ. وهي تلك الـ «ميلانو» التي أُريد لقاءها من جديد، تلك التي عشتُ فيها صغيراً ثمّ طفلاً، فالحرب انتهت عندما كنت في التاسعة من عمري، من حين إلى آخر في أثناء الليل كان يبدُو لي أنّي أسمع دويّ القنابل. ولكن لم تبقَ الخرائب فقط: انظر بداية نهج موريجّي [Moriggi]، ذلك البُرج يعود إلى القرن السابع عشر، ولم تَهْدمه حتّى القنابل. وتحته، اتبعني، لا تزال تُوجد منذ بداية القرن العشرين هذه الحانة، حانة موريجّي [Moriggi]، ولا تسألني لماذا يحمل اسم الحانة «g» زائدة على اسم الشارع، ولكن البلديّة هي التي قد أخطأت في كتابة لوحة الشارع، فالحانة أَقْدم في الزمن وهي التي على صواب».

دخلنا إلى صالة جُدرانها مَطْليّة باللون الأحمر، سقفها مُقشّر يتدلّى منه مصباح عتيق من الحديد المطروق، ورأس أَيِّل مُلْقى وراء طاولة الشرب، ومئات من قوارير الخمر المُغبرّة على طُول الجدران، ثمّ طاولات عارية من خشب (كان الوقت قُبَيْل العِشاء، قال لي برغّادوتشيو، ولا يوجد فوقها أَغْطية، بعد قليل ستُغطّى بتلك الأَغْطية ذات المُربّعات الحُمْر والبِيض، ولاختيار الأطباق تُقرأ تلك اللوحة الصغيرة المكتوب عليها بالطباشير، مثلما هو الأمر في المطاعم الشعبية الفرنسيّة). كان يجلس إلى الطاولات طَلَبة، وبعض الأشخاص من البوهيميِّينَ، بشعرهم الطويل، ولكن ليس كشعر شباب عام ثمانية وستّين*، بل أشبه بالشعراء، أولئك الذين يلبسون قُبّعات عريضة الجوانب وربطة العُنُق على طريقة لافاليار*، وبعض المُسنّين المُتأزّمين، لا تدري هل بَقُوا هناك منذ بداية القرن أو استأجرهم أصحاب المحلّ الجُدد لإضفاء لون على المكان. تناولنا بعض الشيء من طبق أجبان، ونقانق، وشحم كولونّاتا، وشربنا خمر مارلو، كان جيّداً حقّاً.

«جميل هذا المكان، أليس كذلك؟» قال برغّادوتشيو، «كأنّنا خارج الزمن».

«ولكن لماذا تجذبك ميلانو هذه التي انقضى زمن وجودها؟»

«لقد قلتُ لك ذلك، أُريد أن أشاهد ما صِرتُ لا أكادُ أتذكّره، ميلانو جدّي أو أبي».

وأخذ يحتسي الخمر، في حين شعّ بريق في عينيه، ومسح بمنديل من الورق دائرة رسمتها الخمر على الطاولةِ ذات الخشب العتيق.

«حكاية أُسرتي مُؤسفة. كان جدّي أحد قياديّي النظام المشؤوم، كما يقولون. وفي 25 من أبريل/ نيسان عَرَفَه أحد المُقاومين حينَ كان يتسلّل غير بعيد

---

* إشارة إلى ثورة شباب مايو/ أيار عام 1968 بباريس التي انتقلت في السنة نفسها إلى إيطاليا والمُتمثّلة في الاحتجاجات التي قادها الطلبة وتلاميذ المدارس ضدّ السياسة التربوية والاجتماعية بصفة عامّة. [م].

* نوع من ربطة العُنُق كان دارجاً في نهاية القرن التاسع عشر. [م].

من هنا، في شارع كابّوتشيو؛ فأمسكوه وأعدموه رمياً بالرصاص، فوراً وفي المكان عينه. علم أبي بذلك من بعد لأنّه، وفاءً منه لأفكار جدّي، التحق سنة 1943 بالفيلق العاشر ماس MAS*، وأمسكوه في سالو [Salò]* ثمّ أرسلوه مدّة سنة إلى كولتانو. خرج منه بأعجوبة، لم يجدوا ضدّه أيّ تُهمة، وعلى كلّ حال كان تولياتي* قد منح العفو العامّ، يا لتناقضات التاريخ، الفاشيّون ينجون بفضل الشيوعيّين، ولعلّ تولياتي كان على حقّ، كان من اللازم الرجوع إلى الحياة العادية مهما كان الثمن. ولكن الحياة العادية هي أنّ أبي، بسبب ماضيه، وظِلّ أبيه، لم يجد عملاً، وأعالته أمّي التي كانت خيّاطة. وهكذا فَقَد شيئاً فشيئاً كلّ إرادة، واستسلم للشُّرب، ولا أذكر منه إلّا وجهاً خطّته الشرايين بلون أحمر، وعينَيْن مائيَّتَيْن، حين كانَ يَقُصّ عليّ ما يستحوذ عليه من أفكار. لم يكن يُحاول إيجاد مُسوِّغاتٍ للفاشية (لم يعد يُؤمن بشيء)، ولكنّه كان يقول إنّ المعارضين للفاشية اختلقوا لإدانة الفاشية حِكايات كثيرة فظيعة. كان لا يُصدّق حكاية الملايين الستّة من اليهود الذين أُعدموا بالغاز في مراكز الاعتقال. أُريد أن أقول إنّه لم يكن من بين هؤلاء الذين يَنْفون اليوم وجود «الهولوكست»* ولكنه لا يَثِق بالقصّة التي اختلقها المُحرّرون. كلّها شهادات مُغالى فيها، كان يقول لي، قرأتُ أنّ بعض من نَجَوْا من الموت ذكروا أنّه وسط مركز الاعتقال كانت أكوام أثواب المقتولين ترتفع إلى أكثر من مئة متر. مئة متر؟ هل تُدرك، كان يقول لي، أنّ كوماً ارتفاعُهُ مئة متر، ما دامَ يرتفع في شكل هرم، يجب أن تكون له قاعدة أكبر من المعتقل نفسه؟»

---

* الفيلق العاشر للبحرية الإيطالية في أثناء الحرب العالمية الثانية. [م].
* Salò: جمهورية سالو التي أسّسها موسّوليني في شمال إيطاليا، بعد سقوط نظامه، بمساندة القوّات الألمانية. [م].
* Palmiro Togliatti: زعيم الحزب الشيوعي الذي قاد المقاومة ضدّ الفاشية في أواخر الحرب العالمية الثانية. [م].
* Olocausto [Holocauste]: هولوكست أو شواه تشير إلى الإبادة الجماعية لليهود في معتقلات التكثيف في أثناء الحرب العالمية الثانية. [م].

«ولكنه لا يُراعي أنّ من حضر واقعة رهيبة يُبالغُ عندما يُعيد روايتها. تشهد حادثاً وقع في الطريق السيّارة وتروي أنّ الجُثث كانت مُلقاة على الأرض وسط بُحيرة من الدماء، ولكنّك لا تُريد أن تقول إنّ ما رأيته كان مُتّسعاً مثل بحيرة كومو*، بل لا تُريد سوى أن تقول إنّه كان يوجد كثير من الدم. ضَعْ نفسك مكان الشخص الذي يتذكّر إحدى أكثر التجارب مأساوية في حياته..».

«لا أنفي ذلك، ولكن أبي عوّدني ألّا أُصدّق الأخبار كما لو كانت مُنزّلة. الصحف تكذب، والمُؤرّخون يكذبون، واليوم التلفزة أيضاً تكذب. أرأيت في نشرات الأخبار في السنة الماضية، في أثناء حرب الخليج، صورة الغاق المُلطّخ بالقَطران وهو يحتضر على سواحل الخليج العربي؟ لقد تأكّد بعد ذلك أنّه في ذلك الفصل يستحيل أن يوجد طائر الغاق في الخليج، وأنّ الصُّوَر تعود إلى ثماني سنوات قبل ذلك، أثناء الحرب بين العراق وإيران. أو، يقول آخرون، أخذوا طيور الغاق من حديقة الحيوان ولطّخوها بالبترول. وهكذا يكونون قد تصرّفوا في الجرائم الفاشية. انتبهْ، هذا لا يعني أنّني بقيتُ عاطفيّاً مُتمسّكاً بأفكار أبي أو جدّي، أو أنّني أُريد التظاهر بأنّ مجزرة اليهود لم تقع. ومن ناحية أُخرى فإنّ بعضاً من أعزّ أصدقائي هم يهود، صدّقني. ولكني لم أعُدْ أَثِق بشيء. هل نزل الأميركيّون حقّاً على سطح القمر؟ ليس من المستحيل أن يكونوا صنعوا كلّ شيء في الأُستوديو، ولو أنعمتَ النظر جيّداً في ظلال رواد الفضاء بعد الهُبوط على سطح القمر لعلمتَ أنّها غير قابلة للتصديق. وحرب الخليج أوَقَعَتْ أم لم نَرَ سوى صُوَرٍ قديمة من الأرشيف؟ نحن نعيش في عالم من الكذب، وإذا علمتَ أنّهم يكذبون عليك، فينبغي لك أنّ تشكّ دائماً. أنا أشكّ، أشكّ دائماً. الشيء الوحيد الحقيقي الذي لديّ منه شاهد هو ميلانو هذه التي تعود إلى عشرات من السنين مضت. القصف بالقنابل وقع حقّاً، وللتحديد فقد قام به البريطانيّون أو الأميركيون».

---

* إحدى كُبرى البحيرات في شمال إيطاليا غير بعيد عن ميلانو. [م].

«وماذا جرى لأبيك بعد ذلك؟»

«مات من إدمان الخمر عندما كان لي من السنّ ثلاث عشرة سنة. وللتحرّر من تلك الذكريات، بعد أن كبرتُ، ارتميتُ في الشقّ المُقابل. سنة 1968 كنتُ قد تجاوزت الثلاثين ولكني أطلتُ شعري، ولبستُ الإسكيمو وقميص الصوف، والتحقتُ بمجموعة من المُساندين للصين. بعد ذلك اكتشفتُ أنّ ماو قتل أُناساً أكثر من ستالين وهتلر معاً، وليس هذا فقط، بل إنّ المجموعة المُساندة للصين ربّما يكون قد اخترقها مشاغبون من المُخابرات. فجعلتُ نفسي صحفيّاً يُفتّش عن مُؤامرات فحسبُ. وهكذا تفاديتُ (وكانت لي صداقات خطيرة) السقوط بعد ذلك في فخّ الإرهابيّين الحُمر. فقدتُ كلّ يقين، ما عدا اليقين بأنّه يوجد دائماً وراء ظهرك شخص يُريد خِداعك».

«والآن؟»

«الآن، إذا انطلقت مسيرة هذه الجريدة، فلعلّي أكون قد وجدتُ موضعاً سيأخذون فيه بعض اكتشافاتي مأخذ الجدّ... لقد وضعتُ يدي على قصّة هي... زيادةً على الجريدة، يُمكن أن تُمثّل موضوع كتاب، وعندئذٍ. . . ولكن *glissons**، سنعود إلى الحديث عن ذلك عندما تكون لديّ كلّ المُعطيات. . . إلّا أنّه ينبغي لي أن أُسرع، أحتاج إلى نُقود. القليل الذي سيدفعه لي سيماي هو شيء ما، ولكنه لا يكفي».

«للعيش؟»

«لا، لشراء سيّارة : من البديهي أنّني سأشتريها بالأقساط، ولكن الأقساط يجب دفعها. وينبغي أن أحصل عليها فوراً، سأستعملها لإنجاز تحقيقي».

«اعذرني، ولكنّك تقول إنّك تُريد ربح المال من تحقيقك لشراء سيّارة ولكنّك تحتاج للسيّارة لإنجاز تحقيقك».

* ورد بالفرنسية في النصّ ما معناه: لا داعي إلى الإلحاح أو لنترك هذا. [م].

«لإعادة تركيب الأشياء ينبغي لي أن أتنقّل، أن أزور بعض الأماكن، وربّما أن أسأل بعض الأشخاص. بلا سيّارة ومع ضرورة الذهاب كلّ يوم إلى إدارة التحرير، سأضطرّ إلى إعادة التركيب بوساطة الذاكرة، ألّا أشتغل إلّا بقوّة العقل. وليته كان المشكلة الوحيدة».

«وما المشكلة الحقيقيّة؟»

«أنا لستُ مُتردّداً، ولكن لكي أفهم ماذا يجب أن أفعل عليَّ أن أُطابق كلّ المُعطيات. مُعطىً واحد لا يعني شيئاً، ولكنّها جميعاً تُظهر لك ما لم تفطن إليه أوّل وهلة. يجب أن تُبرز ما يُحاولون إخفاءه عنك».

«تتحدّث عن تحقيقك؟»

«كلّا، أتحدّث عن اختيار السيّارة..».

كان يرسم على الطاولة بإصبعه المُبلّل بالخمر، كما لو كان يضع، على نحو ما في مجلّات الألغاز، مجموعة من النِّقاط يجب أن تترابط لإبراز صورة.

«يجب أن تكون السيّارة سريعة، ومن صِنف راقٍ شيئاً ما، لست أبحث البتّة عن سيّارة شعبيّة، ولا أُريدها إلّا أماميّة الدفع. أُفكّر في التي نوعها «لانتشيا تيما» [Lancia Thema] توربو ستّة عشر صِماماً، إنّها من أغلى السيّارات ثمناً، ستّون مليوناً تقريباً. بإمكاني أن أُجرّب، 230 كلم في الساعة وتسريع في نحو 7 وفاصل هو 2، أي يكاد يكون الحدّ الأقصى».

«باهظة».

«ليس هذا فقط، بل ينبغي لك أن تكتشف المُعطى الذي يُحاولون التستّر عليه. عندما لا تكذب الإعلانات، فهي تصمت. يجب أن تقرأ بانتباه الجذاذات التقنية في الدوريّات المُتخصّصة، فتكتشف أنّ عرضها 183 سنتيمتراً».

«أليس بالجيّد؟»

«أنت أيضاً لا تُولي ذلك بالاً، في مُختلف الإعلانات لا يقولون لك سوى

طول السيّارة، الذي يصلح دون شكّ للمَرْأَب، أو للهيبة، ولكنهم نادراً ما يذكرون العَرْض، وهو أساسيّ إذا كان مَرْأَبك ضيّقاً، أو المكان المُخصّص لك أضْيق، فضلاً عن الوقت الضائع وأنت تطوف كالمجنون للعثور على فسحة بين سيّارتَيْن تنحشر فيها. العرض شيء أساسيّ. يجب التوجّه نحو ما هو دون 170 سنتيمتراً.

«أتصوّر أنّ ذلك مُمكن».

«دون شكّ، ولكن في سيّارة عرضها 170 سنتيمتراً الفضاء الداخلي ضيّق، وإذا كان إلى جانبك شخص آخر ليس لديك الفضاء الكافي للمِرْفق الأيمن. ثمّ، ليست لديك الرفاهية التي تُوفّرها سيّارة أوسع، فيها كلّ المفاتيح في متناول اليد اليمنى، قريباً من مُحوّل السرعة».

«إذن؟»

«ينبغي الانتباه إلى أنّ اللوحة الأماميّة للسيّارة ثريّة بالمعدّات، وأن تكون لديك مفاتيح في المِقْود، للتخفيف من استعمالات اليد اليمنى. وها أنا ذا قد اكتشفتُ الـ «صاب 900 توربو» [Saab]، عرضها 168 سنتميتراً، وأقصى سرعةٍ هي 230 كلم/ساعة، وينخفض السّعر إلى 50 مليوناً».

«هذه بُغيتك».

«صحيح، ولكنهم في رُكن صغير فقط يقولون لك إنّ قوّة التسريع هي 8،5 ثانية في حين أنّ المطلوب هو في الأقلّ 7، كما في الـ «روفر 220 توربو» [Rover]، ثمنها أربعون مليوناً، وعرضها 168 سنتميتراً، بسرعة أقصاها 235 كلم/ساعة وقوّة تسريع 6،6، سيّارة سباق».

«إذن هي السيارة التي تصلح لك..».

«كلّا، لأنّه في آخر الجُذاذة فقط يُصرّحون بأنّ ارتفاعها يبلغ 137 سنتيمتراً. واطئة جدّاً بالنسبة إلى شخص بدين مثلي، تكاد تكون سيّارة سباق لأبناء الأثرياء الذين يتماهون بالرياضيّين، في حين أنّ «لانتشيا» يبلغ ارتفاعها

143 و«صاب» 144، وبإمكانك فيهما الولوج براحةٍ. ولا بأس في هزاز، إذا كنتَ ابن أحد الأثرياء فلن تبحث عن المُعطيات التقنيّة التي هي مثل تحذيرات الأدوية، المكتوبة بخطّ لا يكاد يُقرأ بحيث يغيب عنك أنّه إذا استعملتَ الدواء فإنّك ستموت في اليوم التالي. «روفر220» لا تزن سوى 1185 كلغ: شيء قليل، لو اصطدمت بشاحنةٍ ثقيلة لتحطّمتَ كلا شيء، في حين ينبغي الاتّجاه نحو سيّارات أثقل، مُقوّاة بالفُولاذ، ولا أتحدّث عن «فولفو» [Volvo] التي هي مثل عربة مصفّحة ولكنها بطيئة، ولكني أتحدّث عن «فولفو 820 TI»، ثمنها نحو خمسين مليوناً، 230 كلم/ساعة و 1420 كلغ».

«وأتصوّر أنّك طرحتها جانباً لأنّها...» علّقتُ وقد صرتُ أنا أيضاً مريضاً بالهَذَيان.

«لأنّ قوّة تسريعها تبلغ نحو 2،8: سُلحفاة حقّاً، ليس لها *sprint*. شأنها شأن «مرسيدس 280 C»، التي عرضها 172 سنتيمتراً ولكن، زيادةً على ثمنها الذي يبلغ 67 مليوناً، يصل تسريعها إلى 8،8. وبعد هذا كلّه يطلبون منك خمسة أشهر لتسليمها. وهذا أيضاً مُعطى يجب أن يُراعى إذا علمتَ أنّ بعض تلك التي ذكرتها لك يستغرق تسليمها شهرَيْن وهناك أخرى جاهزة فوراً. لماذا جاهزة فوراً؟ لأنّها لا يُريدها أحد. الحذر ثُمَّ الحذر. يبدُو أنّهم يُسلّمونك فوراً «كاليبرو توربو»، ستّة عشر صِماماً، 245 كلم/ساعة، دفع كامل، تسريع 8،6، عرضها 169، وتُساوي ما يزيدُ بقليل على خمسين مليوناً».

«ممتاز، حسب رأيي».

«لا، لأنّها لا تَزِن سوى 1135 كلغ، خفيفة جدّاً، وارتفاعها لا يزيد على 132 سنتميتراً، أتعس من كلّ سابقاتها، لزبون ثريّ ولكنّه قزم. وليت المشكلات تقف عند هذا الحدّ. لم نفكّر في حامل الأمتعة. الأوسع هو في «تيما» [Thema] ستّة عشر صِماماً توربو، ولكنّ عرضها 175 سنتيمتراً. من بين أضيق السيّارات وقفتُ عند «ديدرا» [Dedra]، 2.0 XL، بها حامل أمتعة واسع، ولكن لا يكفي، إنّ تسريعها 9،4 بل تزن ما يزيد بقليل على 1200 كلغ ولا تقطع أكثر من 210 كلم في الساعة».

«إذن؟»

«إذن، لستُ أدري، اضطراب فكري. لا يكفي أنّ فكري مضطربٌ بالتحقيق الذي أُعنى به، أُفيقُ ليلاً لأُقارن بين السيّارات».

«ولكنّك تعرف كلّ شيء عن ظَهْر قلب؟»

«أنجزت بعض الجداول، ولكن المُشكلة هي أنّي حفظتُها عن ظهر قلب، وهو شيء لا يُطاق. صرتُ أظنّ أنّ السيّارات صُمِّمت لكي يتسنّى لي شراؤها».

«ألستَ تُغالي في الشُّكوك؟»

«الشكوك ليست أبداً مُغالاة. الشكّ، دائماً الشكّ، بهذه الطريقة وَحْدَها تصل إلى الحقيقة. أليس هذا ما يقوله لنا العلم؟»

«يقوله ويفعله».

«خُزَعبلات، حتى العلم يكذب. انظر حكاية الانصهار البارد. كذبوا علينا طَوالَ شهور ثمّ اكتشفنا أَنَّها خُدعة عظيمة».

«ولكنّهم اكتشفوه».

«من؟ البنتاغون، الذي ربّما يُحاول تغطية شيء مُحرج. ربّما كان مكتشفو الانصهار البارد على حق وكذب أولئك الذين قالوا إنّ الآخرين كذبوا».

«أقبل ذلك بقَدْر تعلّقه بالبنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزيّة [CIA]، ولكن لا تقُل لي إنّ كلّ المجلّات المُختصّة في السيارات تابعة لمخابرات الديموبلوتويهوديقراطية المتربّصة». كنتُ أحاول نسبته إلى الحسّ المشترك.

«هذا رأيك؟»، قال لي بابتسامة مُرّة. «هي أيضاً تابعة للصناعة الكبرى الأميركيّة، ولشقيقات البترول السبع، وهي التي اغتالت متّاي [Mattei]*، وربّما

* إنريكو متّاي [Enrico Mattei] رجل أعمال مُتخصّص في مجال البترول مؤسّس الـ ENI =

لا يُهمّني شيء من هذا، ولكنّها هي التي موّلت أيضاً المُقاومين الذين قتلوا جدّي. أرأيتَ أنّ كلّ شيء مُتماسك؟»

ولكن بدأ النادلون الآن يضعون السِّمَاط على الموائد إشارة منهم إلى أنّ الوقت انتهى لمن لم يأتِ إلّا لشرب كأسَيْن من الخمر.

«لقد ولّى زمن كان كأسان من الخمر فيه يُبقيانك هنا إلى الثانية صباحاً»، قال برغّادوتشيو مُتنهّداً، «ولكن حتّى في هذا المكان صاروا يتصيّدون الزبون المملوء الجيب. قد يأتي يوم يجعلون فيه هذا المكان عُلبة رقص بالأضواء الستربوسكوبيّة. هنا لا يزال كُلّ شيء أصليّاً، هذا صحيح، ولكنّك تُحسّ مع ذلك بأنّه كما لو أنّ كل شيء زائف. تصوّر أنّ أصحاب هذا المطعم الميلاني هم منذ زمن طويل توسكانيّون، هكذا قالوا لي. لا شيء عندي ضدّ التوسكانيّين، هم كذلك أُناس طيّبون، ولكنّني أتذكّر عندما كنتُ طفلاً أنهم حين يتحدّثون عن ابنة لأحد معارفنا لم يكن زواجها مُوفَّقاً، كان أحد أبناء عُمومتي يُفسّر، مُلمّحاً: يجب بناء جدار عازل تحت فيرانسي (فلورنسا). فكانت أُمّي تعلّق قائلة: «تحت (فلورنسا)؟ بل تحت بولونيا!»*.

بينما كنّا ننتظر دفع الحساب قال لي برغّادوتشيو، بصوت يكاد يكون هامساً: «هل بإمكانك أن تُقرضني بعض المال؟ سأُعيدُهُ إليك خلال شهرَيْن».

«أنا؟ ولكنّ حالي حالك، لا أكسب ليرة واحدة».

«قد يكون. لستُ أدري كم يدفع لك سيماي وليس لدي الحقّ في معرفة ذلك. هو مُجرّد كلام. على أيّ حالٍ، الحساب عليك الليلة، أليس كذلك؟»

هكذا عرفْتُ برغّادوتشيو.

= التي صارت عملاقاً صناعيّاً. توفي سنة 1962 في حادث الطائرة التي كانت تُقلّه والمُرجّح أنّها شُحنت بقنبلة. [م].

* إشارة إلى عنصريّة أهالي الشمال إزاء الجنوب والأشدّ عُنصريّة يجعلون الجنوب يبدأ تحت بولونيا. [م].

4
الأربعاء 8 أبريل/ نيسان

في اليوم التالي انعقد أوّل اجتماع حقيقي لهيئة التحرير. «لنُحرّر الجريدة» قال سيماي «جريدة 18 من فبراير من هذا العام».

«لماذا 18 من فبراير؟» سأل كامبريا، الذي سيتميّز من بعد بوصفه الشخص الذي يُلقي دائماً أكثر الأسئلة غباءً.

«لأنّه في هذا الشتاء، يوم 17 من فبراير، اقتحم أعوان الشرطة مكتب ماريو كييزا [Mario Chiesa]، رئيس «إقامة تريفولتسيو للمُسنّين» وأحد الشخصيّات البارزة في الحزب الاشتراكي الميلانيزي. تعرفون كُلّكم ذلك: طلب كييزا رِشاً على عَقْد لشركة تنظيف بمدينة «مونْدزا»، وهو عَقْد بمئةٍ وأربعين مليوناً، اشترط فيها عشرة من مئةٍ له، وكما ترون حتّى دارُ المسنِّينَ يُمكن أن يصير بقرة حلوباً قابلة للاستغلال. والظاهر أنّها ليست المرّة الأُولى التي تُحلَبُ فيها لأنّ صاحب شركة التنظيف ضاق ذَرْعاً بدفع الرِّشا وشكا كييزا. وهكذا ذهب إلى مكتبه لدفع القسط الأوّل من الملايين الأربعة عشر المُتفَّق عليها، وعليه ميكرفون وآلة تصوير مُخَبَّآنِ. وما إنّ تسلّم كييزا المبلغ حتّى اقتحمت الشرطة المكتب. وكييزا، الذي انتابه الرّعب، أمسك برشوة أُخرى أكبر كان قد تسلّمها من شخص آخر وهرع إلى بيت الرّاحة ليُلقيَ بالأوراق المالية في المرحاض، ولكن لم ينفع ذلك، وقبل إتلاف كُلّ تلك الأموال كانوا قد قبضوا عليه. هذه هي القصّة، تتذكّرون ذلك، والآن تعرف يا كامبريا ماذا يجب أن نروي في عدد اليوم

التالي للحادثة. اذهب إلى الأرشيف، وأَعِدْ قِراءة كُلّ أخبار ذلك اليوم قِراءة جيّدة وأعدّ لنا افتتاحيّة وجيزة، بل بالعكس، مَقالاً جميلاً، لأنّه، إن لم تَخُنّي ذاكرتي، لم تتحدّث نشرات الأخبار التلفزيّة ذلك المساء عن الحادثة».

«أوكاي، يا مدير. أنا ذاهب».

«انتظرْ، فهنا تدخل مُهمّة جريدة **الغد**. تتذكّرون دون شكّ أنّه في الأيام اللاحقة للحادثة فعلوا ما في وُسعهم للتقليل من أهميّة الحدث، وقال كراكسي [Craxi]* إنّ كييزا لا يعدو أن يكون بَهْلواناً، وسينفض يديه منه، ولكن ما كان قارئ جرائد يوم 18 من فبراير لا يزال يجهله هو أنّ القُضاة سيُواصلون تحقيقاتهم، وسيبرز من بينهم كلب صيد بأتمّ معنى الكلمة هو ذلك القاضي دي بيترو [Di Pietro]* الذي صار الجميع يعرف الآن من هو ولكن في ذلك الوقت لم يكن أحد قد سمع ذِكْراً لاسمه. حقّق دي بيترو مع كييزا طويلاً، واكتشف ما يملك من حسابات في سويسرا، واعترف له هذا الأخير بأنّه ليس حالة منفردة، وشيئاً فشيئاً ظهرت شبكة من الفساد شملت كُلّ الأحزاب، وتبيّنت تَبِعاتها الأُولى في هذه الأيام السابقة بالذات، وقد رأيتم أنّه في الانتخابات الأخيرة خسر الحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الاشتراكي عدداً كبيراً من الأصوات، وتقوّى حزب الرابطة الشمالية، الذي من فَرْط حِقْده على حُكومات روما رَكِبَ الفضيحة. وها هي ذي التوقيفات تتوالى، والأحزاب تتفتّت شيئاً فشيئاً وهُناك من يقول إنّه، بعد سُقوط حائط برلين وانحلال الاتّحاد السوفياتي، لم يعد الأميركيّون يحتاجون إلى الأحزاب التي كان باستطاعتهم التأثير فيها، وتركوها في أيدي القُضاة - أو رُبّما، والافتراض جائز، يُحقّق القضاة سيناريواً خطّطت له

* بتّينو كراكسي [Bettino CRAXI] كان رئيس الحزب الاشتراكي وأوّل رئيس حكومة اشتراكي مات بالحمّامات (تونس)، إذ فرّ من ملاحقات العدالة الإيطالية. [م].

* أنطونيو دي بيترو [Antonio di Pietro] كان القاضي الذي فضح فساد كثير من رجال السياسة بما أدّى إلى انهيار الأحزاب الكبرى الإيطالية في إطار حملة أطلق عليها اسم «الأيدي النظيفة» شملت أيضاً كراكسي الذي حُكم عليه غيابيّاً بالسجن والذي كان قد ترك إيطاليا إلى تونس، واستقرّ بالحمّامات إلى حين وفاته. [م].

المخابرات الأميركيّة، ولكن لا ينبغي في الوقت الحالي أن نُغالي. هذا هو الوضع الآن، ولكن في 18 من فبراير لم يكن أحد يتصوّر ماذا سيحدث. إلّا أنّ جريدة **الغد** ستتصوّر ذلك، وستقوم بسِلْسِلة من التوقّعات. ومقال التوقّعات والتلميحات أَعْهد به إليك، يا لوتشيدي، وستكون من الفِطنة بحيث ستقول **لعلّ** و **رُبّما** وفي الواقع تقصّ ما هو حقيقة سيقع بعد ذلك. مع أسماء بعض السياسيّين، ووزِّع المادّة جيّداً بين مُختلف الأحزاب، وأقحم أيضاً أحزاب اليسار، واجعلْهم يفهمون أنّ الجريدة بصدد جمع وثائق أُخرى، وقُلْ ذلك بطريقة تجعل أيضاً قُرّاء العدد 0/ 1 يموتون فَزَعاً وهم يعرفون جيّداً ما حدث في الشهرَيْن التاليين لفبراير/ شباط، ولكنّهم سيتساءلون ماذا يُمكن أن يكون العدد صفر بتاريخ اليوم... فهمت؟ إلى العمل».

فسأله لوتشيدي: «ولماذا عهدتَ بهذه المهمّة إليّ؟»

نظر إليه سيماي بطريقة غريبة، كما لو كان عليه أن يفهم ما لم نفهمه نحن: «لأنّني أظنّ أنّك ماهر جدّاً في جَمْع الأخبار وإيصالها إلى من يُهمّه الأمر».

من بعد، وبصفة مَنفردة، سألتُ سيماي ماذا كان يريد أن يقول. «لا تُحَدِّثْ بهذا الآخرين»، قال لي، «ولكن لوتشيدي، حَسَب رأيي يعمل مع المُخابرات، والصحافة، عنده، غطاء».

«تعني أنّه جاسوس. ولماذا قبلتَ جاسوساً في هيئة التحرير؟»

«لأنّه ليس من المُهمّ أن يتجسّس علينا، ماذا تُريده أن يقصّ، إن لم تكن أشياء يُمكن أن تطّلع المخابراتُ عليها جيّداً بقراءة أيّ عدد من أعدادنا الصفر؟ ولكن بإمكانه أن يحمل إلينا أخباراً اكتشفها بالتجسّس على آخرين».

ربّما لا يكون سيماي صُحفيّاً كبيراً، فكّرتُ بيني وبين نفسي، ولكنّه عبقريّ في جنسه. وتفكّرتُ في مقولةٍ نُسبت إلى مدير أُوركسترا، عُرف بلسانه اللاذع، مُتحدّثاً عن عازف: «فلان في جنسه عظيم. فلان من جنس القذارة».

5
الجمعة 10 أبريل/ نيسان

بينما كان التفكير مُتواصلاً في ما ينبغي قوله في العدد 0/ 1، فتح سيماي قوساً واسعاً بشأن بعض المبادئ الأساسيّة لعمل كُلّ واحد منّا.

«كولونّا، فسّرْ قليلاً لأصدقائنا كيف يُمكن أن نُعاين، أو نُظهر أنّنا نُعاين، وهو مبدأ أساسي في الصحافة الديمقراطيّة: الأحداث مُنفصلة عن الآراء. في جريدة **الغد** سيكون هناك الكثير من الآراء، وسنُظهرها على أنّها آراء، ولكن كيف نُبيّن أنّنا في مَقالات أُخرى نَذْكر الأحداث فقط؟»

«يسيرٌ جدّاً،» قلتُ. «انظروا إلى الصُّحف الأنغلوساكسونية الكبرى. إذا قصّوا، لستُ أدري، حادثة حريق أو حادث سيارة على الطريق، فلا يُمكنهم دونَ شكٍّ أن يقولوا رأيهم في ذلك. لذا يُقحمون في المَقَال، بين هلالين، تصريحات شاهد عِيان، أحد المارّة في الشارع، شخص يُمثّل الرأي العامّ. بوضع التصريحات بين الهلالين تُصبح هي الوقائع، لأنه واقع عبَّر عنه شخص ما برأي ما. ولكن بالإمكان افتراض أنّ الصّحفي لم يسأل إلّا من يُفكّر مثله. ولذا ينبغي أن يكون هُناك تصريحان، مُتعارضان فيما بينهما، لإبراز أنّ الواقع وجود آراء مختلفة في مسألةٍ ما - والجريدة تُعبّر عن هذا الواقع الذي لا شكّ في وُجوده. تكمن الحيلة في وَضْع الهلالين أوّلاً لرأي تافه، ثمّ لرأي آخر، أكثر عُمقاً، مُشابه جدّاً لرأي الصحفي. وهكذا سيبدو للقارئ أنّه أمام واقعَيْن ولكنّه سيميل إلى قَبول رأي واحد على أنّه أكثرهما إقناعاً. لنُعطِ مثالاً: انهار

جسر، وسقطت شاحنة ومات السائق. والنصّ، بعد أن وصف الحادثة بكلّ دقّة، سيقول: لقد استمعنا إلى السيّد روسّي، 42 سنة، صاحب كشك جرائد عند زاوية الشارع. **ماذا تُريدونني أن أقول، إنه القَدَر**، قال، **يُؤسفني ما حدث لذلك المسكين، ولكن المكتوب مكتوب**. وفوراً بعد ذلك قال السيّد بيانكي، 34 سنة، بنّاء كان يعمل في حظيرةٍ قريبة من موقع الحادث: **إنها غلطة البلديّة، الجميع يعرف منذ زمن أنّ الجسر مُهدَّد بالانهيار**. مع مَن سيقف القارئ؟ مع الذي يُدين أمراً أو أحداً، مع الذي يُشير إلى المسؤولين عن ذلك. واضح؟ المسألة هي ماذا نضع بين هلالين وكيف نضع خطاباً بينهما. لنقُمْ بتمرين. ولنبدأ بحضرتك، يا سيّد كوستانتسا. انفجرت قُنبلة في ساحة فونتانا».

فكّر كوستانتسا قليلاً، ثمّ قال: «السيّد روسّي، 41 سنة، مُوظّف بلديّ، هو الذي كاد يكون في البنك عندما انفجرت القُنبلة، صرّح لنا: «**كنتُ قريباً من هنا وسمعتُ الانفجار. شيء فظيع. هُناك من يصطاد في الماء العَكِر، ولكنّنا لن نعرف أبداً من هو**. والسيّد بيانكي (50 سنة، حلّاق) كان هو أيضاً مارّاً قريباً من هنا عند وُقوع الانفجار، ويذكر أنّه كان يصمّ الآذان ورهيباً، وعلّق قائلاً: «**إنّه عمل إرهابي نموذجي للحركة الفوضويّة، لا شكّ في ذلك**».

«جميل جدّاً. آنسة فريزيا، جاء خبر موت نابوليون».

«حسناً، أقول إنّ السيّد بلانش، مع ذكر سِنّه ومهنته، قال لنا إنّه يرى أنّ من الظُّلم أن ننفيَ إلى تلك الجزيرة رجلاً خسر كلّ شيء، مسكين، فهو أيضاً لديه أُسرة. والسيّد ماندزوني، أو بالأحرى منسوني، قال لنا: **انتهى رجل غيّر وجه العالم**، من **نهر منزَناريس إلى نهر الرّاين، رجل عظيم**».

«جميل هذا المنزناريس،» قال سيماي بابتسامة. «ولكن لتمرير آراء دون لفت الانتباه هناك أيضاً طرائقُ أُخرى. لمعرفة ما ينبغي وضعه في الجريدة، يجب، كما يقولون في هيئات التحرير الأُخرى، تحديد الأجندة. يوجَدُ من الأخبار في هذا العالم ما لا نهاية له، ولكن لماذا يجب أن نقول إنّه وقع حادث في بِرغامو

ونُغْفِلُ أنّه وقع حادث آخر في ميسّينا؟ ليست الأخبار هي التي تصنع الجريدة، إنّما الجريدة هي التي تصنع الأخبار. وإذا عرفتَ كيف تضع أربعة أخبار مُختلفة معاً، فهذا يعني أنّك تُوحي للقارئ بخبر خامس. هذه صحيفة يوميّة، صدرَتْ منذ يومَيْن، في الصفحة نفسها: ميلانو، تُلقي مولودها الجديد في المرحاض؛ بيسكارا، بشأن موت ديفيد لا شأن لشقيقه بذلك؛ أمالفي، يتّهم بالتحايل الطبيبة النفسانيّة التي عهد إليها بابنته المريضة؛ بوسكاتي، خرج من الإصلاحيّة بعد أربع عشرة سنة؛ الشاب الذي في سنّ الخامسة عشرة قتل طفلاً عمره 8 سنوات. ظهرت هذه الأخبار الأربعة في الصفحة نفسها، وعُنوان الصفحة هو «المُجتمع والأطفال والعُنف». لا شكّ في أهمّيّة الحديث عن أعمال عُنف تستهدف القاصرين، ولكنّها ظواهر مُختلفة جدّاً فيما بينها. في حالة واحدة (قتل الرضيع) يتعلق الأمر بالعنف الأُسري، أمّا قضيّة الطبيبة النفسانيّة فلا يبدُو لي أنّها تُهمّ الأطفال لأنه لا يُوجد ذكر لسِنّ الفتاة المريضة بالأنوركسيا، وقصّة شابّ بيسكارا إنْ دَلَّتْ على شيء فهي تدلّ على أنّه لم يكن هناك عُنف وأنّ الشابّ مات عَرَضاً، وأخيراً، ما حدث في بوسكاتي، إذا قرأنا ذلك بتمعّن، يتعلّق بشخصٍ في الثلاثين تقريباً، والواقعة الحقيقيّة تعود إلى أربع عشرة سنة مضت. ماذا كانت تُريد أن تقول لنا الجريدة من خِلال هذه الصفحة؟ رُبّما لا شيء مقصوداً، والمُحرّر الكسول وجد بين يديه أربع برقيات من وكالة أخبار، ورأى المصلحةَ في وضعها معاً، ليكون التأثير أقوى. ولكن الصحيفة في الواقع تُرسل لنا فكرة، أو إنذاراً أو تحذيراً - لستُ أدري... وعلى أيّ حال فكّروا في القارئ: إذا ما أخذناها على حِدَة، كُلٌّ من هذه الأخبار الأربعة سيحظى باللامُبالاة، في حين أنّها في مجموعها ستجعله يُركّز على الصفحة. مفهوم؟ أعرف أنّكم لم تفقهوا شيئاً لأن الصّحف تكتبُ دائماً أنّ العامل الكلابريزي (من الجنوب) يُعنّف زميله في العمل، ولا تكتبُ أبداً أنّ عاملاً من كونيو من الشمال عنّف زميلاً له، حسناً، هذه عُنصريّة، ولكن تصوّروا صفحة يُذكر فيها أنّ عاملاً من كونيو إلخ إلخ، ومُتقاعداً من ماستري يقتل زوجته، وصاحب كشك من بولونيا ينتحر، وبنّاء جنويّاً يُوقّع على صكّ بلا رصيد، ما الذي يَعْنيه مكان نشأة هؤلاء للقارئ؟ لكن لو

تحدّثنا عن عامل كلابريزي، أو عن مُتقاعد من ماتيرا، أو عن صاحب كشك من فوجيا وعن بنّاء من بالرمو، لأحدَثَ ذلك عندئذٍ انشغالاً بأوساط الإجرام في جنوب إيطاليا وهذا يُمثّل خَبَراً. . . جريدتنا تَصْدر في ميلانو، لا في كتانيا، ويجب أن نُراعيَ حساسيّة القارئ الملانيزي. انتبهوا إلى أنّ صُنع خَبَر عبارة جميلة، الخَبَر نصنعه نحن، ويجب إبرازه من بين السطور. دكتور كولونّا، اجمع في أوقات الفراغ المُحرّرين وتصفّحوا برقيّات وكالات الأنباء، وكوّنوا بعض الصفحات حَسَب غَرَض مُعيّن، تمرّنوا على إبراز الخَبَر من حيث هو غير موجود أو من حيث لا يَعرف الآخرون كيف يرونه، هيّا، إلى العمل».

والموضوع الآخر الذي عُنينا به هو موضوع التكذيب. كانت جريدتنا لا تزال جريدة بلا قُرّاء، ومِن ثَمَّ فإنّ أيّ خَبَر ننشره لن يوجد من يكذّبه. ولكن الجريدة تعرف قوّتها أيضاً من قُدرتها على مُواجهة التكذيبات، ولا سيّما إذا كانت جريدة أظهرت أنّها لا تخاف من دسّ أيديها في الوحل. وزيادةً على التمرّن قبل أن تصل التكذيبات الحقيقيّة، كان من المستحسَن اختلاق بعض الرسائل من القُرّاء تتبعها رُدودنا بالتكذيب. حتى نظهر لمُشغّلنا شدّة بأسنا في هذا المجال.

«تحدّثتُ في ذلك يوم أمس مع الدكتور كولونّا. كولونّا، هل باستطاعتك أن تُلقي، إن جازَ التعبير، درساً في تقنية التكذيب؟»

«حسناً»، قلتُ على الفور، «لنُعطِ مثالاً مدرسيّاً، ليسَ مُختلقاً فحَسْب بل مُغالى فيه أيضاً. إنّه مُحاكاة لتكذيب نُشر منذ بضع سنوات على صفحات *l'Espresso*. كان يُفترض أنّ الصحيفة تسلّمت رسالة من شخص يُدعى بريتشيزو زمنتوتشيا*، وسأقرؤها عليكم».

حضرة المدير، بالرجوع إلى مَقَالكم «*Alle Idi io non vidi*» (المُشتبه به في جريمة عَيْدَس 'الخامس عشر من مارس/آذار' يُنكر كُلّ شيء)، الصادر في العدد السابق من صحيفتكم بإمضاء أليتيو فيريتا، اسمحوا لي بتحديد ما يأتي. ليس صحيحاً أنّي كنتُ حاضراً في اغتيال يوليوس قيصر. ويمكنكم أيضاً التثبُّت من مضمون الولادة المُرافق

* زمنتوتشيا يعني المكذّب في حين أنّ فيريتا يعني الحقيقي [م].

للرسالة، فأنا مولود بمولفيتا يوم 15 من مارس عام 1944 أي بعد عدّة قُرون من وُقوع الحدث المُؤلم، الذي من جِهة أُخرى أدنتُه دائماً. السيّد فيريتا فهم خطأً عندما قلتُ له إنّي أحتفل دائماً مع بعض الأصدقاء بالـ 15 من مارس عام 1944.

وليس صحيحاً أيضاً أنّي قلتُ للمُسمّى بروتس: «سنلتقي في فيليبّي». أُحدّد أنّه لم يكن لي البتّة أيّ اتّصال بالسيّد بروتس، الذي كنتُ إلى يوم أمس أجهل حتّى اسمه. خلال الحوار الوجيز الذي أجريتُه بالفعل هاتفياً مع السيّد فيريتا قلتُ له إنّي سألتقي قريباً عُضوَ المجلس البلدي المُكلّف بحركة المرور فيليبّي، ولكن الجُملة قيلت في سِياق حوار بشأن حركة مُرور السيارات. في ذلك السِّياق لم أقُلْ البتّة إنّي بصَدَد إعداد اغتيالات للقضاء على ذلك الخائن يوليوس قيصر، بل «إنّي بصدد حثّ المُكلّف بالمُرور على القضاء على اكتظاظ حركة المرور في ساحة يوليوس قيصر». أشكركم ولكم تحيّاتي السامية، بريتشيزو زمَنتوتشيا.

«كيف يجب الردّ على تكذيب بهذه الدقّة دون فُقدان المِصداقية؟ إليكم ردّاً جيّداً».

أُسجّل أنّ السيّد زمنتوتشيا لا يُكذّب البتّة كونَ يوليوس قيصر اغتيل في 15 من مارس عام 44، وأُسجّل أيضاً أنّ السيّد زمنتوتشيا يحتفل دائماً هو وأصدقاؤُهُ بعيد 15 من مارس عام 1944. وهذه العادة هي بالفعل التي كنتُ أُريد التشهير بها في مَقالي. للسيّد زمنتوتشيا دون شكّ دوافع شخصيّة للاحتفال والإفراط في الشُّرب في ذلك التاريخ، ولكن ليعترفْ أنّها مُصادفة غريبة. وهو يتذكّر دون شكّ أنّه في الحوار الهاتفي المُطوّل والدَّسم الذي تفضّل به، نَطَق بهذه الجُملة: «إنّي أرى أنّه يجب إعطاء قيصر ما لقيصر»؛ ومصدر قريب جدّاً من السيّد زمنتوتشيا - لا أشكّ في صدقه - أكّد لي أنّ ما أُعطِيَهُ قيصرُ هو ثلاث وعشرون طعنة خنجر.

ألفتُ الانتباه إلى أنّ السيّد زمنتوتشيا في كامل رسالته تجنّب ذكر هويّة الذي سدّد في نهاية الأمر طعنات الخنجر تلك. أمّا التصويب المُخجل بشأن فيليبّي، فإنّ كُرّاسي تحت نظريّ، وهو مكتوب فيه دون أدنى شكّ أنّ السيّد زمنتوتشيا لم يقل: «سنلتقي عند فيليبّي» بل «سنلتقي في فيليبّي».

وأُوكّد الشيء نفسه بشأن العبارات التهديديّة الموجَّهة إلى يوليوس قيصر. الملحوظات في كُرّاسي، التي هي الآن تحت نظري، تقول بصفة واضحة : «إنّي بصدد حثّ المكلّف... للقضاء على... يوليوس قيصر». ولا يُمكن بالجِدال العقيم والتلاعب بالألفاظ التهرّب من مسؤوليات ثقيلة، ولا وضع كمّامة للصحافة.

«يتبع ذلك إمضاء بحرفَيْن لأليتيو فيريتا. إذن، ما المُجدي في هذا التكذيب للتكذيب؟ أوّلاً، التركيز على أنّ ما كتبته الجريدة مُتأتٍّ من مصادر قريبة من السيّد زمنتوتشيا. وهذا ينفع دائماً، لا نذكر المصادر، ولكننا نُوحي أنّ الجريدة لها مصادرها الخاصّة، التي قد تكون أكثر صدقاً من زمنتوتشيا. ثم الالتجاء إلى كُرّاس الصحفي. لن يرى أحد ذلك الكُرّاس، ولكن فكرة التسجيل الفوري على الكُرّاس تخلق الثقة في الجريدة، ويذهب الظنّ إلى أنّه تُوجد وثائق. وأخيراً، نكرِّرُ مرّة أخرى من التلميحات التي هي في حدّ ذاتها عديمة الأهميّة ولكنها تُلقي ظلّاً من الشُّبهة على زمنتوتشيا. ولا أقول إنّ التكذيب يجب أن يكون على هذه الشاكلة، هذه مُجرّد مُحاكاة، ولكن تذكّروا جيّداً العناصر الثلاثة الأساسيّة لتكذيب التكذيب: التصريحات التي وقع التقاطها، والملحوظات على الكُرّاس، والشكّ في مِصداقيّة المُكذّب. مفهوم؟»

«رائع»، قالوا كُلّهم بصوت واحد. وفي اليوم التالي جاء كلّ منهم بأمثلة تكذيب أكثر مصداقية، وبأمثلة تكذيب للتكذيب أقلّ غَرَابة ولكنها في مثل فاعليّة الأُولى. لقد فَهِم تلاميذي جيّداً درس يوم أمس.

اقترحتْ مايا فريزيا الآتي بقولها : «**عَلِمْنا بتكذيبكم مع تأكيد أنّ ما نشرناه مُطابق للوثائق العدليّة أي للإذن بالإيقاف.** وكون السيّد زمنتوتشيا ثَبَتت من بعدُ براءَتُه في أثناء التحقيق، فهذا لا يعرفه القارئ. ولا يعرف أيضاً أنّ تلك الوثائق سريّة ولا نعرف كيف وصلت إلينا، ولا مدى أصالتها. لقد قمتُ بالفرض، يا سيّد سيماي، ولكن، إن سَمَحْتم لي، فهذا يبدُو لي، كيف يُمكن القول، دناءة».

«يا جميلتي،» علّق سيماي، «سيكون أكثر شَيْناً لو اعترفنا أنّ الجريدة لم تتثبَّت من المصادر. ولكنّني أُوافق على أنّ الأفضل، بدلاً من الحديث عن مصادر يُمكن التثبّت منها، الاقتصار على التلميح. التلميح لا يعني شيئاً محدّداً، فهو لا

يصلح إلّا لإلقاء الشُّبهة على المُكذِّب. على سبيل المثال: **سجّلنا بطيب خاطر هذا التدقيق، ولكن الحاصل لدينا هو أنّ السيّد زمنتوتشيا** (استعملوا دائماً كلمة «سيّد»، لا «دكتور» أو «حضرة»، عبارة «سيّد» أشنع سبّة في بلادنا)، **الحاصل لدينا هو أنّ السيّد زمنتوتشيا أرسل عشرات التكذيبات إلى جرائد مُختلفة. يظهر أنّ هذا نشاطه الأساسي الذي يُمارسه طَوال الوقت.** وعند هذا الحدّ لو أرسل زمنتوتشيا تكذيباً آخر، لَكانَ من حقّنا عدم نَشْره، أو إبلاغه قولنا إنّ السيّد زمنتوتشيا يُواصل تكرار الأشياء أنفسها. وهكذا يقتنع القارئ بأنّه مُوَسْوِس. هل رأيتم فائدة التلميح: بقولنا إنّ السيّد زمنتوتشا كاتَبَ صُحفاً أُخرى فإنّنا لا نقول غير الحقيقة، التي لا يُمكن تكذيبها. التلميح الناجع هو ذلك الذي يذكر أشياء في حدّ ذاتها عديمة القيمة، ومع ذلك هي غير قابلة للتكذيب لأنها حقيقية».

بعد كلّ هذه النصائح المُفيدة، انطلقنا - كما يقول سيماي - في «*brainstorming*» أو تبادل للآراء. تذكّر بَلاتينو أنّه عُمِل حتى الآن في مجلات ألغاز واقترح أن يكون للجريدة، إلى جانب البرامج التلفزيونيّة، والتنبّؤات الجويّة والأبراج، نصف صفحة أيضاً للألعاب.

فقاطعه سيماي هاتفاً: «الأبراج، يا إلٰهي، لقد ذكّرتنا بذلك، إنّها أوّل شيء سيبحث عنه قُرّاؤنا! ها هو ذا يا آنسة فريزيا، هذه هي مُهمّتك الأُولى، اقرئي بعض الصُّحف والمجلّات التي تنشر التنبّؤات الفلكيّة، واستخرجي منها بعض النّماذج المتكرّرة. واقتصري على التنبّؤات التفاؤليّة، فالناس لا يُحبّون أن تقولي لهم إنّهم في الشهر التالي سيُصابون بمرض السرطان. واصنعي تنبّؤات تُماشي جيّداً أحوال الناس جميعاً، أعني أنّ قارئة في سنّ الستّين لن تتفاعل مع نبأ مستقبلي مفاده أنّها ستعثر على حبيب عُمر في مُقتبل الشباب، بل مع تنبّؤ، لست أدري، بأنّ مواليد برج الجدي سيشهدون في الأشهر الآتية حدثاً سعيداً، يُماشي الجميع، المُراهق، إن خَطَر له أن يقرأ جريدتنا، أو المُتخلّفة عقليّاً أو حتى المُحاسب الذي ينتظر زيادة في راتبه. ولكن لنأتِ الآن إلى الألعاب، يا عزيزي بلاتينو. ماذا ترى؟ كلمات مُتقاطعة، مثلاً؟

«كلمات مُتقاطعة»، أجاب بلاتينو، «ولكن للأسف يجب أن نصنع كلمات

مُتقاطعة من النوع الذي يسألك: مَن نزل في مَرسالا»، وسنحمد الربّ كثيراً إن أجاب أحدهم غاريبالدي، قال سيماي بضحكة استهزاء. «أمّا في الكلمات المُتقاطعة الأجنبيّة فيستعملون تعريفات تُصبح هي أنفسها لُغزاً. في صحيفة فرنسيّة قرأتُ مرّة «*l'amico dei semplici*» [صديق البُسطاء] وكان الحلّ هو عشّاب، لأنّ *semplici* في الفرنسيّة لا يعني السُّذّج البُسطاء فحسبُ، بل يعني أيضاً الأعشاب الطبيّة».

«لا يصلح لنا،» قال سيماي، «قارئنا ليس جاهلاً بالأعشاب الطبيّة فقط بل ربّما لا يعرف من العشّاب أو ماذا يفعل. غاريبالدي، أو زوج حواء، أو أمّ العجل، أشياء من هذا القَبيل».

عند ذلك الحدّ تكلّمت مايا، وقد أضاءت وجهها ابتسامة تكاد تكون صبيانيّة، كما لو كانت طفلة تستعدّ للقيام بفِعْلة ماكرة. قالت إنّ الكلمات المُتقاطعة شيء طيّب، ولكن على القارئ أن ينتظر العدد اللاحق لمعرفة مدى صحّة إجاباته، في حين بالإمكان التظاهر بإعلان مُسابقة في الأعداد السابقة وبنشر أكثر الإجابات فِطنة التي اقترحها القرّاء. يُمكن مثلاً، أضافت مايا، أن نطلب أكثر الإجابات غباءً عن أكثر الأسئلة غباءً.

«تسلّينا مرّة في الجامعة بتصوّر أسئلة وإجابات خياليّة. من قَبيل: لماذا ينبت الموز على الشجر؟ لأنّه لو نبت على سطح الأرض لأكلته التماسيح. لماذا تسري لوحات التَّزَحْلُق على الجليد؟ لأنّها لو تَزَحْلقت على الكافيار لأصبحت رياضيات الشتاء باهظة الثمن».

فتحمّس بلاتينو وأضاف: «لماذا قال يوليوس قيصر وهو على حافة الموت *Tu quoque Brute*؟ لأنّ من طعنه بالخنجر لم يكن سيبيون الإفريقي. لماذا تسير كتابتنا من اليسار إلى اليمين؟ لأنها لو سارت من اليمين إلى اليسار لبدأت الجُملة بنُقطة. لماذا لا تتلاقى المُتوازيات أبداً؟ لأنها لو تلاقت لانكسرت عليها عظام المُتمرّنين فوقها».

تحمّس الآخرون أيضاً، ودخل في اللعبة برغّادوتشيو: «لماذا عدد الأصابع عشرة؟ لأنّها لو كانت ستّة لكانت الوصايا ستّاً فحَسْب، وما كان حراماً مثلاً أن

تسرق. لمَ الربّ هو الكمال المطلقَ؟ لأنّه لو لم يكن الكمال المطلَق لكانَ ابن عمّي غوستافو».

عندئذٍ انضممتُ أنا إلى اللعبة: «لماذا ابتدعوا الويسكي في أسكتلندا؟ لأنّه لو نشأ في اليابان لأصبح ساكي وما أمكن شُربه بالصودا. لمَ البحر شاسع ؟ لأنّ السمك كثير ولا يُعقل أن نضعه فوق جبل إفرست. لماذا نقول *centocinquanta la gallina canta* [تُقَوقِئ الدجاجةُ عند مئةٍ وخمسين] ؟ لأنّه لو قوقأت الدجاجة عند ثلاثة وثلاثين لكانت المُعلّم الأكبر للماسونيّة».

«انتظروا»، قال بلاتينو، «لمَ الكؤوس مفتوحة من فوق ومُغلقة من تحت؟ لأنّه لو كانت عكس ذلك لأفلست كُلّ الحانات. لمَ الأُمّ هي دائماً الأُمّ ؟ لأنّها لو كانت أحياناً الأب أيضاً لما عرف أطبّاء النساء ماذا يفعلون. لماذا تنمو الأظافر ولا تنمو الأسنان؟ لأنّه لو كان عكس ذلك لأكل العصبيّون أسنانهم. لماذا يوجد الاست من تحت والرأس من فوق؟ لأنّه في الحال المُعاكس سيكون من الصعب جدّاً رسم مرحاض. لماذا تلتوي الساق إلى الداخل لا إلى الخارج؟ لأنّه سيكون ذلك خَطِراً جدّاً على الطائرات في حالة هُبوط اضطراريّ. لماذا أبحر كريستوفر كولومبوس نحو الغرب؟ لأنّه لو أبحر نحو الشرق لاكتشف روما. لماذا توجد للأصابع أظافير؟ لأنّه لو كانت لها حَدقات لأصبحت عيوناً».

الآن صار السِّباق دون حدود وتدخلت فريزيا من جديد: «لماذا تختلف أقراص الإسبيرين عن الإيغوانا؟ لأنّه إذا كان عكس ذلك فتصوّروا ماذا سيحدث. لماذا يموت الكلب على قبر صاحبه؟ لأنّه لا توجد هُناك أشجار ليبول عليها وبعد ثلاثة أيام تنفلق مَثانتَه. لماذا قياسُ الزاوية القائمة تسعون درجة؟ السؤال غير صائب: هي لا تقيس شيئاً، الآخرون هم الذين يقيسونها».

«كفى، » قال سيماي، الذي لم يتمالك، فابتسم. «إنّها أشياء تليق بالمُعربدين. لقد نسيتم أنّ قارئنا ليس مُثقّفاً قرأ السُّرياليّين الذين يصنعون، كما يقولون، الجُثث الراقية. سيحملون كُلّ شيء على محمل الجدِّ وسيظنّون أنّنا مجانين. هيّا يا سادة، نحن نمزح، وليس الوقت وقت مزاح. لنعُد إلى المُقترحات الجادّة».

وهكذا حُسم أمر الأسئلة الغبيّة وأكثر الإجابات غباء. خسارة، كانت ستكون مُسليّة. ولكن هذه الحادثة جعلتني أنظر إلى مايا فريزيا باهتمام. إذا كانت مَرِحة إلى هذا الحدّ فلا بُدّ أنّها جميلة أيضاً. وكانت بطريقتها الخاصّة كذلك. لماذا بطريقتها الخاصّة؟ لم أفهمْ بعدُ الطريقة، ولكنّها أثارت فُضولي.

إلّا أنّ فريزيا كانت بكلّ وضوح تُحسّ بالكَبْت وحاولت اقتراح شيء يكون في مستوى قُدراتها وسألَتْ: «إنّنا نقترب من التصفية الأُولى لجائزة «ستريغا»*. أليس علينا أن نتحدّث عن تلك الكُتُب؟».

«دائماً مع الثقافة، أنتم الشباب، لحُسن الحظ أنّكِ لم تحصلي على إجازتكِ، وإلّا لاقترحتِ عليّ دراسة نقديّة بخمسين صفحة..».

«لم أُتمّ الإجازة بعد ولكنّني أقرأ الكُتُب».

«لا يُمكننا أن نُعْنى كثيراً بالثقافة، قُرّاؤنا لا يقرؤون الكُتُب ولكن في الأكثر الصحيفة الرياضيّة *La Gazzetta dello Sport*. ولكنّني مُوافق، ينبغي أن تكون لجريدتنا صفحة، لا أقول ثقافيّة، بل لنقُلْ خاصّة بالعُروض والأحداث الثقافية. ولكن الأحداث الثقافية البارزة يجب أن تكون في شكل حوار. مُحاورة الكاتب شيء مُسالم، لأنّه لا يوجد كاتب يَعيب شيئاً على كتابه، لذا فإنّ قارئنا لن يشعر بأنه وسط تصفية حسابات. ثمّ إنّ كُلّ شيء على الأسئلة، لا ينبغي الحديث كثيراً عن الكتاب بل ينبغي إبراز شخصيّة المُؤلّف أو المُؤلّفة، رُبّما أيضاً بعُيوبه أو بنِقاط ضعفه. يا آنسة فريزيا، اكتسبتِ تجربة طويلة عندما اشتغلتِ في مجلّة «الصداقات الحميمة». فكّري في حوار خيالي بلا شكّ، مع أحد المُؤلّفين المُشاركين في السباق، وإذا كانت القصّة قصّة غرام فانتزعي من الكاتب أو من الكاتبة ذكرى لحُبّه الأوّل، ولمَ لا بعض التلميحات الماكرة بشأن بقيّة المُتسابقين. اجعلي ذلك الكتاب الملعون شيئاً حيّاً، تفهمه ربّة البيت، بحيث لا تُحسّ بالندم لو أنها لم تقرأه. ومن ناحية أُخرى من يقرأ الكُتُب التي تتحدّث

* Premio Strega أهمّ جائزة أدبية في إيطاليا. [م].

عنها الصحف؟ في العادة لا يقرؤها حتى من كتب عنها، اللهمّ إلّا من كتبها، وليس ذلك مُؤكّداً، وعند قراءة بعض الكُتُب يبدُو أحياناً أنّ كاتبها لم يقرأها».

«آه، يا إلٰهي،» قالت مايا وقد شَحَب وجهها، «لن أتحرّر أبداً من لعنة «الصداقات الحميمة»..».

«لا تظنّي أنّني دعوتكِ لكتابة مَقالات في الاقتصاد أو في السياسة الدولية..».

«توقّعتُ ذلك. وكان أملي أن أكون مُخطئة».

«هيّا، لا تغضبي، اكتُبي لنا شيئاً ما، ثقتنا بكِ كاملة».

6
الأربعاء 15 أبريل/ نيسان

أتذكّر المرّة التي قال فيها كامبريا: «سمعتُ في المذياع أنّ بعض الأبحاث قد توصّلت إلى أنّ التلوّث البيئي يُؤثّر في حجم القضيب لدى الأجيال الشابّة، والمسألة حَسَب رأيي لا تُهمّ فقط الأبناء، بل تُهمّ آباءهم كذلك، الذين يتحدّثون دائماً بفخر عن حجم قضيب أبنائهم. أذكر أنّه عندما وُلد ابني وقدّموه لي في قاعة المواليد الجُدد في المصحّة قلتُ في نفسي يا للخِصيتَيْن العظيمتَيْن، وقصصتُ ذلك على كُلّ زُملائي».

«كُلّ الصغّار عند نشأتهم يملكون خِصيتَيْن عظيمتَيْن،» قال سيماي، «وكُلّ الآباء يقولون ما قلته. ثمّ أنتَ تعرف أنّه غالباً ما يُخطئون في المصحّات عند وضع بطاقات التعريف ولعلّ الذي تحدّثتَ عنه ليس ابنك، مع كُلّ احترامي لزوجتك».

«ولكن الخبر يُهمّ الآباء أهمّيّة، إذ ستكون هناك تأثيرات سلبيّة أيضاً في الجهاز التناسلي للكبار،» عارض كامبريا. «لو انتشرت فكرة أن تلويث العالم لا يُؤثّر في الحوت فقط بل يؤثّر أيضاً (وعُذراً لاستعمال المُصطلح التقني) في العصفور*، لشهدنا، على ما أظنّ، تغيّراً مُفاجئاً في البيئة».

«هذا مهمّ»، علّق سيماي، «ولكن من يقول لنا إنّ الكومندتور، أو في الأقلّ من يرجع إليهم في النظر، يُهمّهم تخفيض درجة التلوثّ البيئي؟»

«ولكنّه إنذار، وأيّ إنذار؟» قال كامبريا.

---

* صورة يستعملها الإيطاليون للإشارة إلى القضيب. [م].

«ربّما، ولكنّنا لسنا من المُنْذِرين،» ردّ عليه سيماي، «سيكون هذا إرهاباً. تريد أن تضع محلّ نقاش أنابيب الغاز، والبترول، وصناعاتنا الفولاذيّة؟ نحن لسنا جريدة الخُضْر. يجب أن نطمئنَ قرّاءنا لا أن نُفزعهم». ثمّ، بعد بضع لحظات من التفكير، أضاف: «إلّا إذا كانت تلك الأشياء المُضرّة بالقضيب من إنتاج شركة صيدلةٍ لا يرى الكومندتور ضرراً في إزعاجها. ولكنّ هذه مسائل يُستحسن مُناقشتها حالة حالة. على أيّ حال، إن كانت لديكم فكرة فأخرجوها، وسأُقرّر أنا هل ينبغي الاشتغال عليها أو تركها».

في اليوم التالي دخل لوتشيدي إلى قاعة التحرير بمَقال يكاد يكون مُنتهياً. وهذه هي القصّة. تسلّم أحد معارفه رسالة تحمل ختم Ordre Souverain Militaire de Saint-Jean de Jérusalm - Chevaliers de Malte - Prieuré Œécuménique de la Sainte-Trinité-de-Villedieu - Quartier Général de la Vallette - Prieuré du Québec، إذ يعرضون عليه أن يُصبح من فُرسان مالطة، بعد تسديد مبلغ ليس بالقليل مُقابل دبلوم مُؤطّر، وميدالية، وشارة ولوازم أُخرى مُختلفة. فخطرت ببال لوتشيدي فكرة التثبّت من قصّة الأنظمة الفُرسانيّة، واكتشف أشياء خارقة للعادة.

«اسمعوا هذا. يُوجد في مكان ما تقرير من الشرطة، ولا تسألوني كيف حصلتُ عليه، إذ يُبلّغ عن بعض الأَخَويات المُزيّفة التي تنسب نفسها إلى فُرسان مالطة. يبلغ عددها ستّ عشرة، لا ينبغي خَلْطها بالنظام الأصلي Ordine Sovrano Militare e Ospitaliero di San Giovanni di Gerusalemme, di Rodi e di Malta، الذي مقرّه روما. وتحمل جميعها تقريباً الاسم نفسه مع اختلافات طفيفة، ويعترف بعضها بالبعض الآخر ويُنكر بعضها بعضاً آخر. سنة 1908 أسّس بعض الرّوس أَخَوية في الولايات المتّحدة، وكان يُشرف عليها في السنوات الأخيرة صاحب الجلالة الملكيّة الأمير روبارتو باترنو آيربي أراغونا، دوق باربينيون، رئيس الأُسرة الملكيّة لأراغونا، المُرشّح لعرش أراغونا وباليار، المُعلّم الأكبر لأَخَويات قِلادة القديسة أغاتا دي باترنو والتاج الملكي للباليار. ولكن من هذا الجِذْع انشقّ سنة 1934 دانماركيّ أَسّس أَخَوية أُخرى وضع على رأسها الأمير بيترو لليونان والدانمارك. في الستّينيات أسّس مُنشقّ آخر عن الجِذْع الروسي، بول دي كرانيي دي كسّانياك، أَخَوية في فرنسا واختار للدفاع عنها الملك السابق

ليوغسلافيا بيترو الثاني. في سنة 1965 خاصَمَ الملك السابق ليوغسلافيا بيترو الثاني، كسّانياك، وأسّس في نيويورك أَخَوية أُخرى أصبح رئيسها الأكبر بيترو أمير اليونان والدانمارك. سنة 1966 ظهر شخص بصفة مستشارٍ للنظام يُدعى روبارت بسّارابا فون سرانكوفان كيمكياكفيلي، ولكنّه طُرِد وأسّس أَخَوية الفُرسان المَجْمعيّين لمالطة، الذي أصبح حاميه الإمبراطوري والملكي الأمير هنري الثالث كوستانتين دي فيغو لسكاريس أليراميك باليولوغ مونفيرّاتو. ويقول هذا الأخير إنّه وارث عرش بيزنطة، أمير تيسّالية، وأسّس بعد ذلك أَخَوية أُخرى لمالطة. ووجدتُ بعد ذلك محميّة بيزنطيّة، أسّسها الأمير كارول الروماني، المُنشقّ عن جماعة كسّانياك؛ وهناك مَجْمع كبير آخر رئيسه الأكبر شخص يُدعى تونّا- بارتي والأمير أندريا اليوغسلافي - الذي كان المُعلّم الأكبر للأخوية التي أَسَّسَها بيترو الثاني - هو المُعلّم الأكبر لمَجْمع روسيا (الذي صارَ بعد ذلك المَجْمع الكبير الملكي لمالطة ولأُوروبا). وهناك أيضاً أَخَوية أَسَّسها في السبعينيّات بارون شوابار وفيتّوريو بوزا، بالأحرى فيكتور تيمور الثاني، رئيس الأساقفة الأرثوذكسي المدني لبياليستوك، أبو الشتات الغربي والشرقي، رئيس جمهورية غدانسك والجمهورية الديمقراطيّة لبيلوروسيا، الخان الأكبر لبلاد التَّتَر والمغول. ثمّ لدينا أيضاً المَجْمع الأكبر الدولي الذي أَسَّسه سنة 1971 المذكور آنفاً صاحب الجلالة الملكيّة روبرتو باترنو، مع بارون مركيز آلارو، الذي أصبح حاميه الأكبر سنة 1982 شخص آخر من سلالة باترنو، رئيس الأُسرة الإمبراطوريّة ليوباردي توروناسّيني باترنو من القسطنطينيّة، وارث عرش الإمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة، المثَبَّت خليفة شرعيّاً للكنيسة الكاثوليكيّة الحَوَاريّة الأرثوذكسيّة ذات الطقس البيزنطي، مركيز مونتيابرتو، كونت بلاطيني لعرش بولونيا. في سنة 1971 ظهرت في مالطة الأخوية السياديّة العسكريّة للقديس يوحنّا المقدسي (وهو الذي انطلقتُ منه)، من انشقاق عن نظام بسّارَبا، تحت الحماية الكبرى لألكسندر ليكاسترو غريمالدي لسكاريس كومنينو فانتيميليا، دوق لاشستر، أمير ملكي ومركيز ديول، ومُعلّمه الأكبر هو الآن المركيز كارلو ستيفالا دي فلافيني، الذي عند موت ليكاسترو أشرك بيارّ باسلو، الذي أخذ ألقاب ليكاسترو، زيادةً على ألقاب سموّ رئيس الأساقفة أبي الكنيسة الكاثوليكيّة الأرثوذكسيّة البلجيكيّة، المُعلّم الأكبر

للأَخَويّة السّياديّة العسكريّة لمعبد أُورشليم والمُعلّم الأكبر وحامل شعار الأخوية الماسونية الكونية ذات الطقس الشرقي القديم والبدائي المتَّحِد لِمَمْفيس وميسرايم. آه، نسيت، لكي تكون مُواكباً لعصرك أو *à la page* كما يقولون، بإمكانك أن تُصبح عُضواً في مَجْمع صهيون، بوصفه مُنحدراً من عيسى المسيح، الذي تزوّج مريم المجدليّة وصار مُؤسّس السلالة الميروفنجية».

«حتّى أسماء هؤلاء وحدها تُمثّل في حدّ ذاتها خبراً،» قال سيماي، الذي كان يُسجّل ملاحظات، مُستمتعاً. «فكّروا، يا سادة، بول دي كراني دي كسّانياك، ليكاسترو (كيف قلتَ؟) غريمالدي لاسكريس كومننو فانتيميليا، كارلو ستيفالا دي فلافيني..».

«...روبارت بَسّارابا فون سرانكوفان كيمكياكفيلي،» ذكّر لوتشيدي ظافراً.

فأضفتُ: «أظنّ أنّ الكثيرين من قُرّائنا سبق لهم أن سقطوا ضحيّة عُروض من هذا النوع وسنُساعدهم على حِماية أنفسهم من هذه الاحتيالات».

بقي سيماي بُرهة مُتردّداً ثمّ قال إنّه يُريد أن يُفكّر في الأمر. في اليوم التالي كان بكل وضوح قد استعلم وأبلغنا أنّ ناشرنا سبق أن تلقّى لقب كومندتور من أَخَويّة القديسة مريم في بيت لحم: «اتّضح الآن أنّ أَخوية القدّيسة مريم في بيت لحم هي أيضاً خُرافة. والأَخَويّة الأصلية هي أَخوية القدّيسة مريم في أُورشليم، أي Ordo fratrum domus hospitalis Sanctae Mariae Teutonicorum in Jerusalem، المُعترف به في الحَوْليّات البابويّة. أكيد أنّي صرتُ لا أثق حتّى بهذا، مع كُلّ الدسائس التي تقع في الفاتيكان، ولكن في كُلّ الأحوال من المُؤكّد أنّ من هو كومندتور القدّيسة مريم في بيت لحم كما لو كان عُمدة بنغودي [Bengodi]*. وأنتم تُريدون أن نَنْشر خَبَراً يُلقي ظلّاً من الشُّبهة، أو حتّى من السخافة، على كومندة كومندتورنا؟ لنتركْ لكُلّ امرئ أوهامه. أنا آسف، يا لوتشيدي، ولكنّني مُجبر على إلقاء مَقالك الرائع في سلّة المُهملات».

* مكان خيالي وصفه بوكّاتشيو في «الديكامرون» (القصة 3 من اليوم 8) فيه كل الخيرات في متناول الجميع. [م].

«أنت تقول إنّه ينبغي لنا في كلٍّ مقال أن نتثبَّت من أنّه سيعجب الكومندتور؟» سأله كامبريا، الذي تخصّص كعادته في إلقاء الأسئلة الغبيّة.

«هذا أكيد،» أجاب سيماي، «إنّه شريكنا الأوّل كما يُقال».

عندئذٍ تشجّعت مايا وتحدّثت عن إمكان القيام بتحقيق. وهذه هي الحكاية. في أحواز بورتا تيتشينيزي، في منطقة تُصبح يوماً بعد يوم أكثر سياحيّة، كانت هناك بيتزيريا- مطعم- اسمها «باليا وفيينو». ومايا، التي تسكن على ضفة القناة أو النافيلي، تمرّ أمامها منذ سنين. ومنذ سنين، هذه البيتزيريا، المُتّسعة جدّاً، والتي تتراءى من نوافذها الزُّجاجية مقاعد تتّسع في الأقلّ لمئة شخص، كانت دائماً فارغة فراغاً مُؤسفاً، إلّا من سائح أحياناً يرشُفُ قهوته جالساً إلى طاولة خارجيّة. ولا يعني هذا أنّ المحلّ مُهمل، لأنّ مايا قصدته يوماً، بدافع الفُضول، وكانت وحدها، إلّا أنّ ثمّة أُسرةً صغيرة كانت تجلس على بعد عشرين طاولة. وطلبت بالفعل طبق مَعْكرونة باليا وفيينو [تبن وعشب]*، وربع ليتر من النبيذ وكعكة تفاح، وكان كلّ الأكل جيّداً ومعقول الثمن، والنادل غاية في اللطف. الآن، إذا شغّل أحد محلّاً بذلك الاتّساع، مع عُمّال ومطبخ وما يتبع ذلك، ولا يقصده أحد مُنذ سنين وسنين، إن كان شخصاً عاقلاً فإنّه سيتخلّص من المحلّ. على عكس ذلك، مطعم «باليا وفيينو» مفتوح دائماً، يوماً بعد يوم، ربّما منذ عشر سنوات، أي ثلاثة آلاف وستّمئة وخمسين يوماً أو أكثر.

فلاحَظَ كوستانتسا: «هُنا يوجد دون شكّ سرّ غامض.»

«لا سرّ البتّة،» ردّت مايا على الفَوْر، «التفسير واضح: إنّه محلّ يملكه الثالوث*، أو المافيا، أو الكامورّا، اشتروه بأموال وَسِخة ويُمثّل استثماراً في وضح النهار. ولكن، ستقولون لي إنّ الاستثمار موجود في قيمة الفضاء وبإمكانهم أن يتركوه مُغلقاً، دون تبذير أموال أُخرى. إلّا أنّ الأمر بعكس ذلك. لماذا؟»

---

* معكرونة بلونين: أصفر كالتبن وأخضر كالعشب. [م].

* إشارة إلى القوى الاقتصادية التي تُهيمن على العالم: أُوروبا، أمريكا الشمالية، وآسيا الشرقية. [م].

«لماذا؟» سألها كعادته دائماً كامبريا. والجواب الذي أجابت به مايا أظهر أنّ دِماغها الصغير يعمل بصفة جيّدة. «المحلّ يَصْلح لغسل المال الذي يصل باستمرار يوماً بيوم. أنتَ تُقدّم الأكلات إلى الزبائن القليلين الذين يأتون كلّ مساء، ولكنك تُصْدر كلّ ليلة وصولات دَفْع كما لو كان الزبائن مئة. بعد التصريح بما حصل في الخزينة، تُودعه البنك - ولعلّك لتجنّب أن يُلاحظوا أنّ الدفع يكون على الدوام نقداً، فما مِن أحد دفع ببطاقة مصرفيّة، ها أنت ذا تفتح حسابات في عشرين مصرفاً مُختلفاً. ومن هذا الرأسمال، الذي صار الآن مشروعاً، تدفع الضرائب المفروضة عليك، بعد أن تكون قد حسمت بسخاء كلّ مصاريف الإدارة والتموين (وليس من الصَّعب الحصول على فواتير مُزيّفة). من المعروف جيّداً أنّ غسل الأموال يوجِب أن تَقْبل خسارة خمسين من مئة منه. وبهذه الطريقة تَخْسر أقلّ بكثير من ذلك».

فسألها بلاتينو: «ولكن كيف ستفعلين لكشف كلّ ذلك؟»

«أمرٌ يسيرٌ،» أجابت مايا، «يذهب هُناك لتناول العشاء عميلان من مصلحة المالية، يفضّل أن يذهب هو وهي، كأنهما عَرُوسان جديدان، فيتعشّيان وينظران من حولهما، لمُلاحظة أنّه لا يُوجد هناك، فرضاً، غير زبونين. في اليوم التالي تذهب مصالح المالية للتثبّت وتكتشف أنّهم طبعوا مئة وصل بالدفع، وآنذاك أريد أن أرى ماذا سيكون جوابهم».

«ليس الأمر بهذه السهولة،» لاحظتُ من جِهتي، «لنفترضْ أنّ العميلين ذهبا إلى المطعم مثلاً في الساعة الثامنة، ومهما أطالا زمن العشاء، فبعد التاسعة يجب أن يتركا المكان، وإلّا أثاروا الرِّيبة. من يُثبتُ أنّ الزبائن لم يأتوا بين التاسعة والنصف ومُنتصف الليل؟ وإلّا وجب إرسال ثلاثة أزواج من عملاء المالية أو أربعة لتغطية المساء كلّه. الآن، إذا تمّ تحقيق في الصباح التالي، فماذا سيحدثُ؟ أعوان المالية يفرحون عندما يكتشفون أنّ أحدهم لا يُصرّح بما يدخل إلى خزينته، ولكن ماذا بإمكانهم أن يفعلوا بمن يُصرّح بالكثير من المداخيل؟ بإمكان هؤلاء أن يقولوا إنّ آلة الحساب تعطّلت، وإنّ كُلّ شيء حدثَ خطأً. وعندئذٍ ماذا سنفعل، تحقيقاً ثانياً؟ ولكن هؤلاء ليسوا أغبياء، فقد عرفوا

العُملاء، وعند عودتهم من جديد، لن يَطبعوا وُصولات زائفة. أو ينبغي لمصالح المالية أن تُواصل مُراقبتهم على امتداد عدّة أمسيات، مُوظّفة في العمليّة جيشاً كاملاً من العُملاء يأكلون بيتزا، وقد يجرُّونهم في غضون سنة إلى الإفلاس، ولكن من المظنون أنّهم سيَضْجرون قبل ذلك لأنّ لديهم أعمالاً أُخرى».

فردّت مايا وقد حزّ ذلك في نفسها: «ولكن، على مصالح المالية أن تجد الحيلة، ليس علينا نحن سوى أن نلفت الانتباه إلى وجود المُشكلة».

«يا جميلتي،» قال لها سيماي بلطفٍ، «سأقول أنا لكِ ماذا سيحدثُ إذا نَشَرنا هذا التحقيق. قبل كلّ شيء سنُثير غضب عُملاء المالية ضدّنا لأنّكِ عبتِ عليهم أنّهم لم يفطنوا إلى هذا التحايل - وهؤلاء يَعْرفون كيف يثأرون لأنفسهم، إن لم نَقُلْ منّا فبلا شكّ من الكومندتور. ومن ناحية أُخرى، قد قلتِ ذلك، لدينا الثالوث، والكاموّرا والأندرانغيتا ولستُ أدري ماذا أيضاً، وأنتِ تريدينهم أن يبقوا هادئين؟ وسنبقى نحن هنا مُطمئنّين سعداء ربّما ننتظر أن يفجّروا قنبلة في مكتب التحرير؟ وأخيراً تعرفين ماذا أقول لكِ؟ إنّ قُرّاءَنا سيهيجون لفكرة الذهاب لأكل بيتزا بثمن بخس في مكان جدير برواية بوليسيّة، وسيمتلئ مطعم «باليا وفيينو» بالأغبياء، في حين أنّ النتيجة تعني لنا أنّنا أسهمنا في إثرائهم. لذا إلى سلّة المهملات. لا عليكِ وعُودي إلى الأبراج».

7
الأربعاء 15 أبريل/ نيسان، مساء

عندما رأيتُ مايا مُغتاظة إلى هذا الحد لحقتُ بها عند الخُروج. وحتّى من غير أن أفطن أمسكتها من ذراعها.

«لا تهتمّي. هيّا، سأصحبكِ إلى بيتك وفي أثناء الطريق نشرب شيئاً معاً».

«إنّي أقطن في قناة «نافيلي»، وهناك حانات صغيرة كثيرة، أعرف إحداها يُقدّمون فيها شراب بلّيني جيّداً، وأنا مُغرمة به. شكراً».

كنا قد دخلنا في «ريبا تيتشينيزي»، ورأيت أوّل مرّة قناة «نافيلي». كنتُ بلا شكّ قد سمعتُ عن هذه القنوات، وكنتُ أظنّ أنها قد رُدمت كلّها، ولكن على عكس ذلك بدا لي كأنّي أجد نفسي في أمستردام. وقالت لي مايا بشيء من الاعتزاز إنّ ميلانو كانت بحقّ مثل أمستردام، تخترقها شبكات من القنوات تصل إلى وسط المدينة. كانت دون شكّ جميلة جدّاً، لذا أَعْجبت ستاندال كثيراً. ولكنهم شرعوا فيما بعد يردمون القنوات، لأسباب صحيّة، ولم تَبْقَ إلّا في هذه الأنحاء، وهي مملوءةٌ بمياه مُتعفّنة، في حين أنّ الغسّالات كُنَّ في الماضي يَفْرِكْنَ الغسيل على ضِفافها. ولكن لو توغّل المرء في الداخل لوجد في بعض الأحياء بيوتاً قديمة.

وحتّى البيوت ذات الشُّرفات القديمة لم تكُن تعني لي سوى حكايات أو *flatus vocis*، أو صُوَرٍ من الخمسينيات عثرتُ عليها عندما كنتُ أعمل في

الموسوعات، وكان عليّ أن أذكر مشهد *El nost Milan* الذي أخرجه بارتولاتسي على خشبة «المسرح الصغير» [Piccolo Teatro]. وحتّى آنذاك كُنتُ أظنّها أشياء تعود إلى القرن التاسع عشر.

فضَحِكتْ مايا قائلة: «ميلانو لا تزال مملوءة بالبيوت ذات الشُّرفات الحديديّة، إلّا أنّها لم تَعُدْ بُيوت الفُقراء. هيّا معي، سأُريك إيّاها». أدخلتني إلى ساحتَيْن مُزدوجتَيْن: «هنا في الطابق الأرضي أعادوا تهيئة المحالّ، وهي دكاكين لصغار بائعي الأشياء العتيقة - الواقع أنَّهم مُجمِّعو أشياء بالية يتظاهرون ببَيْع العتيق ليُفرغوا جيبك - وورش لرسّامين يبحثون عن الشهرة. وجميعها أشياء صارت جديرة بالسيّاح. ولكنّ الطابقَيْن الفَوْقيَّيْن هما بالفعل كما كانا في الزمن الماضي».

ورأيتُ أنّ الطابقَيْن العُلويَّيْن يُحيط بهما درابزين من الحديد، مع الأبواب التي تفتح على الشُّرفات، وسألتُ أما زالَ يُنشر فوقها الغسيل.

فضحكت مايا مجيبة: «لسنا في نابولي. الحال هو أنّ كلّ شيء تقريباً قد جُدّد، في السابق كانت السلالم تصعد مباشرة إلى الشُّرفات، ومن هناك تدخل إلى البيت، وفي قاع الشرفة يوجد مِرْحاض واحد لأُسَرٍ عدّة، أعني المراحيض التي على الطريقة التركيّة، أمّا الدشّ أو حوض الاستحمام فقد كان شيئاً من قبيل الخيال. الآن أُعيدت تهيئة كُلّ شيء للأثرياء، وفي بعض الشقق تجد حتّى «الجاكوزي» وثمنه باهظ جدّاً. الثمن أَبْخس حيث أسكن أنا. أَقْطن في شقة ذات حُجرتَيْن بجدران تَنْضح بالماء، ولحُسن الحظ أنّهم خصّصوا فيها فضاء صغيراً للمِرْحاض والدشّ، ولكني أعشق الحيّ. وهنا أيضاً سيُعيدون دون شكّ تصميم كُلّ شيء، وعليّ آنذاك أن أترك المكان لأنّني لن أقدر على دفع الأُجرة. إلّا إذا انطلقت في أقرب وقت مسيرة جريدة **الغد** وانتدبوني بصفة دائمة. لذا أتحمّل كلّ تلك المُعاملات المُذِلّة».

«لا عليكِ يا مايا، من الطبيعي في مرحلة التدريب أن يعرف المرء ما ينبغي قوله وما لا ينبغي قوله. ومن جِهة أُخرى فإنّ لسيماي مسؤوليّاته، نحو الجريدة

ونحو الناشر. لعلّ الأمور كانت مُختلفة حين كنتِ تشتغلين في مجلّة «الصداقات الحميمة»، حيث كُلّ شيء صالح، ولكنّنا نعمل في جريدة يوميّة».

«لهذا كنتُ آمل الخروج من قُمامة الغراميّات، كنتُ أريد أن أُصبح صُحفيّة جادّة. ولكنّني قد أكون فاشلة. لم أحصل على الإجازة، لمساعدة أبويّ إلى أن تُوفّيا، وبعد ذلك فات وقت العودة إلى الدراسة، أعيش في حُفْرة، ولن أُصبح أبداً مُراسلة خاصّة، لستُ أدري، في حرب الخليج مثلاً... ماذا أفعل؟ الأبراج، أستغلّ غَباء السُّذّج. أليس هذا فشلاً؟»

«لقد بدأنا لتوّنا، وعندما تسير الأشياء كما ينبغي فإنّ التي مثلكِ ستكون لها مجالات أُخرى. لقد قدَّمتِ حتّى الآن مُقترحات ذكيّة، أعجبتني، وأظنّ أنّكِ أعجبتِ سيماي أيضاً».

كنتُ أشعر أنّني أكذبُ عليها، كان عليّ أن أقول لها إنّها دخلت في طريق مسدود، ولن يُرسلوها أبداً إلى الخليج، وأنّه قد يكون خيراً لها أن تفرّ قبل أن يفوت الأوان، ولكن لم يكن بوُسعي أن أُحبط عزيمتها أكثر ممّا هي عليه. وعفويّاً أخذتُ أقول لها الحقيقة، لا بشأنها، بل بشأني أنا.

ولمّا كنتُ سأكشف رُوحي عارية، مثل الشاعر، ومن غير حتّى أن أفطن لذلك مررتُ غريزيّاً إلى مُخاطبتها بضمير الحميمية.

«انظري إليّ، أنت ترين الآن أنّي أنا أيضاً لم أحصل على الإجازة، وقمتُ دائما بأعمال حقيرة ووجدتُ نفسي أعمل في جريدة يوميّة وقد ناهزتُ الخمسين. ولكن هل تعرفين متى صِرتُ فاشلاً؟ منذ أن صِرتُ أفكّر أنّي فاشل. ولو أنّني تحرّرتُ من وَسْواس الفشل، لربحتُ في الأقلّ جولة».

«خمسون سنة؟ لا يبدُو أنّك ابن خمسين. أي لا يبدو عليك ذلك».

«أي أنّكِ تعطينني تسعاً وأربعين سنة؟»

«كلّا، اعذرْ صراحتي، إنّك رجل جميل الهيئة وعندما تُلقي علينا الدروس نُدرك أنّك تملك حسّ المُزاح. وهو علامة على الرَّيعَان، أي على الشباب..».

«بل الأَحْرى أنّه علامة على الحِكمة، وإذن على الشيخوخة».

«لا، نحن نفهم أنّك لا تُصدّق ما تقول، ولكن من الوِاضح أنّك قَبلت الخوض في هذه المُغامرة وفعلت ذلك بشيء من القسوة... كيف يُمكن القول... المُفعمة بالبهجة».

المُفعمة بالبَهْجة؟ كانت هي خليطاً من بهجة وسوداويّة وكانت تنظر إليّ (كيف يُمكن أن يقول كاتب رديء؟) بعينَيْ ظَبْية.

بعينَيْ ظبية ؟ لا والله، الحال أنّها كانت وهي تسير إلى جانبي تنظر إليّ من أسفل إلى أعلى، لأنّني كنتُ أَطْول قامة منها. هذا كُلّ ما في الأمر. وكُلّ امرأة تنظر إليك من أسفل إلى أعلى تبدو كأنّها «بامبي»*.

في أثناء ذلك كنّا قد وصلنا إلى حانتها الصغيرة، وكانت هي ترشف كأس «بلّيني» أمّا أنا فكنت أُحسّ بأنّي في سلام مع الدنيا أمام كأسي من الويسكي. كنتُ أنظر من جديد إلى امرأة ليست بعاهرة وكان يبدُو لي أنّي أعود إلى شبابي.

ربّما كان ذلك من تأثير الكحول، ولكنّني أطلقتُ العنان للذكريات. منذ متى لم أَبُحْ لأحد بما يختلج في صدري؟ حكيتُ لها أنّه كانت لي في ما مضى من الزمن زوجة ولكنها تركتني. رويتُ لها أنّها سحرتني لأنّني طلبتُ منها مرّة، مُعتذراً عن هَفْوة ارتكبتها، أن تُسامحني لأنّني غبيّ، فقالت لي إنّي أحبّك وإن كنتَ غبيّاً. وهي أشياء تجعلك تُجَنّ من الغرام، ولكن لعلّها أدركت بعد ذلك أنّني أكثر غباء ممّا كانت تحتمل، وانتهى كلّ شيء.

كانت مايا تضحك («يا له من اعتراف جميل بالحبّ: أُحبّك وإن كنتَ غبيّاً!») ثمّ حَكَتْ لي أنّها، حتّى وإن كانت أصغر سنّاً منّي، ولم تظنّ البتّة أنّها غبيّة، عاشت هي أيضاً حكايات غرام غير سعيدة، ربّما لأنّها لم تكن تحتمل غباء الآخر، أو رُبّما لأنّ جميع من كانوا في سنّها أو أكبر قليلاً كانوا يبدون لها

* إشارة إلى الغزال الصغير «بامبي» في فيلم الصور المُتحرّكة لوالت ديزني. [م].

قليلي النُّضج. «كما لو كنتُ أنا ناضجة. وهكذا كما تراني، بلغتُ الثلاثين وما زِلْت عزباء. الحال هو أنّنا لا نَقْنع أبداً بما لدينا».

ثلاثون سنة؟ في زمن بَلزاك* امرأة في الثلاثين تكون قد ذَبُلت، أمّا مايا فكانت تبدو في العشرين، لولا بعض التجاعيد الخفيفة حول العينَيْن، كما لو أنّها بَكَتْ كثيراً، أو كما لو كانت لا تحتمل النور وتُغمض دائماً عينيْها قليلاً في الأيام المُشمسة.

«لا شيء أَرْوع من الالتقاء الجميل لفاشلَيْن» وما إنْ نطقتُ بذلك حتّى اعتراني نوع من الفَزَع.

«يا لك من غبيّ،» قالت لي بغنج. ثمّ اعتذرت خشية أن تكون أفرطت في الحميميّة. «كلّا، بالعَكْس، إنّي أشكركِ،» قلتُ لها، «لم يَقُلْ لي أحد البتّة إنّي غبيّ بمثل هذه الجاذبيّة».

تجاوزتُ الحدود. لحسن الحظ أنّها سارعت إلى تغيير الموضوع. «يُريدون التظاهر بأنّهم Harry's Bar،» قالت لي، «ولا يعرفون حتّى كيف يَصفُّون زجاجات الكحول. انظر، بين مُختلف أنواع الويسكي تُوجد زجاجة جين «غوردن»، في حين أنّ «السفاير» و «التانكويري» في الناحية الأُخرى».

«ماذا، أين؟» سألتها وأنا أنظر أمامي، حيث لم يكن إلّا طاولات أُخرى. «لا،» أجابتني، «على المَشْرب، أرأيت؟» التفت ورائي، صحيح، ولكن كيف أمكنها أن تظنّ أنّني أرى ما تراه هي؟ لم تكن هذه سوى لمحة ممّا اكتشفته من بَعد بمعونة ذلك اللسان الجارح، برغّادوتشيو. ولكنّني آنذاك لم أكن قد أوليتُ ذلك اهتماماً كبيراً، وانتهزتُ الفُرصة لطلب الحساب. قلتُ لها بعد ذلك بعض الأشياء المُواسية ورافقتُها إلى باب كبير يتراءى من ورائه رُواق طويل فيه ورشة صانع حشوات. يبدُو أنّه لا يزال يوجد صانعو الحشوات، على الرغم من

* أونوريه دي بلزاك [Honoré de Balzac] (1799–1850) : أحد كبار الروائيّين الفرنسيّين في القرن التاسع عشر. من مُؤلّفاته **الملهاة الإنسانية**، و **الأب غوريو**، و **أوجيني غراندي**. [م].

الإعلان التلفزي للحشوات اللولبيّة. شكرتني قائلة: «الآن أشعر بأنني مُطمئنة،» وابتسمت مادّة إليّ يدها. كانت دافئة وفيها اعتراف بالجميل.

عُدتُ إلى بيتي مُحاذياً تلك القنوات لميلانو القديمة التي كانت أكثر طيبة من ميلانو التي حكى عنها برغّادوتشيو. كان عليّ أن أعرف المزيد عن هذه المدينة التي كانت تُخفي الكثير من العَجَائب.

8
الجمعة 17 أبريل/ نيسان

في الأيام اللاحقة، بينما كان كلّ واحد منّا يُعدّ فُروضه في البيت (هكذا صِرْنا نُسمّيها)، كان سيماي يُحدّثنا عن مشاريع قد تكون غير فَوْريّة، ولكن ينبغي أن نشرع في التفكير فيها.

«لستُ أدري ألِلعددِ 0/ 1 أم للعدد 0/ 2، مع أنّه حتّى لِلعدد 0/ 1 لا يزال لدينا عدة صفحات بيض، ولا أقول إنّ علينا أن نبدأ بستّين صفحة مثل جريدة *Corriere*، ولكن يجب في الأقلّ أن نُعدّ عشرين صفحة. بعضها سنملؤُهُ بالإعلانات الإشهاريّة، ولا أحد سيسلّمنا إيّاها فلذلك لا يهُمّ، سنأخذها من صُحف أُخرى وسنفعل كما لو كانت حقيقيّة - وهي من جِهة أُخرى ستُعطي صاحب الجريدة ثقةً أكبر، إذ سيرى فيها مصدرَ ربح مُستقبلي لا بأس به».

«وفضاءً مُخصّصاً للإعلانات الجنائزيّة،» أَوْحت مايا، «حتى هذه ربح صافٍ. اترك لي مُهّمة ابتداعها. أَعْشق أن أُميت شخصيّات ذات أسماء غريبة وأُسَرٍ مُستسلمة لليأس، ولكن يُعجبني خاصّةً في الوفيات المُهمّة الباكون بالقلم، أولئك الذين لا علاقة لهم لا بالميّت ولا بأُسرة الميّت، ولكنهم يستعملون الإعلان بوصفه «*name dropping*»، ليقولوا للآخرين: أرأيتم، أنا أيضاً كنتُ أعرفه».

كانت كعادتها فَطِنة. ولكن بعد نُزهة ذلك المساء حافظتُ على بعض المسافة منها، وهي أيضاً كانت مُتّخذة حذرها، كنّا نُحسّ بأنّنا بلا دفاع.

«حسناً، أُوافق على الإعلانات الجنائزية،» قال سيماي، «ولكن قبل ذلك

يجب أن تُنهي الأبراج. ولكنّني أُفكّر في أمر آخر. أعني المَوَاخير أو دُور البغاء القديمة، ولكن الجميع يقولون اليوم الماخور ولا يعني ذلك شيئاً. أنا أتذكّرها جيّداً، كنتُ في سنّ النُّضج عندما أُغْلِقَت سنة 1958».

«وكنتُ أنا قد بلغتُ سنّ الرشد،» قال برغّادوتشيو، «واكتشفتُ بعض تلك المَوَاخير».

«لا أتحدّث عن ماخور شارع كيارَفالّي، كان ماخوراً كامل الشروط، بالمباوِل في المدخل حتّى يتسنّى للزائرين أن يتخفّفوا قبل الدخول..».

«... والعاهرات المُترهّلات اللاتي كنّ يمشينَ بخُطى واسعة ويُخرجن ألسنتهنَّ أمام الجنود والقادمين من الأرياف الفَزِعين، والمُعلّمة وهي تصيح هيّا يا أولاد، لسنا هنا لتطريز المناديل..».

«أرجوك يا برغّادوتشيو، بيننا سيّدة».

فتدخّلت مايا دون أدنى حَرَج: «لعلّ الأَولى، إن كنتَ تُريد أن تكتب مقالاً في هذا، أن تقول إنّ حِساناً في سنّ مُتأخّرة يمشينَ مُتراخيات، ويقمن بحركات شبقيّة أمام زبائن أَلْهبتهم نيران الشوق..».

«هذا جيد يا فريزيا، ليس هذا بالضَّبط، ولكن يجب استعمال لغة أكثر لياقة. وذلك لأنّني أنا أيضاً كانت تَسْحرني الدُّور المُحترَمة أكثر، مثل التي كانت في سان جيوفاني سول المُورو، كلّها في أُسلوب ليبارتي Liberty، مكتظّة بالمثقفين الذين لم يكونوا يرتادُونها من أجل مُمارسة الجنس (يقولون) بل لتاريخ الفنّ..».

«أو التي في شارع فيوري كياري، كلّها آر ديكو Art Deco بالآجُرّ المُختلف الألوان،» قال برغّادوتشيو بصوت اخْتَلج فيه الحنين. «ترى كم من قُرّائنا يتذكّرونها».

«وأولئك الذين كانوا في ذلك الوقت دون سنّ الرشد شاهدُوها في أفلام فيلّيني،» أضفتُ أنا، لأنّه عندما تُعوزك الذِّكريات تأخذها من الفنّ.

«فكّرْ أنتَ في هذا، يا برغّادوتشيو،» ختم سيماي، «واكتبْ لنا مقالاً جميلاً، على نمط أنّ الزمن القديم لم يكن كلّه سيّئاً».

«ولكن لـمَ الاهتمام الآن بالمواخير؟» سألتُ أنا ببعض الاحتراز. «قد يُذكي الموضوع رَغْبة بعض المُسنّين، ولكنّه قد يثيرُ اشمئزاز المُسنّات».

فقال سيماي: «كولونّا، سأكشف لك عن أمر. بعد إغلاق دُور البغاء سنة 1958، اشترى أحدهم في الستينيّات المَاخُور القديم في شارع فيوري كياري وجعله مطعماً، فاخراً جدّاً بكل ذلك الخَزَف المُزخرف. ولكنهم حافظوا على مرحاضٍ أو مرحاضَينِ من تلك المراحيض، وذَهَّبوا أحواض الاغتسال. أنتَ لا تعرف عدد السيّدات المُهتاجات اللائي طَلَبْن من أزواجهنّ زيارة تلك الأماكن، لمعرفة ما كان يحدث فيها في الزمن الماضي... لا شكّ في أنّ ذلك لم يَدُمْ سوى مُدّةٍ قصيرة، وبعدها ملّت السيّدات، أو لعلّ الطعام كان دون المستوى، فأغلق المطعم أبوابه وانتهت القصّة. ولكن استمعْ إليّ، إنّي أفكّر في صفحة خاصّة بموضوع معيّن، على اليسار مقال برغّادوتشيو، وعلى اليمين تحقيق بشأن تدهور شوارع الضواحي، مع مشهد تجارة الرذيلة التي تُمارسها هناك البغايا الجوّالات، بحيث لا يُمكنك في المساء المرور فيها مع أطفالك. ودون تعليق يربط بين الظاهرتَيْن، ولنترك القارئ يستخلص العِبرة، في قَرارة أنفسهم كلّهم مُوافقون على عودة دُور البِغاء المُغلقة، النساء لكي لا يقف أزواجهنّ في الطريق لتصعد إحدى تلك البغايا لتملأ السيّارة برائحة العطور البخسة، والرجال الذين يتسلّلون إلى أحد تلك الأروقة، وإذا اعترضهم أحد معارفهم قالوا إنّهم يمرّون من هناك لرؤية تلك الدُّور العتيقة، ولـمَ لا للتمتّع بمنظر الليبارتي (اللون المحلّي). من يقوم بالتحقيق بشأن بغايا الشوارع؟»

قال كوستانتسا إنّه مستعدّ لفعل ذلك وَوَافق الآخرون بالإجماع؛ فقضاء بعض الليالي في تلك الشوارع يُكلّف كثيراً من البنزين زيادةً على المجازفة باعتراض إحدى دوريّات الأخلاق العامّة.

راعتني ذلك المساء نظرة من مايا. كما لو فطنت إلى أنّها سَقَطت في حُفرة الثعابين. لذا، بعد أن تغلَّبتُ على كلّ مقاومة، انتظرتُ خُروجها، بقيتُ بعض الدقائق واقفاً على الرصيف قائلاً للآخرين إنّني سأبقى في وسط المدينة بحثاً عن صيدليّة - كنتُ أعرف من أين ستمرّ - ولحقتُ بها في مُنتصف الطريق.

«إنّي ذاهبة، ذاهبة،» قالت لي وهي توشك أن تبكي، وترتعد كلُّ مفاصلها. «أيّ جريدة هذه التي سقطتُ فيها؟ في الأقلّ مقالاتي في الصداقات الحميمة لم تكن تُؤذي أحداً، وربّما كانت تُغْني بعض حلّاقي النساء، إذ كانت تأتي السيّدات خاصّةً لقراءة مقابلاتي».

«مايا، لا تقفي عند الشكليّات، سيماي يقوم بتجارب ذهنيّة، وليس من المُؤكّد أنّه سينشر كلّ تلك الأشياء. نحن في مرحلة ابتكار، نصنع فرضيّات، سيناريوهات، إنّها تجربة جميلة، ولم يَطْلب منكِ أحد أن تسيري في الشوارع مُتنكّرة في زيّ عاهرة لإنجاز حِوارٍ مع إحداهُنّ. ولكن هذا المساء سار كلّ شيء على غير ما تشتهين، ينبغي أن تكفّي عن التفكير في كلّ هذا. ما قولك في الذهاب إلى السينما؟»

«تلك السينما تَعْرِض فيلماً شاهدته من قبل».

«أيّ سينما ؟»

«تلك السينما التي جاوَزناها الآن، في الناحية المُقابلة من الشارع».

«ولكنّني أُمسك ذراعك وأنظر إليكِ، لا إلى الجهة المُقابلة من الشارع. أنتِ حقيقة غريبة الأطوار!»

«أنت لا ترى أبداً الأشياء التي أراها أنا،» قالت لي. «على أيّ حالٍ، أُوافق على فكرة السينما، لنشترِ جريدة لمعرفة ما يُعرض قريباً من هنا».

ذهبنا لمشاهدة فيلم لا أذكر منه شيئا لأنّني، حين شعرتُ أنّها ما زالت ترتعد، أمسكتُ يدها، التي كانت مرّة أُخرى دافئة ومُعترفة بالجميل، وبقينا هكذا كمخطوبَيْنِ، ولكن كمخطوبَي الطاولة المُستديرة اللذين ينامان والسيف فاصل بينهما.

عندما رافقتها إلى منزلها - وقد اطمأنّ خاطرها - قبّلتُ جبينها، وقرصْتُ من خدّها كما يفعل صديقٌ أكبر سنّاً. في نهاية الأمر (كنتُ أقول في نفسي) بإمكاني أن أكون أباً لها.

أو أكاد.

9
الجمعة 24 أبريل/ نيسان

في ذلك الأسبوع تتابع العمل وتخلّلته استراحات طويلة. لم تكن تبدو على أحد رغبة كبيرة في العمل، وكذلك سيماي. ومن جِهة أُخرى، فإنّ تحرير اثني عشر عدداً في السنة ليس كتحرير عدد كلّ يوم. كنتُ أنا أقرأ المسوّدات الأُولى للمقالات، وأُوحّد الأُسلوب، مُحاولاً كبحَ جِماح العبارات المُنمّقة. وكان سيماي يُؤيّدني في ذلك: «يا سادة، مهنتنا هي الصحافة، لا الأدب».

«الواقع» تدخّل ذات يوم كوستانتسا، «أنّ موضة الهواتف الجوّالة باتت شائعة في كلّ مكان. أمس كان بجانبي في القطار شخص تحدّث طويلاً بالهاتف عن تعاملاته المصرفية، وعرفتُ أنا كلّ شيء عنه. أظنّ أن الناس قد جُنّوا. يجب أن نكتب مقالاً عن هذه التصرّفات».

فردّ سيماي قائلاً: «إنّ الهواتف الجوّالة لا يُمكنها أن تدوم. أوّلاً، لأنّها تُكلّف ثروة ولا يقدر عليها إلا القليلون. وثانياً، سيكتشف الناس بعد قليل أنّه ليس من الضَّروري حقاً الاتّصال بكلّ الناس وفي كلّ وقت، وسيفتقدون الخُصوصية، والتحادث وجهاً لوجه، زيادةً على أنّهم سيَكْتشفون في نهاية الشهر أنّ قائمة الحساب قد بلغت أرقاماً فادحة. إنّها موضة لن يُكتب لها أن تدوم أكثر من سنة أو سنتَيْن في أكثر تقدير. حتى الآن لا تصلح الهواتف الجوّالة إلّا للأزواج الخائنين، الذين يتمنَّوْن تجنّب استخدام هواتف المنزل، وربّما للسمكريّين أيضاً، لأنّها تُتيح الاتّصال بهم في أيّ لحظة في أثناء سيرهم. لذلك،

لن يكون المقالُ ذا أهمِّيَّةٍ لقرّائنا الذين لا يملكونها في الغالب، ولن يُحرّك فيهم شعرة، بل بالعَكْس سيعدّوننا مُتعالين، من الراديكاليين المتأنّقين».

«ليس هذا فحَسْب» تدخّلتُ عندئذٍ، «خذوا مثالاً روكفيلّر أو آنييلّي، أو رئيس الولايات المتّحدة الاميركيّة، إذ لا يحتاجون إلى الهاتف الجوّال لأنّ لديهم فريقاً كاملاً من الكُتّاب رجالاً ونساءً ممّن يُعْنَونَ بشؤونهم. وإذن سيفطن الجميع بعد حين إلى أنّ الهاتف الجوّال لا تستعملهُ إلّا الفئات الدُّنيا وأُولئك المساكين الذين يسهل الاتّصال بهم ليقول لهم المصرف إنّ حسابهم تخطّى الرصيد، أو ليرقب رُؤساؤهم ما يفعلون. وهكذا سيُصبح الهاتف الجوّال رمزاً للدُّونيّة الاجتماعيّة، ولن يُريده أحد».

فقالت مايا: «لستُ على يقينٍ من ذلك. فهو مثل الأثواب الجاهزة *prêt-à-porter*، أو الجَمْع بين القميص وسروال «جينز» ومنديل الرَّقَبة: فقد تلبسها سيّدة من الطبقة الراقية أو من الطبقة العاملة، إلّا أنّ هذه الأخيرة لا تعرف كيف تُوائم بينها، أو قد تُرى وهي تلبس سروالَ «جينز» جديداً لامعاً وتترك الممزّق عند الرُّكبة، وتنتعل معه الحذاء ذا الكعب العالي، وهكذا تظهر على الفَوْر الطبقة التي تنتمي إليها. ولكنّها لا تفطن إلى ذلك، لذلك تُواصل بكامل الرضا ارتداء قِطَع أثواب غير مُتلائمة، دون أن تعرف أنها بذلك حَكَمت على نفسها».

«وما دامَ يُحتَمَل أنّها ستقرأ جريدتنا **الغد**، فنحن نقول لها إنّها ليست سيّدة مُحترمة. أو، لستُ أدري أنا، قد يكون زوجها دُونيّ المُستوى أو يخونها. وبعد هذا، قد يكون في نيّة الكومندتور فيمركاتي الاستثمار في شركات الهواتف الجوّالة ونحن نُقدّم له هذه الخدمة الجميلة. باختصار، إمّا أن يكون الموضوع عديم الأهميّة وإمّا أن يكون مُلهباً. دَعْنا من هذا. هي مثل قصّة الحاسوب. هنا هَيَّأَ الكومندتور حاسوباً لكلّ منّا، وهو صالح للكتابة أو لخَزْن المعلومات، وإن كنتُ أنا من المدرسة القديمة ولا أعرف أين أضع فيه يديّ. ولكن مُعظم قُرّائنا مثلي، وليست بهم حاجة إلى الحاسوب لأنّه ليس لديهم معلومات لتخزينها. لا نُثير في جُمهورنا مُركّبات نقص».

بعد أن تركنا جانباً الوسائل الإلكترونيّة، شَرَعنا ذلك اليوم نقرأ مقالاً بعد تنقيحه، فلاحظ برغّادوتشيو: «غضب موسكو؟ أليس مُبتذلاً أن نستعمل دائماً عبارات تفخيميّة مثل هذه، غضب الرئيس، غضب المُتقاعدين إلى غير ذلك؟»

«لا»، أجبتُه، «القارئ ينتظر بالفعل هذه العبارات، لأنّ كلّ الصُّحف عوّدته إيّاها. القارئ لا يَفْهم ما يحدث إلّا إذا قلتَ له إنّنا لم نَخْرج بعدُ من عُنق الزجاجة، والحكومة تُنذر بالدموع وبالدماء، والطريق في صُعود، والرئاسة مُستعدّة لخوض الحرب، كراكسي يَقْذف القريب والبعيد، الوقت قد حان، لا للشَّيْطنة، لا مكان لأوجاع البَطْن، إنّنا نوشِك أن نغرق، أو بالأحرى نحن في عين الإعصار. والسياسي لا يقول أو يُؤكّد بقوّة، بل يُرغي ويُزبد. وقوّات الأمن تصرّفت بكلّ مِهَنيّة».

«هل ينبغي بحقّ أن نتكلّم دائماً على المِهنيّة؟» قاطعتني مايا، «هنا كلّهم يشتغلون بمِهنيّة. لا شكّ في أنّ مُعلّم بِنَاء يُقيم جداراً لا ينهار يتصرّف بمهنيّة، ولكن المهنيّة آنذاك يجب أن تكون القاعدة، وينبغي ألّا نتحدّث إلّا عن البنّاء اللئيم الذي يبني جداراً سرعان ما ينهار. ولا شكّ أنّه عندما أُنادي السمكري لتسليك أُنبوب حوض الماء، أشكره وأقول له أحسنتَ شكراً، ولكنّي لا أقول له إنّه عَمِل بمهنيّة. لا ينقصنا إلّا أن يفعل مثل جو بايبر في قصّة ميكي ماوس. هذا الإلحاح على حالات المِهنيّة كما لو كانت خارقة للعادة يُوحي بأنّ القاعدة هي أنّ الناس يشتغلون كالحمير».

«وبالفعل» عقّبتُ عليها، «القارئ يُفكّر في أنّ الناس في العادة يعملون كالحمير وينبغي لنا أن نبرز حالات المِهنيّة، هي طريقة أكثر تقنية لأن يُقال إنّ كلّ شيء سار على ما يرام. أمسك رجال الشرطة بسارق الدجاج؟ لقد تصرّفوا بكلّ مِهنيّة».

«ولكن ذلك مثل البابا الطيّب. فكأن المَغْزى هو أنّ البابوات السابقين كانوا أشراراً».

«لعلّ الناس يظنّون ذلك، وإلّا ما تحدّثوا عن البابا الطيّب. هل رأيتم مرّة صورة البابا بيو الثاني عشر؟ في فيلم 007 كان يَصْلح لأن يؤدّي دور رئيس عصابة Spectre الأشرار».

«ولكنّ يوحنّا الثالث والعشرين عُدَّ البابا الطيّب لأنّ الصُّحف قالت ذلك وقلّدتها جُموع الناس».

فقاطعها سيماي: «وهو كذلك. الصُّحف تُعلّم الناس كيف ينبغي أن يُفكّروا».

«ولكن أتَتْبع الصُّحف توجّهات الناس أم تَخْلقها؟»

«كِلا الأمرَيْن، يا آنسة فريزيا. الناس في البداية لا يعرفون أيّ توجّه سلكوا، ونحن نبيّنه لهم فيفطنون إلى أنّ لهم ذلك التوجّه. لا نَتَفلسف كثيراً ولنعمل بمِهنيّة. هيّا، تقدّم بنا يا كولونّا».

«حسناً،» قلتُ مُواصلاً حديثي، «أَخْتم إذن قائمتي: يجب ألّا يموت الذئب ولا يَفْنى الغَنَم، في مقاليد السلطة، خاض المعركة، شمله التحقيق، أعظم كارثة، الخروج من النَّفق، لا فَطيرة دون كَسْر البيض، لن نتراجع أبداً، الحَذَر ودائماً الحَذَر، داء يصعب اجتثاثه، دارت الريح، التلفزة لها نصيب الأسد ولم تترك لنا إلّا الفُتات، لنلتحق بالرَّكْب، نسبة الاستماع في انخفاض، لنبعثْ رسالة قويّة، نُولي سوق المال أُذُناً مُصْغيةً، خرج من الأزمة مُحطّماً، تحوّل ثلاثمئة وستين درجة، شَوْكة مُوجعة في الجَنْب، بدأ تيّار العودة من المصيف... ولا سيّما طلب المعذرة. الكنيسة الأنغليكانيّة تطلب المعذرة من داروين، ولاية فيرجينيا تطلب المعذرة لمأساة العبوديّة، شركة الطاقة تطلب المعذرة لتعطّل الخدمات، الحكومة الكنديّة تطلب المعذرة رسميّاً للإنويّين. لا ينبغي أن يُقال إنّ الكنيسة راجعت مواقفها القديمة بشأن دوران الأرض، بل إنّ البابا يعتذر لغاليليو».

صفّقت مايا قائلة: «صحيح، أنا لم أفهم البتّة هل تشير موضة الاعتذار هذه إلى تيّار من التواضع أو تشير بالعَكْس إلى تيّار من الوقاحة: أنتَ تقوم بفعل لا يليق أن تقوم به ثمّ تَطْلب المعذرة وتَنْفض يديك منه. يُذكّرني هذا بالطُّرفة القديمة التي تحكي قصّة راعي بقر يسير بجواده في الفيافي وإذا بصوت قادم من السماء يأمره بالذهاب إلى آبيليني، وفي آبيليني يأمره بأن يدخل إلى الصالون، وبعد ذلك بأن يراهن بكلّ ما لديه من مال على الرقم 5، فيُلبّي راعي البقر نداء

الصوت السماوي، وإذا بالرقم الرابح هو 18، فيَهْمس الصوت: يا للأسف، لقد خسرنا».

ضحكنا جميعاً، وبعد ذلك انتقلنا إلى موضوع آخر. قرأنا وناقشنا مقال لوتشيدي عن أحداث «إقامة ألبارتو تريفولتسيو للمُسنّين»، ودام النقاش نصف ساعة كاملة. وفي الختام، عندما طلب سيماي في نَوْبة مفاجئة من السخاء القهوة للجميع من المقهى الذي تحتنا، هَمَستْ مايا، التي كانت جالسة بيني وبين برغّادوتشيو: «ولكن لو كنتُ أنا لفعلتُ العَكْس، أعني أنّه لو كانت الجريدة مُوجّهة إلى جمهورٍ أكثر وَعْياً، لأعجبني أن يكون فيها عمود يقول العَكْس».

«يقول عَكْس ما قاله لوتشيدي؟» سألها برغّادوتشيو مُتشكّكاً.

«لا، ماذا فَهِمتما؟ أقول عكس الأقوال المُبتذلة».

فقال لها برغّادوتشيو: «تلك التي كنّا نتحدّث عنها أكثر من نصف ساعة مضت؟»

«نعم، ولكنّني واصلتُ التفكير فيها».

فردّ برغّادوتشيو بصفة قاطعة: «أمّا نحن، فلا».

لم تبدُ مايا مُستغرِبة للاعتراض ونَظَرتْ إلينا كما لو كنّا فاقدي الذاكرة: «أعني عَكْس عبارة في عين الإعصار أو الوزير يُرغي ويُزبد. أن نقول مثلاً إنّ البندقيّة هي أمستردام الجنوب، الخيال أحياناً يفوق الواقع، أُوضِح فوراً أني عُنصريّ، المُخدّرات الثقيلة هي المدخل إلى الحشيشة، افعلْ كما لو كنتَ في بيتي، أودّ لو تُخاطبنا بضمير الشرف، من يستمتعْ يقنعْ، إنّني خَرِف ولكنّني لستُ عجوزاً، العربيّة عندي مثل الرياضيّات*، الشهرة غيّرتني، في نهاية الأمر فعل مُوسُوليني أيضاً أفعالاً شنيعة، باريس رديئة ولكن الباريسيّين لُطفاء، في ريميني كلّهم على الشاطئ ولا يضع أحد قدميه في مَرْقص، حوّل كلّ أمواله إلى باتّيباليا».

* أي لا أفهم منها شيئاً. [م].

«نعـم، وفُطْر كـامـل سـمّـمـتـه عـائـلـة. ولـكـن مـن أيـن تـأتـيـن بـكـلّ هـذه الخُزَعْبلات؟» سألها برغّادوتشيو، كما لو كان الكاردينال هيبُّوليت مع أريوسطو [Ariosto].

«بعضها تجده في كُتيِّب صغير صدر قبل بضعة أشهر مَضَتْ،» قالت مايا. «ولكن اعْذروني، فهي دون شكّ غير صالحة لجريدة **الغد**. إنّي أُخطئ دائماً الهدف. لعلّ وقت العودة إلى البيت قد حان».

«اسمعْ» قال لي برغّادوتشيو، «هيّا معي، أموت رغبةً في إخبارك بشيء. إن لم أقصّه عليك، فسأنفجر».

بعد ذلك بنصف ساعة كنّا من جديد في حانة موريجّي، ولكن في أثناء الطريق لم يُرد برغّادوتشيو أن يكشف لي عن أيّ شيء. بل لاحظ قائلاً: «لعلّك فطنت إلى مرض تلك المُسمّاة مايا. إنّها انطوائيّة».

«انطوائيّة؟ ولكن الانطوائيّين يبقون مُنغلقين على أنفسهم، لا يتواصلون مع الآخرين. لماذا قلتَ إنّها انطوائيّة؟»

«قرأتُ عن تجربة عن الأعراض الأوّلية لظاهرة الانطوائيّة. لنفترضْ أنّنا في قاعة، أنا وأنتَ وبيرينو، الطفل الانطوائيّ. أنتَ تطلب منّي أن أُخفي الكُرة الصغيرة في مكان ما وأن أخرج من القاعة. أنا أضعها في المزهريّة. بعد خُروجي تأخذ أنت الكُرة من المَزْهرية وتضعها في الدّرج. ثمّ تسأل بيرينو: عندما يعود السيّد برغّادوتشيو، أين سيبحث عن الكُرة؟ سيقول لك بيرينو: في الدُّرج، أليس كذلك؟ أي إنّ بيرينو لا يُفكّر في أنّ الكُرة في ذهني بقيت في المَزْهريّة، لأنها في ذهنه قد صارت في الدُّرج. بيرينو لا يقدر على تقمّص شخصيّة الآخر، يظنّ أنّ ما في ذِهن الآخرين هو ما في ذهنه».

«ولكن هذه ليست انطوائيّة».

«لستُ أدري ما هي، لعلّها ظاهرة خفيفة من الانطوائيّة، مثل النَّزق الذي يُمكن أن يكون درجة أُولى من الذُّهان الهَذَياني. ولكن مايا على هذه الشاكلة،

تنقصها القُدرة على اعتماد وِجهة نظر الآخرين، تظنّ أنّ الجميع يُفكّرون في ما تفكّر فيه هي. ألم تَرَ تلك المرّة التي قالت فيها إنّه لا شأن له بذلك، والشخص الذي تعنيه كنّا قد تحدّثنا عنه قبل ذلك بساعة. فهي واصلت التفكير فيه، أو عاد إلى ذهنها في تلك اللحظة، ولكنّها لا تخمّن أنّنا ربّما كُنّا نُفكّر في شيء آخر. أقول لك إنّ بها خَبَلاً، في الأقل، وأنتَ تُواصل النظر إليها وهي تتحدّث كما لو كانت وسيط وحي..».

بدا لي أنّ كلّ ذلك سَخَافات وأغلقتُ الموضوع قائلاً: «وسطاء الوحي كلّهم مجانين. لعلّها من سُلالة الكاهنة سيبيلّا كومانا»*.

وصلنا إلى الحانة، وبدأ برغّادوتشيو في الحديث.

«عندي نبأ مُثير ستبيع بسببه جريدة **الغد** مئة ألف نسخة، لو كانت في السوق. بل أكثر من ذلك، أُريد منك نصيحة. هل يجب أن أُسلّم كلّ شيء إلى سيماي أو يمكنني أن أُحاول بيعه إلى جريدة أُخرى، إلى جريدة حقيقيّة؟ إنّها قُنبلة، وتتعلّق بموسّوليني».

«لا يبدُو لي أنّها حِكاية راهنة».

«الراهن هو أن تكتشف أنّ أحدهم خدعنا حتّى الآن، بل كثيرون خدعونا، بل كلّهم خدعونا».

«بأيّ معنى؟»

«إنّها قصّة طويلة، وليس لديّ حتّى الآن سوى افتراض، الحال هو أنّني بلا سيّارة لا أستطيع الذهاب إلى المكان اللازم لاستنطاق الشاهدين اللذين لا يزالان على قَيْد الحياة. على كلّ حال لننطلْق من الوقائع التي نعرفها جميعنا، بعد ذلك سأقول لك لماذا يُمكن أن تكون فرضيّتي معقولة».

لم يزدْ برغّادوتشيو بعد ذلك على تلخيص أهمّ وقائع ما يرى أنها القصّة الشائعة، التي تبلغ من البساطة - كان يقول - ما يُبعِدُ أن تكون حقيقيّة.

* كاهنة الإلٰه أبولّو من مدينة كوما اليونانيّة. [م].

إذن، اخترق الحلفاء الخطّ القوطيّ* وصعدوا نحو ميلانو، وهو ما يعني أنّ الحرب انتهت، وفي 18 من أبريل/نيسان عام 1945 ترك مُوسُّوليني بحيرة غاردا ووصل إلى ميلانو، حيث لجأ إلى مركز مُحافظة الشرطة. وهناك شاوَرَ وزراءه في إمكان الإعداد لمقاومة في حصن فالتيلّينا، ولكنّه في الواقع كان يعلم أنها النهاية. بعد ذلك بيومَيْن يُدلي بآخر حِوار في حياته إلى آخر مُخلصيه، غايتانو كابيلّا، الذي أشرف على آخر صحيفة جمهوريّة، **شعب أليسّاندريا** [*Popolo di Alessandria*]. في 22 من أبريل/نيسان ألقى خطابه الأخير أمام ضُبّاط الحرس الجُمهوري، قائلاً، حسب ما يبدو، «إذا سقط الوطن فلا فائدة من الحياة».

في الأيام اللاحقة دخل الحُلفاء إلى بارما، وحُرِّرَت جَنَوة وأخيراً في ذلك الصباح الحاسم من يوم 22 من أبريل/نيسان احتلّ العمّال معامل ساستو سان جيوفاني. بعد الزوال، ذهب مُوسُّوليني مع بعض رجاله، ومنهم الجنرال غراتسياني، إلى رئاسة الأسقفيّة حيث استقبله الكاردينال شوستر، وقدّمه إلى بعثة من لجنة التحرير. يبدُو في خاتمة الاجتماع أنّ ساندرو بارتيني، الذي وصل مُتأخّراً، لقي مُوسُّوليني وهو يهبط السُّلّم، ولكنّها قد تكون مُجرّد أسطورة. وفرضت لجنة التحرير* استسلاماً دون شروط، مُنبّهة إلى أنّ الألمان أنفسهم شرعوا في مفاوضتهم. والفاشيّون (الأخيرون هم دائماً الأكثرون يأساً) لم يقبلوا الاستسلام بتلك الصفة المُخزية، وطلبوا بعض الوقت للتفكير ثمّ انصرفوا.

في المساء لم ينتظر قادة المقاومة أن يُفكّر أعداؤهم في الأمر، وأمروا

---

* خطّ دفاعي محصّن بناه الألمان على عرض شبه الجزيرة الإيطالية شمال توسكانا لمنع تقدّم قوّات التحالف نحو الشمال. [م].
* بعد سقوط نظام مُوسُوليني في يوليو/تموز عام 1943 بدأت المُقاومة في وسط إيطاليا وشمالها اللذين كانا لا يزالان تحت سيطرة الألمان وما بقي من الفاشيّين بتنسيق لجنة التحرير [Comitato di Liberazione Nazionale] وكان يقودها أصلاً الشيوعيّون والاشتراكيّون الذين اضطُهِدوا أكثر من غيرهم في عهد الفاشية. [م].

بالانتفاضة العامّة. وعندئذٍ لاذ مُوسُّوليني بالفِرار نحو كومو* مع فريق من أوفيائه المُخلصين.

وصلت إلى كومو أيضاً زوجته راكيلي مع ابنيها رومانو وآنّا ماريا، ولكن مُوسُّوليني لسبب لا يُمكن تفسيره رفض مُقابلتهم.

«لماذا؟»، سألني عند هذا الحدّ برغّادوتشيو. «لأنّه كان ينتظر وصول عشيقته، كلاريتّا بيتاتشي؟ ولكن إذا كانت لم تصل بعدُ، فما الذي يمنعه من أن يلتقي أُسرته مدّة عشر دقائق؟ تنبَّهْ جيّداً لهذه النُّقطة لأنّها منشأ بعض شُكوكي».

كانت كومو تبدو لمُوسُّوليني قاعدة آمنة إذ يُقال إنّه كان في أحوازها مُقاومون قليلون، ويُمكن الاختفاء فيها إلى حين وُصول الحلفاء. وبالفعل، كان هذا هو هَمّ مُوسُّوليني الحقيقيّ، ألّا يقع بين أيدي المُقاومين وأن يسلّم نفسه إلى الحُلفاء الذين سيُؤمّنون له محاكمة قانونية وليكن ما يكون. أو ربّما كان يرى إمكان التحاقه من كومو بفالتيلّينا، حيث سيضمن له بعض مُخلصيه، مثل بافوليني، إمكان تنظيم مقاومة قويّة، مع بضعة آلاف من الرجال.

«ولكن عندئذٍ كان عليه أن يترك كومو. ولا أحكي لك كلّ التنقّلات التي جابتها تلك القافلة الملعونة لأنّي أنا نفسي لم أفهم منها شيئاً ولا يُهمّ في تحقيقي إلى أين يذهبون أو إلى أين يعودون. لنقُلْ إنّهم اتّجهوا نحو ميناجيو، رُبّما في مُحاولة لدخول سويسرا، ووصلت القافلة إلى كردانو حيث التحَقَتْ بهم بيتاتشي، وهنا بَرَزت دوريّة ألمانيّة بلغها أمر من هتلر بمُرافقة صديقه نحو ألمانيا (وربّما كانت في انتظاره في كيافينّا طائرة لحمله إلى بافييرا). ولكنْ هناك من قال إنّه لا يُمكن الوُصول إلى كيافينّا، فرَجَعت القافلة إلى ميناجيو، وفي أثناء الليل وصل بافوليني، الذي كان من المُفترض أن يحمل معه مُساعدات عسكريّة ولكنّه لم يكُن معه سوى سبعة رجال أو ثمانية من الحرس الوطني الجُمهوري. عندئذ أحسّ مُوسُّوليني بأنّه كالطريدة، أين منه حُلم المقاومة في فالتيلّينا؟ لم يبقَ له إلّا أن

* بحيرة كومو في شمال إيطاليا قرب الحدود السويسريّة كانت آخر ملاذ لمُوسُوليني. [م].

ينضمّ، مع قادته وأُسرهم، إلى قافلة ألمانيّة كانت تحاول اجتياز جبال الألب. كانت القافلة مُتكوّنة من ثمانٍ وعشرين شاحنة حاملة للجنود، وكل شاحنة مُجهّزة برشاشات، وقافلة إيطالية مُتكوّنة من مُدرّعة ونحو عشر سيّارات مدنيّة. إلّا أنّ القافلة اصطدمت في مُوسُّو، قبل الوصول إلى دونغو، برجال كتيبة بويشر [Puecher] التابعة للفَيْلق 52 من كتيبة غاريبالدي. كان عددهم ضئيلاً، وكان قائدهم «بيدرو»، وهو الكونت بيار لويجي بيلّيني ديلّي ستيلّي، والمندوب السياسي كان «بيلّ»، وهو أوربانو لادزَرو*. كان بيدرو لا يخشى المُجازفة وليأسه لجأ إلى المُماطلة. أَوْهم الألمان أنّ الجبال من حولهم تعجّ بالمُقاومين، وهدّد باستعمال القذائف، التي في الواقع كانت لا تزال بحوزة الألمان، وفطن إلى أنّ القائد كان يُحاول المُقاومة ولكنّ الجنود اعتراهم الخوف، وكانوا لا يُريدون إلّا النَّجاة بأرواحهم والعودة إلى ديارهم، فرفع نبرة التحدّي... باختصار، بعد أخذ وردّ، ومُفاوضات مُضنية أُعفيك من ذكرها، لم يقنع بيدرو الألمان بالاستسلام فحسب، بل أقنعهم أيضاً بترك الإيطاليّين الذين كانوا يُرافقونهم. وبهذا الشَّرط وحدَه بإمكانهم مُواصلة الطريق إلى دونغو، وهنالك سيخضعون مع ذلك لعمليّة تفتيش شاملة. بإيجاز، تصرّف الألمان مع حلفائهم القُدامى كالكلاب، ولكن ماذا تريد، النجاة بالنفس أَوْلى من كلّ شيء».

طَلَب بيدرو أن يتركوا له الإيطاليّين، لا لأنّه كان موقناً بأنّهم قياديّو الفاشية فحسب، ولكن أيضاً لأنّه بَدَأت تسري بعض الإشاعات التي تُفيد أنّ مُوسُّوليني نفسه موجود معهم. كان بيدرو يُصدّق ولا يُصدّق، وذَهَب ليُفاوض قائد المُدرّعة، نائب رئيس مجلس الوزراء (في الجُمهوريّة الاجتماعيّة المُندثرة*)، برّاكو، جريح

* اتّخذ المقاومون لأنفسهم أسماء مستعارة مثل Pedro أو Bill حتى يصعب تعرّف هويّتهم الحقيقيّة. [م].

* اعتُقِل مُوسُّوليني غداة أن سَحَبَ الثِّقةَ منه المجلس الفاشي في يوليو/تموز عام 1943 ولكن عمليّة جريئة دبّرها الألمان حرّرته من السجن ونَقَلْته إلى شمال إيطاليا التي كانت لا تزال تحت سيطرة الألمان حيث أنشأ مُوسُّوليني «الجمهورية الاجتماعية» [Repubblica Sociale] التي لا سِيادة لها وتحت حماية القوّات الألمانية. [م].

الحرب الأُولى كما تُشير إلى ذلك الميدالية الذهبيّة المُعلّقة على صدره، الذي ترك لديه في نهاية الأمر انطباعاً حسناً. كان بَرّاكو يريد مُواصلة سيره نحو ترياستي لأنّه أراد إنقاذ المدينة من الاجتياح اليوغسلافي، فأفهمه بيدرو بكلّ لطف أنّه مجنون، ولن يصل أبداً إلى ترياستي، وإن وصل إليها فسوف يكونون شِرْذمة صغيرة بإزاء جيش تيتو، فطلب منه آنذاك بَرّاكو أن يسمح له بالعودة على أعقابه للالتحاق، دون أن يعرف أين بالضَّبط، بالجنرال غراتسياني. قبِل بيدرو في نهاية الأمر (بعد أن فتّش المُدرّعة دون أن يجد فيها مُوسُّوليني) أن يتركه يعود على أعقابه لأنّه لم يكن يُريد الإقدام على مواجهةٍ ناريّة قد تُنبّه الألمان فيعودون إلى الوراء، ولكن عند تركه المدرّعة للاهتمام بأشياء أُخرى أمر أحد رجاله بالتثبّت من أنّ المُدرّعة عادت بالفعل على أعقابها، لأنّها إذا تقدّمت حتّى مسافة مترَيْن فعليه آنذاك إطلاق النّار. وحدث أنّ المُدرّعة قفزت إلى الأمام مُطلقة النار، أو لعلّها تقدّمت قليلاً حتّى يمكنها بطريقة أفضل تغيير وِجهتها إلى الوراء، لا يدري أحد كيف سارت الأمور، الحال هو أنّ المُقاومين فقدوا التحكّم في أعصابهم وأطلقوا النّار، ووقع تبادل لإطلاق النار، مات على إثره فاشيّان وجُرح مُقاومان، وفي النهاية قُبِض على راكبي المُدرّعة وعلى المسافرين في السيارات المُرافقة. ومن بينهم، حاول بافوليني الهرب مُلقياً بنفسه في البحيرة ولكنه انتُشل وضُمَّ إلى الآخرين، مُبتلّاً كعصفور سقط في الماء.

عندئذٍ وصلت إلى بيدرو رسالة من بيلّ، قادمة من دونغو: بينما كانوا يُفتّشون شاحنات الطابور الألماني ناداه أحد المُقاومين، جيوزيبي نيغري، الذي قال له بلهجة خاصة «ghè chi el Crapun»، ما معناه أنّ هناك الرأس الكبير، أو بالأحرى أنّ هناك، حَسَب رأيه، جُندياً غريباً على رأسه خُوذة، ونظّارات شمسية ورقبة المعطف مرفوعة إلى الذقن، ولا يُمكن أن يكون إلّا مُوسُّوليني. فذهب بيلّ للتثبّت من ذلك، في حين تظاهر الجندي بعدم الاكتراث، ولكن في نهاية الأمر اكتُشف أمره، كان بحقّ هو، الـ «دوتشي»*، وبيلّ - الذي حار في ما ينبغي فعله -

* لقب Duce اتّخذه مُوسُّوليني ويعني القائد أو الزعيم على غِرار Führer لهتلر أو Caudillo لفرانكو. [م].

حاول أن يكون في مُستوى تلك اللحظة التاريخية وقال له «باسم الشعب الإيطالي، أُعلن اعتقالك». وحَمَله إلى مقرّ البلدية.

في أثناء ذلك، في مُوسُّو، وسط السيّارات الإيطالية، اكتشفوا سيّارة كانت تُقلّ امرأتَيْن، وطفلَيْن ورجلاً أكّد أنّه القُنصل الإسباني وأنّ له لقاءً مُهمّاً في سويسرا لرجل مُخابرات إنكليزي غير محدَّد بشكل أفضل، ولكنّ وثائقه كانت تبدو مُزيّفة، وتقرّر الاحتفاظ به وسط احتجاجاته الصارخة.

كان بيدرو ورجاله يعيشون لحظة تاريخية ولكنّهم في البداية كانوا يبدون غير واعين لذلك، وكلّ همّهم المُحافظة على النظام العامّ، وتجنّب القتل التعسّفي، وطمأنة الموقوفين أنّهم لن يُمَسُّوا بسُوء وسيُسلّمون إلى الحكومة الإيطالية حالَما يتسنّى لهم إعلامها بذلك. وبالفعل، في عشيّة الـ 27 من أبريل/ نيسان تمكّن بيدرو من الاتّصال هاتفيّاً بميلانو مُعلناً عمليّة الاعتقال، وعندئذٍ تدخّلت لجنة التحرير، التي تسلّمت في ذلك الحين برقية من قُوى التحالف تطلب تسليم الـ «دوتشي» وجميع أعضاء حكومة الجُمهورية الاجتماعية، حَسَب مُقتضيات مُعاهدة الاستسلام المُوقَّعة في عام 1943 بين بَدوليو وأيزنهاور («بِنيتو مُوسُّوليني، وأهمّ شركائه الفاشيّين... الآن وفي المُستقبل إذا ما وُجدوا في المناطق تحت سيطرة القيادة العسكريّة للحلفاء أو الحكومة الإيطالية، يجب اعتقالهم وتسليمهم إلى قوّات الأمم المتّحدة»). ويُقال إنّ طائرة ستهبط بمطار بريسّو لتقلّ الديكتاتور. كانت لجنة التحرير مُقتنعة بأن مُوسُّوليني بين أيدي الحلفاء سينجو بنفسه، قد يُمضي بعض السنين في السجن، ولكنه بعد ذلك سيعود إلى الساحة. لويجي لونغو (الذي كان يُمثّل الشيوعيّين في لجنة التحرير) قال على عكس ذلك إنّه ينبغي إعدام مُوسُّوليني على الفور، دون شفقة، دون مُحاكمة ودون جُمل تاريخية. وكان أغلب المُنتمين إلى اللجنة يشعرون بأن البلاد بها حاجة فوريّة إلى رمز، رمز ملموس، ليفهم الجميع أنّ العشرينيّة الفاشيّة ذَهَبت دون رجعة: جُثمان مُوسُّوليني. زيادةً على ذلك، فإنّ الخوف لم يكن مقصوراً على استحواذ الحُلفاء على مُوسُّوليني؛ بل كان الخوف بالأحرى أنّه إذا لم يُعرف بعد ذلك مصير مُوسُّوليني، فإنّ صورته ستبقى كحضور لاماديّ ولكنّه مُزعج، مثل

فريدريك باربا روسّا الأسطوري، سجين مغارة، ولكنه مُستعدّ دائماً لشحن المُخيّلات بشتّى إيحاءات العودة إلى الماضي.

«وسترى بعد قليل أنّ مُقاومي ميلانو كانوا على حقّ... ولكن لم يكونوا كلّهم يُشاطرونهم الرأي: من بين أعضاء اللجنة، كان الجنرال كادورنا يميل إلى إرضاء رغبة الحُلفاء، ولكنّه لم يحظَ بأغلبيّة الأصوات وقرّرت اللجنة إرسال بعثة إلى كومو لإعدام مُوسُّوليني. وكان يقودُ الكتيبةَ، دائماً، حَسَب الرواية الشائعة، رجل ذو انتماء شيوعيّ راسخ، هو العقيد فاليريو، والمندوب السياسي آلدو لامبريدي.

لن أُضجرك بالفرضيّات البديلة، مثل ألّا يكون مُنفّذ الإعدام فاليريو بل كان شخصاً له مقام أكثر أهميّة منه. بل يَتَهامس بعضهم أنّ المُنفّذ الحقيقي للإعدام كان ابن ماتيوتّي*، أو أنّ من أطلق الرصاص كان لامبريدي، العقل الذي خطّط للمُهمّة. إلى غير ذلك. ولكن لنُصدّق ما قيل سنة 1947، من أنّ فاليريو هو المُحاسب والتر أوديزيو، الذي دخل بعد ذلك بوصفه بطلاً إلى البرلمان ضمن قائمة الحزب الشيوعي. بقَدْرِ تعلّق الأمر بي، سواء كان فاليريو أو غيره، فذلك لا يُغيّر جوهر الموضوع، لذا فلنُواصل الحديث عن فاليريو. إذن ذهب فاليريو مع كتيبة من رجاله إلى دونغو. في أثناء ذلك، ودون معرفة بقُدوم فاليريو الوشيك، قرّر بيدرو إخفاء الدُّوتشي لأنّه كان يخشى أن تحاول فِرَق فاشيّة جوّالة تحريره. وحتّى يبقى المَخْبأ سريّاً قرّر في البداية نقل السجين، بطريقة سريّة، دون شكّ، ولكن باقتناع بأنّ الخبر سيُذاع، نحو الداخل قليلاً، في ثكنة الحرس الجُمركي بجرمازينو. ولكن بعد ذلك سيُقاد الدُّوتشي ليلاً إلى مكان آخر، وهذا المكان لا يعرفه إلّا القليلون، نحو كومو».

في جرمازينو تسنّى لبيدرو أن يُبادِلَ الموقوف بعض الحديث، وقد توسّل

* أبوه Giacomo Matteotti كان نائباً اشتراكيّاً قتله الفاشيّون سنة 1924 لأنّه شهّر بالمُمارسات العنيفة التي انتهجها حزب مُوسُّوليني للفوز بالانتخابات. بعد قتله وأمام عجز الملك وصمت القوى الأخرى أقرّ مُوسُّوليني الديكتاتوريّة وألغى كلّ الحريّات. [م].

إليه الموقوف أن يُبلغ تحيّاته سيّدة كانت في سيّارة القُنصل الإسباني، وبعد تحفّظ أوّلي اعترف بأنّ السيّدة المعنية هي بيتاتشي. والتقى بيدرو بيتاتشي، التي حاولت في البداية التظاهر بأنّها امرأة أُخرى، ثمّ أذعنت ورَوَت له قصّة حياتها إلى جانب الدُّوتشي طالبة منه أن يكون آخِر فضلٍ له أن يجمعها بحبيبها. وبيدرو، الذي حارَ في ما ينبغي فعله، بعد استشارة رفاقه، حرّكت مشاعره تلك القصّة الإنسانيّة، وقبل تنفيذ طلبها. وها هي ذي بيتاتشي تُشارك في نَقْلة مُوسُّوليني الليليّة إلى المقرّ الثاني، الذي في الواقع لم يبلغه البتّة، لأنّهم بلغهم أنّ الحُلفاء وصلوا إلى كومو وأنّهم بصدد القضاء على آخر معاقل المُقاومة الفاشية؛ وتَبَعاً لذلك جرى تحويل وِجهة القافلة الصغيرة المُكوَّنة من سيّارتَيْن من جديد نحو الشمال. ووقفت السيّارتان في أدزانو وبعد سير مسافة قصيرة على الأقدام ضيّفت أسرة موثوق بها، دي ماريا، الفارّين وهيّأت لمُوسُّوليني ولبيتاتشي غرفة صغيرة فيها فراش لزوجَيْن.

لم يكن بيدرو يعرف أنّها المرّة الأخيرة التي سيرى فيها مُوسُّوليني. عاد إلى دونغو حيث وصلت إلى ساحة المدينة شاحنة مملوءة بالمُسلّحين، بأزياء جديدة نظيفة تناقض الأثواب الرثّة والمُمزّقة هنا وهناك التي كان يلبسها رفاقه المقاومون. وانتشر المُسلّحون الجُدد أمام البلديّة وتقدّم قائدهم الذي قدّم نفسه على أنّه العقيد فاليريو، ضابط أَرْسلته القيادة العامّة إلى فوج مُتطوّعي الحريّة بسُلطة كاملة، وقدّم له وثائق تُثبت ذلك بصفة لا تَتَرك مجالاً للشكّ قائلاً إنّه أرسِل لإعدام المساجين، كلّهم. حاول بيدرو الاعتراض طالباً أن يسلّم المساجين إلى مَن يُعدّ لهم مُحاكمة قانونية، ولكن فاليريو، مُعتمداً على رُتبته الأرفع، تسلّم قائمة الموقوفين ورسم أمام كلّ اسم صليباً صغيراً أسود اللون. ورأى بيدرو أنّ كلاريتّا بيتاتشي أيضاً حُكم عليها بالإعدام، فاعْتَرض قائلاً إنّها ليست إلّا عشيقة الديكتاتور، ولكن فاليريو أجابه بأنّ تلك هي أوامر قيادة ميلانو.

«وانتبه جيّداً إلى هذه النقطة، التي تَبْرز واضحة جدّاً في مُذكّرات بيدرو، لأنّ فاليريو قال في روايات أُخرى إنّ بيتاتشي تشبّثت بعشيقها، وأمرها هو أن تبتعد ولكنّها لم تُطعه فكان أن أُعدِمت، إن شئنا، على وجه الخطأ أو مُظهِرةً

منتهى الإخلاص. الواقع أنّها هي أيضاً حُكم عليها بالإعدام، ولكن ليس هذا هو المهمّ، بل المهمّ أنّ فاليريو يروي حكايات مُختلفة ولا يُمكن أن نَثِق بأقواله».

تبعت ذلك أحداث غامضة: بعد أن أخبروه بوجود قُنصل إسباني مزعوم، أراد فاليريو مُقابلته، وخاطبه باللّغة الإسبانيّة فلم يقدر على إجابته، ومن الواضح إذن أنّه غير إسباني، فصَفَعه فاليريو بشدّة، وعرّفه أنّه فيتّوريو مُوسُّوليني ثم أمر بيلّ أن يحمله إلى ضِفاف البُحيرة وأن يُعدمه رَمْياً بالرصاص. في أثناء الطريق عَلِم أحدهم أنّ الرجل، على عكس ما قيل، هو مارتشيلّو بيتاتشي، شقيق كلاريتّا، فرجع بيلّ معه أدراجه، ولكن ذلك كان أسوأ، فبينما كان هذا الأخير يهذي بالخدمات التي أدّاها لإيطاليا، وبأسلحة سريّة اكتشفها وأخفاها عن هتلر، وضعه فاليريو هو أيضاً في قائمة المحكوم عليهم بالموت.

فوراً بعد ذلك وصل فاليريو هو ورِجاله إلى منزل أسرة دي ماريا، وانتزع مُوسُّوليني وبيتاتشي وحملهما في السيارة إلى شارع صغير بجيولينو دي ميدزيغرا، حيث أنزلهما. يبدُو أنّ مُوسُّوليني ظنّ في البداية أنّ فاليريو جاء لإطلاقه، وعندئذٍ فحَسْب عَلِم ما كان ينتظره. دفعه فاليريو نحو باب حديديّ وقرأ عليه نصّ الحكم، مُحاولاً (كما قال بعدئذٍ) فصله عن كلاريتّا، التي لفرط يأسها تمسّكت بشدّة بعشيقها. حاول فاليريو إطلاق الرصاص، ولكن رشاشه تعطّل، طلب رشّاشاً آخر من لامبريدي ورمى المحكوم عليه بخمس طلقات. وقال بعد ذلك إنّ بيتاتشي رمت بنفسها فجأة أمام الرشّاش، وقُتلت على وجه الخطأ. كان ذلك في 28 من أبريل/ نيسان.

«ولكنّنا نعرف كلّ هذا من شهادات فاليريو. فقد ذكر أنّ مُوسُّوليني سَقَطَ كالخِرْقة البالية، في حين أنّ أساطير نَشَأت من بعد تقول إنّه فتح رقبة معطفه صارخاً أن يُصوّبوا نحو القلب. الواقع أنّه لا يَعْرف أحد ماذا حدث بالضَّبط في ذلك الشارع الصغير، ما عدا مُنفّذي الإعدام، الذين كان يُسيّرهم الحزب الشيوعي حتّى بعد ذلك».

عاد فاليريو إلى دونغو وأعدّ تنفيذ الإعدام في القياديّين الآخرين. طلب

برّاكو ألّا يُعدم في الظَّهْر ولكن دُفع به مع الآخرين، ووضع فاليريو في المجموعة بيتاتشي ولكن كلّ الآخرين المحكوم عليهم اعترضوا لأنّهم كانوا يَعُدّونه خائناً، ومَنْ يدري ماذا فعل ذلك الرجل سابقاً. وتقرّر بعد ذلك أن يُعْدَم وحده. بعد أن سَقَط الآخرون، انسلَّ بيتاتشي وفرّ نحو البُحيرة، أمسكوه من جديد ولكنه نجح مرّة أُخرى في التخلّص منهم ورمى بنفسه في الماء وأخذ يسبح يائساً فأنهوا أمره رمياً بالرشّاش وبالبندقيّة. بعد ذلك انتشل بيدرو، الذي لم يُرد أن يُشارك رجاله في تنفيذ الإعدام، جثّته من الماء ووضعها على الشاحنة نفسها التي حمّلها فاليريو جثامين الآخرين. ثمّ واصلت الشاحنة نحو جيولينو لحمل جثمانَي الدّوتشي وكلاريتّا. ومنه، مباشرة، نحو ميلانو حيث صُفُّوا كلّهم في التاسع والعشرين من أبريل (نيسان) في ساحة لوريتو، بالضبط حيث أُلقيَتْ قبل ذلك بسنة جثامين المُقاومين الذين أُعدِموا بالرصاص - التي تركتها المليشيات الفاشية تحت الشمس يوماً كاملاً، مانعين أهالي المَعْدومين من انتشال بقاياهم.

عندئذٍ أمسكني برغّادوتشيو من ذراعي، ضاغطاً بقوّة إلى حدّ أنّني انتزعتُ نفسي منه بجَذْبة قويّة : «اعْذُرني» قال لي، «ولكنّني أصل الآن إلى صميم مُشكلتي. انتبه جيّداً: المرّة الأخيرة التي شاهدَ فيها مُوسُّوليني علناً أشخاصٌ يَعْرفونه كانت في تلك العشيّة في مقرّ رئاسة الأسقفيّة بميلانو. ومنذ ذلك الحين باتَ يتنقّل دائماً في صُحبة أشدّ المُخلصين له، وحين أخذه الألمان معهم، وعندما أَوْقفه من بَعْدُ رجالُ المُقاومة، لم تكن لدى كلّ الذين كان لهم اتّصال به معرفة شخصيّة به البتّة، بل لم يكونوا قد شاهدوه إلّا في الصّور أو في أفلام الدعاية، وصُوَر العامَيْن الأخيرَيْن كانت تُظهره على قَدْرٍ من الهُزال والشُّحوب بحيث كان الناس يَتَهامسون، وإن كان مُجرّد كلام، بأنّه ليس إيّاه. كنتُ قد حدّثتك عن الحوار الأخير الذي أجراه مع كابيلّا، في 20 من أبريل/نيسان، والذي راجَعَه مُوسُّوليني ووقّعه، هل تتذكّر؟ حسناً، سجّل كابيلّا في مَلْحوظاته ما يأتي: «لاحظتُ على الفَوْر أنّ مُوسُّوليني كان في صحّة جيّدة، بعكس ما كانت تُروِّجه الإشاعات. كان أفضل بكثير من المرّة الأخيرة التي شاهَدْته فيها. كان ذلك في ديسمبر/كانون الأول 1944، لِمُناسبة الخِطاب الذي ألقاه في ليريكو. في

المرّات السابقة التي استقبلني فيها - في فبراير/ شباط، في مارس/ آذار وفي أغسطس/ آب عام 1944 - لم أرَه البتّة حيويّاً مثلما رأيته آنذاك. كان لونه أسمر من الشمس ويُنمّ على العافية وكانت عيناه تتّقدان حيويّة وحركاته سريعة وخفيفة. بل كان قد سمِن أيضاً شيئاً ما. أو في الأقلّ اختفى ذلك الهُزال الذي رَاعَني في فبراير/ شباط من السنة السابقة والذي كان يُضفي على وَجْهه مظهراً يكاد يكون ذابلاً». ولنفترضْ مع ذلك أنّ كابيلّا كان يمارس الدعاية وكان يريد أن يُظهر الدُّوتشي وهو يتحدّث إليه وهو في كامل قُواه العقليّة، والآن استمع إليّ، لنقرأ مُذكّرات بيدرو، التي تقصّ لقاءه الأوّل لموسّوليني، بعد إيقافه: «كان جالساً على يمين الباب، بالقُرب من طاولة كبيرة. لو لم أكُنْ أعرف أنّه هو، لأمكن ألّا أعرفه. كان يبدُو شيخاً، ذابلاً وخائفاً. كانت عيناه زائغتَيْن، لا تَقْدران على تركيز النظر. وكان يُدير رأسه هنا وهناك بحركات صغيرة غريبة، ناظراً حواليه كما لو كان خائفاً من شيء. . .». طيّب، كانوا قد أوقفوه منذ قليل، ومن المنطقي أن ينتابه الخوف، ولكن مرّ ما لا يزيد على أسبوع منذ أيّام الحوار، وكان واثقاً قبل ذلك ببضع ساعات بأنّه سيجتاز الحدود. هل يبدُو لك أنّ بإمكان شخصٍ أن يَهْزل هكذا في غضون سبعة أيّام؟ وإذن فإنّ الشخص الذي تحدَّث إلى كابيلّا وذلك الذي تحدَّث إلى بيدرو ليسا شخصاً واحداً. ولاحِظْ أيضاً أنّه حتّى فاليريو لم يكن يَعْرف مُوسُّوليني شخصيّاً، وجاء ليُعدِم رمياً بالرصاص أُسطورةً، أو صورةً، الرجُلَ الذي كان يحصد القمح ويُعلنُ الدخول في الحرب..».

«تقول لي إذن إنّه كان يوجد مُوسُّولينيان..».

«لنُواصل القصّة. ذَاعَ خبر وصول الذين أُعدِموا في كلّ أرجاء المدينة واكتظّت ساحة لوريتو بالجُموع، منهم من كان مُهلّلاً ومنهم من كان فريسة للغضب، واشتدّ الزّحام بحيث داست الأقدام الجثامين وشوّهتها، وتعالى صوت السبّ والشتم، وانهال عليها البُصاق، وتناوبوا على ركلها. وأطلقت امرأة على مُوسُّوليني خمس رصاصات من مُسدّسها أخذاً بثأر أبنائها الخمسة الذين سقطوا في الحرب، في حين بَالَت امرأة أُخرى فوق جُثمان بيتاتشي. إلى أن تدخّل أحدهم، ولتجنيب الجُثث كلّ ذلك التشنيع علّقها من القدمَيْن على عمود مُوزّع

وقود. وهذا هو المشهد الذي تُرينا إيّاه صُوَر تلك الحقبة، لقد انْتَزعتها من جرائد تلك الأيام، هذه ساحة لوريتو وبعد ذلك مباشرةً نجد جثمانَيْ مُوسُّوليني وكلاريتّا، عندما جاء فريق من المُقاومين في اليوم التالي وأنزل الجُثتَيْن لحملهما إلى مستودَع الموتى بساحة غوريني. انظر جيّداً إلى هاته الصُّور. إنّها أجساد أشخاص تشوّهت ملامحها، قبل ذلك بفعل الرصاص، وبعد ذلك بالوَطء الوحشي، ثمّ هل رأيتَ البتّة وجه شخصٍ مُصَوَّر ورأسه إلى أسفل، عيناه في موضع الفم والفم في موضع العينَيْن؟ يُصبح تعرُّف الوجه مُحالاً».

«إذن، الرجل في ساحة لوريتو، الرجل الذي أعدمه فاليريو، لم يكن مُوسُّوليني. ولكن بيتاتشي، عندما التحقَتْ به، كان بإمكانها أن تعرفه..».

«سنعود إلى بيتاتشي. اترُكني الآن أصنع فرضيّتي. الديكتاتور لا بُدّ أن يكون لديه شبيه، ومن يَدْري كم مرّة استعمله في استعراض رسميّ حيث يجب أن يمرّ واقفاً على متن سيّارة، لا تُمكن رُؤيته إلّا من بعيد، لتجنّب مُحاولات الاغتيال. تصوّر الآن أنّ تمكين الدُّوتشي من الفِرار دون صُعوبات، منذ اللحظة التي رحل فيها إلى كومو، اقتضى ألّا يعود مُوسُّوليني هو مُوسُّوليني بل أن يكون شبيهه».

«ومُوسُّوليني أين هو؟»

«إصبرْ، سأصل إليه أيضاً. عاش الشبيه عدّة سنوات منزوياً، براتب مُحترم وحياة كلّها رَفاه، لا يظهر إلّا في مُناسبات مُعيّنة. وصار يُحسّ بأنّه مُماثِل تقريباً لمُوسُّوليني، حتّى إنّهم أقْنعوه هذه المرّة أيضاً بتعويض مُوسُّوليني، مُفسّرين له ذلك بأنّه حتّى إن قُبض عليه قبل اجتياز الحدود، فلن يَجْرؤ أحد على مسّ الدُّوتشي بسوء. يكفيه هو أن يؤدّي الدّور دون مبالغة، إلى حين وُصول الحُلفاء. عندئذٍ بإمكانه أن يكشف عن هويّته، ولن يُمكن إدانته بشيء، سيخرج منها في أكثر تقدير ببضعة شهور في السجن. في مقابل ذلك، ثمّة مبلغ مُهمّ ينتظره في مصرف في سويسرا».

«والقياديون الذين رافقوه إلى نهاية المطاف؟»

«قبِل القياديّون تلك المسرحيّة لتمكين زعيمهم من الفِرار، وإذا وصل إلى

الحُلفاء فسيُحاول إنقاذهم أيضاً. أو يُحْتَمَلُ أنّ أكثرهم تعصّباً كانوا يُفكّرون في المقاومة حتّى آخر نَفَس، وهم أيضاً يحتاجون إلى صورة ذات مِصداقيّة لإذكاء الحماسة في نُفوس آخر اليائسين المُستعدّين للقتال. أو أنّ مُوسُّوليني كان منذ البداية قد سافر في سيّارة معَ اثنَيْن أو ثلاثة من ثِقاته وكلّ القياديّين الآخرين شاهدوه دائماً من بعيد، حاملاً نظّارات شمسية. لستُ أدري ولكن هذا لا يُغيّر شيئاً. الحال هو أنّ فرضيّة الشبيه هي الوحيدة التي تكشف عن سبب محاولة مُوسُّوليني الزائف تجنّب مُلاقاة الأُسرة في كومو. كان من غير المُمكن السّماح بأن ينتشر سرّ الاستبدال ليشمل كلّ أفراد العائلة».

«وبيتاتشي؟»

«إنّها أكثر القصص إثارة للشَّفقة: فهي تَلْتحق به ظانّة أنّها ستجده هو نفسه، الحقيقي، وأعلموها حال وصولها بحقيقة الأمر، وبأنَّ عليها أن تتظاهر بأنّها تعتقد أنّ الشبيه هو مُوسُّوليني الحقيقي لإضفاء مزيدٍ من المصداقيّة على الحكاية كلّها. كان عليها أن تؤدّي الدّور إلى حين الوُصول إلى الحُدود، وهي حرّة بعد ذلك في الذهاب لشأنها».

«ولكن كلّ ذلك المشهد الأخير، وهي مُتشبّثة به وتُريد أن تموت معه؟»

«ذلك هو ما رَوَاه لنا العقيد فاليريو فقط. أفرض فرضيّةً، عندما رأى الشبيه نفسه أمام جِدار الإعدام تملّكه الذُّعر، وصرخ أنّه ليس مُوسُّوليني. يا للجبان، قال فاليريو في نفسه، يستعمل كلّ الحِيَل للإفلات. وأُطلق الرصاص. لم يكن من مصلحة بيتاتشي أن تُؤكّد أنّه ليس عشيقها، وعانَقَته لتجعل الأمر أكثر قابليّة للتصديق. لم تكن تتصوّر أنّ فاليريو سيُطلق الرصاص عليها أيضاً، ولكن من يدري، النساء هيستيريات بطبعهنّ، قد تكون فقدت الصواب، ولم يكن بإمكان فاليريو إسكات تلك المسعورة إلّا برشقة من رشّاشه. أو فكّرْ أيضاً في هذه الفرضيّة الأُخرى، فطن فاليريو عندئذٍ إلى تبديل الشخص، ولكنّه أُرسِل لإعدام مُوسُّوليني، أُرسِل هو، الوحيد المُعيَّن من بين كلّ الإيطاليّين، وتُريده أن يَعْدل عن الفخر الذي سيحوزه؟ ولذا يُشارك هو أيضاً في المسرحيّة. إذا كان الشبيه

يُشبه أُنموذجه وهو حيّ، فهو سيُشبهه أكثر ميْتاً. ومن سيُكذّبه أبداً؟ كانت لجنة التحرير تحتاج إلى جُثّة، وستَحْصل عليها. وإذا ما ظهر يوماً مُوسُّوليني الحقيقي، فسيكون بالإمكان دائماً تأكيد أنّه هو الشبيه».

«ومُوسُّوليني الحقيقي؟»

«هذا هو الجُزء من الفَرضيّة الذي يجب أن أُنهي تركيبه. ينبغي أن أُفسّر كيف أمكنه أن يهرب ومن أعانه على ذلك. لنبدأ بالخُطوط الكبرى. لا يريد الحلفاء أن يسقط مُوسُّوليني في أيدي المُقاومين لأنّه يملك أسراراً قد تُحرجُهم إن صرّح بها، كالرسائل المُتبادلة مع تشرشل ومن يدري أيّ دسائس أُخرى. وهذا في حدّ ذاته يُمثّل سبباً كافياً. ولكن ما هو أكثر أهمّيّةً هو أنه مع تحرير ميلانو كانت قد بدأت الحرب الباردة الحقيقية. ولا يقتصر سبب ذلك على أنّ الرّوس كانوا يقتربون من برلين وأنّهم استحوذوا على نصف أُوروبا، ولكن لأنّ مُعظم المُقاومين شيوعيّون، مُدجّجون بالسّلاح، ويُمثّلون إذن للرّوس فَيْلقاً خامساً مُستعدّاً لتسليم إيطاليا أيضاً إليهم. ولذا فإنّ على الحُلفاء، أو الأميركيين في الأقلّ، إعداد مقاومة مُحتملة لثورةٍ مُوالية للاتّحاد السوفياتي. وللنجاح في ذلك عليهم أن يستعملوا من بقي من النظام الفاشي. ومن ناحية أخرى ألمْ يُنقذوا العُلماء النازيّين، مثل فون براون، بنقلهم إلى أميركا تمهيداً لغزو الفضاء؟ أعوان المخابرات الأميركية لا يقفون عند التفاصيل. مُوسُّوليني، بعد وضعه في حالة عدم القُدرة على أيّ ضَرَر بوصفه عدوّاً، يُمكن أن يَصْلح لهم غداً بوصفه صديقاً. لذا يجب تهريبه خارج إيطاليا، وإهماده، إن جاز التعبير، مدّة من الزمن في مكان ما».

«وكيف؟»

«يا إلٰهي، ولكن مَن توسّط لتجنّب تفاقم الأمور؟ رئيس أساقفة ميلانو، الذي كان دون شكّ يعمل بتوجيهاتٍ من الفاتيكان. ومن ساعد بعد ذلك على فِرار الكثير من الفاشيّين والنازيّين إلى الأرجنتين؟ الفاتيكان. الآن حاول أن تتصوّر: عند الخُروج من رئاسة الأسقفيّة يُقِلّون الشبيه في سيّارة مُوسُّوليني، في حين يكون مُوسُّوليني في سيّارة أُخرى مُتواضعة مُتَّجهاً إلى كاستيلّو سفورسَسْكو».

«لماذا إلى كاستيلّو؟»

«لأنّ السيّارة إذا اخْتَصرت الطريقَ عبر دوومو، من رئاسة الأسقفيّة إلى كاستيلّو، ثمّ اجتازت كُردوزيو ودخلت في شارع دانتي، فستصل إلى كاستيلّو في خمس دقائق. أسهل من الذهاب إلى كومو، أليس كذلك؟ والكاستيلّو، إلى يومنا هذا، مملوء بالأنفاق. بعضها معروفٌ، وهو يستعمل مصبّاً للنفايات، أو شيئاً من هذا القَبيل، وبعضها الآخر كان موجوداً في أواخر الحرب وكان يُستعمَلُ ملاجئ ضدّ قصف الطائرات. الحال هو أنّ عدّة وثائق تذكر وجود ممرّات مُختلفة في القُرون الماضية، أنفاق بأتمّ معنى الكلمة تربط كاستيلّو بنِقاط أُخرى من المدينة. وأحد هذه الأنفاق يُقال إنّه لا يزال موجوداً، إلّا أنّ العثورَ على مدخله صار غير مُمكن بسبب الرَّدم، ويبدو أنّه كان يُؤدّي من كاستيلّو إلى دير سانتا ماريا ديلّي غراتسيي. هنالك اختبأ مُوسُّوليني بضعة أيّام، في حين كان جميعهم يبحثون عنه في الشمال، ثمّ يُمثّلون بجثمان الشبيه في ساحة لوريتو. ما إن هدأت الأجواء في ميلانو حتّى جاءت سيّارة تحمل لوحة «مدينة الفاتيكان» وأخذت مُوسُّوليني ليلاً. كانت الطُّرق في تلك الحقبة غير آمنة تماماً ولكن من كنيسة إلى كنيسة ومن دَيْر إلى دَيْر، وصلت السيارة أخيراً إلى روما. واختفى مُوسُّوليني داخل أسوار الفاتيكان، وأترك لك اختيار أفضل الحُلول: قد يكون بقي هناك، مُتنكّراً رُبّما في زيّ أُسقف شيخ ومُعَوَّق، أو بجواز فاتيكاني، ومُتنكّراً في زِيّ راهب مريض، شَرِس الطبع، مُغطّى الرأس وبلحية طويلة، ركبَ البحر في اتّجاه الأرجنتين. وبقي هناك ينتظر».

«ينتظر ماذا؟»

«سأقول لك هذا فيما بعد، إلى هنا تقف فرضيّتي».

«ولكن، من أجل أن تَنْمو الفرضية تحتاج إلى بعض الأدلّة».

«هي التي سأنتهي من جَمْعها في غُضون بضعة أيام، بعد الانتهاء من دراسة بعض الأرشيفات وصُحُف تلك الحقبة. غداً هو 25 من أبريل/نيسان، تاريخ

محتوم. سأذهبُ للقاء شخص يَعْرف الكثير عمّا حدث في تلك الأيّام. سأتمكّن من إثبات أنّ جُثمان ساحة لوريتو ليس جُثمان مُوسُّوليني».

«ولكن، أليس عليك أن تكتب المَقَال المتعلّق بالمواخير القديمة؟»

«المَوَاخير موضوع حفظته عن ظَهْر قَلْب، والمَقَال سأكتبه مساء الأحد في غضون ساعة. حسناً، أشكر لك حسن الإصغاء، كنتُ محتاجاً إلى شخص أتحدّث إليه».

تركني مرّةً أخرى أَدْفع الحساب، وحقيقة أنّه استحقّ ذلك. خرجنا، ونظر حوله ثمّ ذهب مُحاذياً الجُدران، كما لو كان خائفاً من أن يَتْبعه أحد.

10
الأحد 3 مايو/ أيار

كان برغّادوتشيو مجنوناً. ولكن عليه أن يقول لي أفضل ما في القصّة ويُستحسن أن أنتظر. قد تكون حكايته خياليّة، ولكنّها روائيّة. سنرى.

ولكنّني، سواء أكان مجنوناً أم لا، لم أنسَ الانطوائيّة المزعومة لمايا. وقلتُ لنفسي سأدرسُ جيّداً نفسيّتها، ولكنّني أعرف الآن أنّي أريد شيئاً آخر. في ذلك المساء صحبتها إلى بيتها ولم أقف عند الباب الكبير الخارجي بل اجتزتُ معها الفِناء. في مأوى صغير مُغطّى سيّارةُ فيات 500 حمراء اللون، في حالة رديئة. «إنّها الجاغوار التي أملكها»، قالت لي مايا، «يكاد عمرها يبلغ عشرين سنة ولكنها تسير، يكفي أن تُفحَصَ مرّة في السنة، وهنا يوجد ميكانيكي لا تزال لديه قِطَع غيار. يحتاج ترميمها جيّداً إلى كثير من النُّقود، ولكنها تصبح آنذاك قطعة أثريّة وتُساوي ثروة. أنا لا أستعملها إلّا للذهاب إلى بحيرة أورتا [Orta]. أنت لا تعرف ذلك، ولكنّني صاحبة إرث. تركت لي جدّتي داراً صغيرة هنالك فوق الهِضاب، أكبر قليلاً من بايتا*، لن يُدرّ بيعها ربحاً كبيراً، ولكنّني جهّزتها شيئاً فشيئاً، بها مدفأة، وتلفاز لا يزال بالأبيض والأسود، ومن النافذة ترى البحيرة وجزيرة سان جوليو [San Giulio]. إنّها ملاذي، *buen retiro*، أقضي فيها نهاية كلّ أسبوع. هل تُريد أن نذهب معاً هذا الأحد؟ نخرج في الصباح الباكر،

* baita: بيت صغير من الخشب في جِهات جبال الألب يُستعمل مسكناً للفلاحين وللرُّعاة لقضاء مُدّة الرَّعي مع القطعان. [م].

أُعدّ لك فطوراً لذيذاً عند مُنتصف النهار - أنا حاذقة في الطبخ - وعند العشاء نعود إلى ميلانو».

صباح الأحد، بينما كنّا في السيّارة، سألتْ مايا التي كانت تسوق بتعجّب: «هل رأيتَ؟ باتت الآن مُتداعية، ولكن قبل بضع سنوات كانت رائعة في لون الآجُرّ الأحمر».

«ماذا؟»

«كيف ماذا؟ دار مُرمِّم الطريق، لقد تجاوزناها منذ قليل إلى اليسار».

«ولكن، إذا كانت الدار إلى اليسار فأنتِ وَحدَكِ تستطيعين مُشاهدتها، أنا لا أرى إلّا ما يُوجد يميناً. في تابوت الرُّضَّع هذا، إذا أردتُ أن أرى ما إلى يسارِكِ، يجب أن أرتمي عليكِ وأن أمدّ رأسي خارج النافذة. يا إلٰهي، ألا تُدركين أنّه ليس بإمكاني رؤية تلك الدّار؟»

«ربّما»، أجابت، كما لو كنتُ غريب الأطوار.

عندئذٍ لزم أن أُعَرِّفها عَيْبها.

«لا عليك»، قالت لي ضاحكة، «الحال هو أنّي صرتُ أراكَ اللورد الذي يحميني، ولفَرطِ ثِقَتي بك أعتقد أنّك تُفكّر دائماً في ما أفكّر فيه أنا».

أثّر فيّ قولها. لم أكن أُريد حقيقة أن تعتقد أنّي أفكّر في ما تفكّر فيه هي. فهو شيء حميميّ جدّاً.

ولكن في الوقت نفسه أحسستُ بموجة من الحنان تغمرني. كنتُ أُحسّ بأنّ مايا عديمة القُدرة على الدفاع، بحيث تلجأ إلى عالمها الداخلي رافضة مُشاهدة ما يجري في عالم الآخرين، الذي كان دون شكّ قد جرحها. ومع ذلك، وَثِقَت بي، ولمّا كانت لا تقدر أن تدخل إلى عالمي أو لا تريد ذلك، كانت تتخيّل أنّ بإمكاني أنا أن أدخل إلى عالمها.

كنتُ أشعر بالحَرَج عندما دخلنا إلى تلك الدار الصغيرة. كانت جميلة، على

بساطتها. كُنّا في بداية شهر ماي/أيار وفوق الهضاب كان الطقس لا يزال بارداً. بدأت تُشعل النار في المدفأة وما إن تعالت ألسنة اللهب حتى استقامت ونظرت إليّ سعيدة، وقد احمرّ وجهها بفعل وهج النّار: «إنّي. . . سعيدة»، قالت، وسعادتها تلك هي التي أسرتني.

«أنا أيضاً. . . سعيد»، قلتُ لها. ثمّ أمسكتها من كتفَيْها، ودون أن أدري، قبّلتها وأحسستُ بها تلتصق بي، هزيلة مثل شحرور. ولكن برغّادوتشيو لم يكن مُصيباً: لم تكن خالية من النَّهدَيْن، وكنتُ أُحسّ بهما، صغيران لكنهما مُكتنزان. كما في «نشيد الأنشاد»: ثدياك كخشفتَيْ ظبية.

قالت مرّةً أخرى: «أنا سعيدة».

حاولت أن أُقاوم مرة أخيرة: «ولكن، هلْ تعرفين أنه كان يُمكن أن أكون أباً لكِ؟»

فأجابت: «يا له من مَحْرم رائع».

جلستْ على الفراش وبضربة من قدمَيْها طيّرت حذاءها. قد يكون برغّادوتشيو على حقّ، إنّها مجنونة، ولكن تلك الحركة أجبرتني على الاستسلام.

تركنا الفطور، وبقينا في مخدعها إلى المساء، ولم تخطُر على بالنا العودة إلى ميلانو. وقعتُ في الفخّ. بدا لي كأنّني ابن عشرين، أو ابن ثلاثين مثلها.

«مايا»، قلتُ لها صبيحة اليوم التالي في طريق العودة، «يجب أن نبقى في العمل مع سيماي إلى أن نجمع بعض المال، ثمّ أُخرجكِ من وَكْر السَّرطانات هذا. اصبري قليلاً، بعد ذلك سنرى، رُبّما نتحوّل إلى جُزر الجنوب».

«لا أظنّ ذلك، ولكنه حُلم جميل، يا توزيتالا*. أنا الآن، ما دُمتَ بجانبي، أتحمّل حتّى شخصاً مثل سيماي وأقبل تسلّم صفحة الأبراج».

* اسم لُقب به الكاتب ستيفنسن [Robert Louis Stevenson] ويعني راوي القصص. [م].

11
الجمعة 8 مايو/ أيار

في صباح الخامس من مايو بدا سيماي مُتهيّجاً. «عندي مُهمّة لأحدكم، لنقُلْ بلاتينو، الذي هو الآن مُتفرّغ. لعلّكم قرأتم أنّ أحد قضاة مدينة ريميني [Rimini] شرع في الأشهر الماضية - فالخبر إذن لا يزال جديداً في فبراير/شباط - يحقّق بشأن إدارة بعض الإقامات الخاصّة بالمُسنّين. وهو موضوع مُثير، بعد قضيّة إقامة تريفولتسيو للمُسنّين. لا تُوجد أيّ إقامة منها يملكها ناشرنا، ولكن لعلّكم تعرفون أنّه يملك إقامات أُخرى للمسنّين أيضاً على ساحل البحر الأدرياتيكي. وحاشا ثمّ حاشا أن يدسّ قاضي ريميني مرّة أنفه في شؤون الكومندتور. لذا سيُسّر ناشرنا إذا ما ألقينا ظلّاً من الشُّبهة على هذا القاضي المُتطفّل. افهموا جيّداً أنّه ليس من الضروري في وقتنا هذا أن نُثبِتَ العكس، يكفي نَزْع الشرعية عن صاحب التُّهمة. إذن، هذا اسم المَعْنيّ بالأمر ولقبه، وليذهبْ بلاتينو إلى ريميني، مع آلة تسجيل وأُخرى لالتقاط الصُّور. اقتفِ أثر هذا الخادم النزيه للدولة، لا أحد نزيهاً تماماً، ربّما لا يكون مُنحرفاً جنسيّاً تجاه الأطفال، ولعلّه لم يقتل جدّته، وربّما لم تدخل جيوبه أيّ رشوة، ولكن لعلّه فعل شيئاً غريباً. أو، اسمحوا لي بهذه العبارة، لنجعلْ غريباً ما يفعله كلّ يوم. بلاتينو، شغّل مُخيّلتك. مفهوم؟».

بعد ثلاثة أيّام عاد بلاتينو بأخبار مُشوّقة. صوّر القاضي وهو جالس على مَقْعد في حديقة عموميّة يُدخّن بعصبيّة السجائر الواحدة تلو الأُخرى وعشرات الأعقاب مُلقاة عند قدمَيْه. لا يَعْرف بلاتينو مدى أهمّيّة الخبر، ولكن سيماي قال

نعم، إنّ الرجل الذي ننتظر منه الاعتدال والموضوعيّة يُعطي انطباع أنّه مريض الأعصاب، ثمَّ إنّه زيادةً على ذلك يَظْهر بَمْظهر العاطل الذي بدلاً من العمل والكدّ في الوثائق ها هو ذا يُضيع وقته في الحدائق. وصوّره أيضاً بلاتينو من خلال نافذة زجاجيّة وهو يأكل في مطعم صيني مُستعملاً الأعواد.

«رائع»، هَتَف سيماي، «لا يرتاد قارئنا المطاعم الصينيّة، ويُحتمل أنّها لا وجودَ لها حيث يعيش هو، ولن يَخْطر بباله أبداً أن يأكل بالأعواد كالهمجيّ. لماذا يرتاد هذا القاضي الأوساط الصينيّة، سيتساءل القارئ؟ وإذا كان رجلَ قضاء جادّاً فلماذا لا يأكل شعيريّة أو سباغيتي كسائر الناس؟».

«وإذا كان هذا غير كافٍ»، أضاف بلاتينو، «فهو يرتدي أيضاً جوربَينِ لونهما، كيف يُمكن وصفه، زمرّديّ، أو أخضر فاتح، وحذاء كرة المضرب».

«*El purtava i scarp del tennis!*، وجوربَينِ زمرّديّينِ!» هتف سيماي ظافراً. «هذا السيّد غُندورٌ، هيبّي أو ابن الأزهار، كما كانوا يقولون سابقاً. لا يبقى لنا إلّا أن نتصوّره وهو يُدخّن الأفيون. ولكن هذا ما لا نقوله نحن، بل سيصل إليه القارئ وَحدَهُ. اشتغلْ على هذه العناصر يا بلاتينو، استخرجْ منها صورة قاتمة شيئاً ما، وها هو ذا رجلنا قد نال ما يستحقّ. مِنْ لا خَبَر صنعنا خَبَراً. ودون أن نلجأ إلى الكذب. أظنّ أنّ الكومندتور سيكون راضياً عنك. وعنّا جميعاً، بلا شكّ».

تدخّل لوتشيدي قائلاً: «إنّ الجريدة الجادّة يجب أن تكون لديها ملفّات».

«ماذا تُريد أن تقول؟» سأله سيماي.

«مثل تَرَاجم الأموات. لا يَصحّ أن تجد جريدةٌ نفسها في أزمة لورود خبر وفاة شخصيّة مهمّة في العاشرة ليلاً ولا يوجد من يستطيع خلال نصف ساعة كتابة ترجمة مَيْت مُناسبة. لذا ينبغي إعداد عشرات التراجم سلفاً، فحينَ يأتي خَبَر مفاجئ بوفاة شخص ما، تكون لديك ترجمة المَيْت جاهزة، ولا يبقى لك إلّا أن تُثبِت ساعة الوفاة».

فأجبته: «ولكنّنا لا نُعدّ أعدادنا الصِّفر يوماً بيوم. فإذا اشتغلنا على عدد،

يكفينا أن نرجع إلى جرائد ذلك اليوم وبهذا نحصل على السيرة التي نحتاج إليها».

«فضلاً عن أنّنا لا نُدرجها إلّا إذا تعلّق الأمر، لستُ أدري أنا، بوفاة وزير أو رجل إحدى الصناعات الكبرى»، علّق سيماي، «لا بوفاة شاعر من الدرجة الثانية لم يسمع به قُرّاؤنا قطّ. هذا يصلح لتأثيث الصفحات الثقافية التي تضع فيها الصحف الكبرى كلّ يوم أخباراً وتعليقات غير مفيدة».

«إنّي مُصِرٌّ»، قال لوتشيدي، «تراجم الأموات كانت مِثالاً، ولكن الملفّات شيء مُهمّ لتكون لدينا بشأن شخصيّة ما كلّ الأسرار التي تصلح لأنواع مُختلفة من المقالات. سيُعفينا ذلك من البحث في آخر لحظة».

«أفهم ذلك»، قال سيماي، «ولكنّه تَرَف جدير بجريدة كبيرة. فالملفّ يستلزم عدداً كبيراً من التحقيقات، وأنا لا أستطيع أن أُكلّف أحدكم تحرير ملفّات طَوَال اليوم».

«لا يلزم ذلك أبداً»، ردّ عليه لوتشيدي مُبتسماً، «فتكوين الملفّ، يكفي فيه تكليف طالب جامعي نعطيه أربعة دراهم للسير في مكاتب الدوريّات. هل تظنّ أنّ الملفّات، ولا أتحدّث عن ملفّات الجرائد بل حتى ملفّات المُخابرات، تشتمل على أخبار غير منشورة؟ حتى مصالح المُخابرات لا يُمكنها إضاعة الوقت. فالملفّ يشتمل على قِطع من أوراق مطبوعة، وقُصاصات من جرائد، تقول ما يعرفه الجميع. ولا يجهله إلّا الوزير أو زعيم المعارضة المَعْنيّ به، الذي ليس لديه أبداً الوقت الكافي لقِراءة الجرائد، ويحمل هذه المعلومات على أنّها أسرار الدولة. الملفّات تشتمل على أخبار مُتفرّقة يتعيّن على الشخص المُكلّف بالملفّ إعادة تركيبها بطريقة تجعله يستخرج منها شكوكاً وتلميحات. لنأخذْ قُصاصة تقول إنّ فُلاناً غُرّم منذ بضع سنوات خلت لإفراطه في السرعة، وأخرى تقول إنّه زار في الشهر الماضي مُخيّماً للكشافة، وثالثة تقول إنّه شوهد أمس في مَرْقص. يُمكن جيّداً الانطلاق من كلّ هذا للإيحاء بأن صاحبنا يُجازف بخرق قانون السير لارتياد أماكن لتعاطي الشُّرب، ولعلّه، وأقول لعلّه ولكنّه مُؤكّد، مُغرم بالأطفال. وهذا كافٍ لنَزْع

كلّ مصداقية عنه. مع قول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. زيادةً على أنّ قوّة الملفّ تَكْمن في أنّ لا نحتاج إلى إظهاره: يكفي أن نُشيع أنّه موجود وأنّه يشتمل على أخبار - ولنقُلْ ذلك - مُهمّة. وصاحبنا سيعرف أنك تملك أخباراً عنه، لا يعرف ما هي، ولكن لكلٍّ أسراره المدفونة، وها هو ذا في الفخّ: ما إنْ تَطْلب منه شيئاً حتّى تجده طَوْع أمرك».

«فكرة الملفّات هذه تُعجبني»، لاحظ سيماي. «يُهمّ ناشرنا أن تكون لديه أدوات تسمح له بالتحكّم في أشخاص لا يُحبّونه، أو لا يُحبّهم. كولونّا، من فضلك، أعدّ قائمة بأسماء أشخاص قد تكون لهم علاقة بناشرنا، وابحثْ عن طالب لا يَحْضر الدروس وفارغ الجَيْب واجعله يُعدّ لنا نحو عشرة ملفّات، وهي كافية في الوقت الحاضر. تبدو لي مُبادرة طيّبة، وبثمن بخَسْ».

«هكذا تسير الأمور في السياسة»، خَتَم لوتشيدي، بهيئة من يعرف كيف يجري العالم.

«يا آنسة فريزيا»، قال سيماي بضحكة استهزاء، «لا داعي إلى كلّ هذا الاستنكار. هل تظنّين أنّ مجلّاتك المُتخصّصة في غراميّات المشاهير ليست لديها ملفّاتها؟ ربّما أرسلوكِ لالتقاط صُوَر لمُمثّلَيْن، أو لمذيعة تلفزيّة مع لاعب لكرة القدم، قَبِلا، دون شك، أن يتعانقا ولكن، للتثبّت من أنّهما لن يعترضا على ذلك، كان مُديرك قد أَعْلمهما أنّه يملك ملفّاً، فيه أشياء أكثر حميميّة بكثير، ولمَ لا، كأن تكون الفتاة في سنوات سابقة وُجِدَتْ في دار للمواعيد».

نظر لوتشيدي إلى مايا، وبوصفه شخصاً لديه مشاعر، قرّر تغيير موضوع الحوار.

«جئتُ اليوم بأخبار أُخرى، مُستمدّة بلا شكّ من ملفّاتي الشخصيّة. في 5 من يونيو/حزيران عام 1990 ترك المركيز أليسّندرو جيريني إرثاً مُهمّاً لمؤسّسة جيريني، وهي هيئة كنسيّة تشرف على عملها الجمعيّة الساليزيانيّة*. وإلى يومنا

* الجمعية أو الرَّهبنة الساليزيانيّة هي رَهْبنة كاثوليكية أسّسها يوحنا بوسكو في تورينو سنة 1859. [م].

هذا لا أحد يعرف أين ذهب كلّ ذلك المال. يُشير بعضهم إلى أنّ الساليزيانيّين تسلّموه ولكنهم يتظاهرون بغير ذلك لأسباب تتعلّق بالضرائب. كان الأقرب للواقع أنّهم لم يتسلّموه بعد ويتهامس بعضهم أنّ التحويل يعتمد على وسيط غامض، رُبّما كان رجل قانون، اشترط عمولةً هي أقرب إلى الرشوة منها إلى شيء آخر. ولكن ثمّة إشاعات أُخرى تقول إنّ مَنْ مهّد لهذه العمليّة بعض الأوساط الداخليّة للساليزيانيّين، وإذن نجد أنفسنا أمام قسمة غير قانونيّة للمال. حتى الآن هي ليست سوى شائعات، ولكن بإمكاني أن أبحث عن شخص يُمدّني ببعض المعلومات».

«ابحثْ، ابحثْ»، قال سيماي، «ولكن لا تخلق مشكلات مع الساليزيانيّين ومع الفاتيكان. بإمكانك في أكثر تقديرٍ عَنْونة المقال بالآتي: **الساليزيانيّون ضحيّة احتيال**، مع علامة استفهام. وهكذا لن يكون لنا معهم صدامات».

«وإذا كان العُنوان هو **الساليزيانيّون في عين الإعصار؟**» تساءل كامبريا، بطريقة غير مُناسبة كعادته.

تدخّلتُ بصرامة: «يبدو لي أنّي كنتُ واضحاً. في عين الإعصار يعني عند قُرّائنا وسط المشكلات، ويُمكن أن يضع شخص نفسه وسط المشكلات بغلطة منه».

«بالفعل»، قال سيماي. «لنقتصرْ على إشاعة شُكوك عامّة. هنا يوجد من يصطاد في الماء العَكِر، وحتى إن لم نعرف بعد من هو، فسنُثير الخوف فيه دون شكّ. وهذا يكفينا. وبعد ذلك نجني الأرباح، أو بالأحرى يجني ناشرنا الأرباح، في الوقت المناسب. حسناً، لوتشيدي، واصلْ. كلّ الاحترام للساليزيانيّين، أرجوكم، ولكن ليَقْلقوا هم أيضاً ولو قليلاً، لن يضرّهم ذلك».

«المعذرة»، سألتْ مايا بحياء، «ولكن هل يُؤيّد ناشرنا أو هل سيُؤيد هذه السياسة، لنُسمِّها هكذا، سياسة الملفّات والتلميحات؟ لا أسأل إلّا لمعرفة ذلك».

فردّ سيماي مُغتاظاً: «نحن لسنا مُطالبين باستشارة الناشر في اختياراتنا الصحفيّة. لم يُحاول الكومندتور قطّ التأثير فيّ، بأيّ طريقة كانت. هيّا إلى العمل، إلى العمل».

كان لي في ذلك اليوم حِوار خاصّ جدّاً مع سيماي. لم أنسَ دون شكّ «المُذكّرات»، وكنتُ قد حرّرتُ مُسوَّدة لبعض فصول كتاب «**الغد : الأمس**». ذكرتُ فيها بالإجمال اجتماعات فريق التحرير التي وقعت، ولكن بقَلْب الأدوار، أي مُظهراً سيماي مُستعدّاً لمُواجهة كلّ تُهمة وإن نصحه مُعاونوه بالحذر. بل فكّرتُ حتّى في إضافة فصل ختامي يتّصل هاتفيّاً به رجل كنيسة رفيع المستوى مُقرّب من الساليزيانيّين (الكاردينال بارتوني؟) يدعوه فيه بصوت معسول إلى أن يُهمل القضيّة التعسة التي تتعلق بالمركيز جيريني. زيادةً على اتصالات هاتفية أُخرى، نبّهته بلُطف على أنّه يُفَضَّل عدم رمي الوحل على إقامة تريفولتسيو للمُسنّين. ولكن سيماي أجابهم مثل همفري بوغارت في ذلك الفيلم، إنّها الصحافة، يا جميلتي، ولن يُمكنكِ فعل أيّ شيء!

«رائع»، علّق سيماي بحماس، «أنت شريك نفيس، يا كولونّا، لنُواصلْ على هذا المِنوال».

لا شكّ في أنّي أحسستُ بالخِزْي أكثر من مايا التي كان عليها أن تهتمّ بالأبراج، ولكني الآن في مَحْفل الرقص وعليّ أن أرقص. حتى من أجل بِحار الجنوب، حيثما وُجدت. حتّى إن كانت في لُوانو* - فهي تكفي لفاشل مثلي.

* لُوانو Loano قرية سياحيّة في ليغوريا، غير بعيد عن ميلانو، فهي إذاً لا تُعدّ وجهة صعبة المنال مثل الوِجهات السياحيّة البعيدة. [م].

12
الاثنين 11 مايو/ أيار

في يوم الاثنين اللاحق دعانا سيماي : «كوستانتسا»، قال، «في مقالك عن المُومسات الجوّالات استعملتَ تعبيرات نابية مثل ماخور، شرموطة، مَصَّ، ناكَ، ووضعت على فم عاهرة عبارة فاحشة نحو: اذهبْ استمْنِ. . ».

فاحتجّ كوستانتسا : «ولكن هذا هو الواقع. الآن كلّهم يستعملون عبارات فاحشة حتى في التلفزيون وحتى السيّدات منهنّ يستعملن كلمات تشير إلى الدُّبر وإلى الأير».

«ما تفعله سيّدات المجتمع الراقي لا يُهمّنا. علينا نحن أن نُفكّر في القرّاء الذين يخشون رَذالة التعبير. استعمل التَّوْرية. ما رأيك يا كولونّا؟»

تدخّلتُ قائلاً: «بالإمكان دائماً قول عبارة بديلة للعبارة الفاحشة، فبدلاً من قول «اذهب . . .» نستعمل «اذهب للجحيم».

«تُرى ماذا سيفعل في الجحيم»، أضاف برغّادوتشيو بضحكة استهزاء.

فردّ سيماي : «لا يُهمنا ما سيفعل في الجحيم وليس علينا نحن أن نقوله».

ثمّ التفتنا إلى أشياء أُخرى. بعد ساعة من ذلك، انتهى الاجتماع، وإذا بمايا تأخذنا جانباً أنا وبرغّادوتشيو وتقول لنا : «أنا لم أعُدْ أريد التدخّل لأنّني في كلّ مرّة أُخطئ، ولكن من المُفيد أن ننشر دليلاً للكلمات البديلة».

«بدلاً من أيّ شيء؟» سألها برغّادوتشيو.

«بدلاً من الكلمات النابية التي كنّا نتحدّث عنها».

«ولكنّنا تحدّثنا عنها منذ ما يزيد على الساعة!» قال برغّادوتشيو وقد نفد صبره، ونظر إليّ كمن يقول: «أرأيت؟ إنّها دائماً هكذا».

«لا عليك»، قلتُ له بنبرات استرضائيّة، «ما مشكلة مواصلتها التفكير في ذلك... هيّا يا مايا اكشفي لنا عن خواطركِ السريّة».

«الخلاصة أنّ من المُستحسن إبدال كلمة «أير» كل مرة عندما يريد أحدهم التعبير عن السُّخط أو المُفاجأة أو الخيبة بأن يقول «يا للعُضو الخارجي في الجهاز التناسلي الذكريّ الذي له شكل الزائدة الأسطوانيّة المرشوقة في الجهة الأمامية للعجان، لقد سرقوا منّي محفظتي!»

«إنها مَعتوهة كحمار وحشي»، كان ردّ برغّادوتشيو. «يا كولونّا، هل لك أن تأتي معي إلى طاولتي، أُريد أن أُريك شيئاً».

اعتزلتُ أنا وبرغّادوتشيو، غامزاً بعيني إلى مايا، التي كانت مظاهر انطوائها تزيد سحري دائماً أكثر.

كانوا قد خرجوا كلّهم، وانتشرت العَتْمة. في ضوء مصباح طاولة صفَّ برغّادوتشيو مجموعة من النُّسخ.

«كولونّا»، قال لي، مُحيطاً أوراقه بذراعَيْه كما لو كان يريد حمايتها من أعين الآخرين، «انظرْ إلى هذه الوثائق التي وجدتها في الأرشيف. في اليوم التالي لعرض جثمان مُوسُوليني في ساحة لوريتو، نُقلت الجثّة إلى معهد الطبّ الشرعي بالجامعة، من أجل تشريحها، وهذا هو تقرير الطبيب، اقرأ: **معهد الطبّ الشرعي والتأمين لجامعة ميلانو المَلكيّة، الأستاذ ماريو كتّابيني، محضر تشريح، العدد 7241، أُجريَ تمّ يوم 30 من أبريل/ نيسان عام 1945 على جُثّة بينيتو مُوسُوليني، المُتوفى في 28 من أبريل/ نيسان عام 1945. الجُثّة مَعْروضة على طاولة التشريح خالية من الأثواب. الوزن 72 كلغ. والقامة لا يُمكن قِياسها إلاّ بالتقريب،**

فهي تبلغ 1,66 متر، وذلك للتغييرات الرضحيّة الكبيرة التي أصابت الرأس. الوجه مُشوّه بتأثير عدّة جُروح بأسلحةٍ نارية ورضوض تحول دون أن تُتَعَرَّف بثبات ملامح الوجه. لا يُمكن إجراء القياس الإناسي للرأس لأنّه مُشوّه بعدّة كسور في الكُتلة الجُمجميّة الوجهية. . . لنتقدَّم : الرأس مُشوّه بسبب تحطيم عظميّ كامل، مع انخفاض عميق لكامل منطقة العظم الجداري القذالي اليساري ورفس المنطقة المحجريّة من الجِهة نفسها، حيث إنّ المُقلة تبدو مُرتخية ومُجرّحة مع نزيف كامل للرطوبة الزجاجية؛ والغلاف الخَلَوي الشحمي، المكشوف في جانب كبير منه بفعل تمزيق عريض، وليس مُترشّحاً بالدم. في منطقة الجبين الوسطى وفي العظم الجداري الجبهي اليساري، هناك تمزُّقان كبيران مُستطيلان لجلد الرأس، كلّ منهما عرضه 6 سنتيمترات تقريباً، حواشيهما مُمزّقة تكشف عن القحف. في الجِهة القذالية، إلى يمين خطّ الوسط ثقبان مُتقاربان حواشيهما مُمزّقة، وغير مُنتظمة، يبلغ قُطرهما في الأكثر نحو سنتيمترين تظهر فوقهما مادّة مُخّيّة مهروسة، دون أثر لترشّح دمويّ. هل تتصوّر هذا؟ مادّة مُخّيّة مهروسة!».

كان برغّادوتشيو يكاد يَنْضح عَرَقاً، وكانت يداه ترتعشان، وعلى شفته السفلى قُطيْرات لعابٍ، كان عليه مظهر النّهِم وقد أثارت شهواته فطائر المخّ أو طبق مُمتلئ بالكرش، أو غولاش*. ثمّ واصل.

«على الرقبة، غير بعيد عن يمين الخطّ الأوسط، ثقب واسع مُمزّق يبلغ قُطره نحو 3 سنتيمترات، حواشيه مُمزّقة غير مُترشّحة بالدم. في المنطقة الصدغية اليمنى ثقبان مُتقاربان، شكلهما دائري، بحواشيهما تمزُّقات دقيقة غير مُترشّحة بالدم. في المنطقة الصدغية اليسرى ثقب واسع مُمزّق بحواشيه تمزيقات تظهر عليها مادّة مخيّة مهروسة. وثقب خروج عريض في صِوان الأذن اليسرى : وهذان الجُرحان أيضاً مِن جروح ما بعد الموت. عند جذر الأنف ثقب صغير مُمزّق به أجزاء عظميّة مُتفتّتة، مع انتضاح دمويّ طفيف. في الخدّ الأيمن مجموعة من ثلاثة ثقوب يتبعها مسرب مباشر في العمق نحو الوراء، مع انحراف خفيف نحو الوراء، وانحراف خفيف نحو

* Gulasch : طبق مَجَري بلحم العِجْل أو الخنزير مع مَرَق. [م].

الأعلى، مع جوانب قمعيّة الشكل، نحو الداخل، ليس بها انتضاح دمويّ. كسْر مُتفتّت في أعلى الحنك مع تمزُّقات للأجزاء الرّخوة والعظميّة للحنك وهي من جُروح ما بعد الموت. «أهمل ما يلي ذلك من دقائق تتعلّق ببيانات عن حالة الجُروح، ولا يُهمّنا كيف ضربوه وأين، يكفينا معرفة أنّهم أطلقوا عليه الرصاص». **القحْف به كسور مُتفتّتة مع تحديد بأجزاء مُتحرّكة ومقلوعة تمكّن من الولوج مباشرة إلى داخل القحف. سُمك عظم قَلَنْسوة الجُمجمة عادي. الأمّ الجافية تبدو مُرتخية مع تمزُّقات عريضة في نصفها الأمامي: لا أثر لتسرّب دمويّ فوق الجافية أو تحتها. لا يُمكن تحويل المخّ كلّياً لأنّ المُخَيخ، والجسر، والدماغ المُتوسّط وجزءاً سُفليّاً من فُصوص المخّ تبدو مَهْروسة، دون أثر مع ذلك لانتضاح دمويّ..»**.

كان يُكرّر في كلّ مرّة كلمة «مهروس» التي كان الأُستاذ كتّابيني يُكثر منها - وقد كان دون شكّ مُتأثّراً بفَرْط الهَرْس الذي تعرّضت له تلك الجُثّة - وكان يُكرّر ذلك بنوع من اللذّة، مُشدّداً أكثر ممّا ينبغي على الحروف. كان يُذكّرني بداريو فو* في مسرحيّة **سرّ مُضحك**، وهو يؤدّي دور الفلاّح الذي يتخيّل نفسه وهو يشبع من طعام يحلم به دائماً.

«لنتقدّمْ. **لم يبقَ كاملاً سوى مُعظم التقبّبات نصف الكُرويّة، والجسم الجاسئ وجُزء من جِذع الجُمجمة: لا تظهر شرايين جِذع الجُمجمة إلا جُزئيّاً وسط أجزاء مُتحرّكة من كسر مُتفتّت لكامل جِذع الجُمجمة التي لا تزال مُتصّلة جُزئيّاً بالكُتلة المُخيّة: والجُذوع الظاهرة، ومنها الشرايين الدماغية الأمامية، تبدو سليمة...**

وأنت تظنّ أنّ ثمّة طبيباً، كان آنذاك مُقتنعاً تماماً بأنّه أمام جُثّة الدّوتشي، بإمكانه أنّ يعرف لمن ذلك الكوم من اللحم والعظام المهروسة؟ وكيف كان له أن يعمل بتركيز في قاعة (هكذا كتبوا) كان يدخل ويخرج منها أُناس وصُحفيّون ومُقاومون وفُضوليّون مُتهيّجون؟ حيث تحدّث آخرون عن أمعاء متروكة على حافة طاولة، وعن مُمرّضَيْن كانا يلعبان كرة المضرب بتلك الأحشاء ويرمي أحدهما الآخر بقطعة كبد أو رئة؟»

---

* Dario Fo: أديب ومسرحي إيطالي نالَ جائزة نوبل في الأدب عام 1997. [م].

كان برغّادوتشيو وهو يتحدّث عن ذلك يبدُو قطّاً قفز خُفية على طاولة قصّاب - لو كان له شاربان لبَدَوا مُنتفشَيْن ومُرتعشَيْن. . .

«ولو واصلت القراءة لرأيت أنّه لا أثر لقَرْح في المعدة، ومع ذلك كان الجميع يعرف أنّ مُوسُّوليني كان يَشْكو هذا المرض، ولا يتحدّث التقرير أيضاً عن وجود الزُّهري، والحال أنّ الشائع كثيراً هو أنّ الراحل كان مُصاباً به بدرجة مُتقدّمة. لاحظْ إلى جانب ذلك أنّ جورج زكاري، الطبيب الألماني الذي عالج الدوتشي في سالو*، شهد بعد ذلك أنّ مريضه كان يشكو انخفاض الضغط، وفَقْر الدم، وانتفاخ الكبد، ومَغْص المعدة، وكسل الأمعاء والقبض الحادّ. وعلى عكس ذلك، أظهر التشريح أنّ كلّ شيء كان عاديّاً، الكبد ذو مظهر وحجم مُناسبَيْن، ومسالك المِرّة سليمة، والكُليتان والكَظْران غير مُصابين، والمجاري البوليّة والتناسليّة عادية. الملحوظة الختامية: **المخّ، بعد استئصال الأجزاء الباقية منه، احتُفظ به في محلول الفرمالين للفحوص اللاحقة التشريحية والنسيجيّة، وقطعة من قشرة الدماغ تُخُلِّيَ عنها بطلب من مكتب الصحّة التابع لقيادة الجيش الخامس (كلفين س. دراير [Calvin S. Drayer] للدكتور ونفريد هـ. أوفارهولسر [Winfred H. Overholser] من مستشفى الطب العقلي لسانتا إليزابيتّا بواشنطن)**. مرحباً وأُغلق».

كان يقرأ، ويلتذّ بكلّ سطر كما لو أنّ الجُثّة كانت أمامه، وهو يلمسها، أو كما لو كان في حانة موريجي، وبدلاً من أن يسيل لُعابه أمام عُرقوب خنزير بالكرَوْت*، كان يسيل فوق تلك المنطقة الصدغيّة حيث تبدو حَدَقة العين مُرتخية ومُمزّقة مع سيلان كامل للرطوبة الزُّجاجية، كما لو كان يتذوّق الجسر، والدماغ الوسيط، والجُزء السُّفلي للكُظور المُخّيّة، وكما لو كان قد هيّجه ذلك البُروز للمادّة المُخيّة التي تكاد تكون مائيّة.

* Salò في شمال إيطاليا، مقرّ الجمهوريّة التي أسّسها مُوسُّوليني في سبتمبر/أيلول عام 1943 بعد تحرير الألمان له من السجن. [م].

* كرنب مفروم يُملّح ويخمّر. [م].

كنتُ مُتقزّزاً ولكن لا يُمكنني أن أنفي أنّي كنتُ أيضاً مسحوراً به وبالجسم المُعذّب الذي كان يُثير حماسته، كما تُسحَرُ الشخصيّة في رواية من روايات القرن التاسع عشر بنظرة ثُعبان. ولوَضْع حدّ لحماسه علّقتُ قائلاً: «والتشريح، تُرى لأيّة جُثّة كان؟»

«مَضْبوط. أرأيتَ صحّة فرضيّتي: جُثّة مُوسُّوليني لم تكن لمُوسُّوليني، وعلى أيّ حال لا يُمكن أحداً أن يُقسم على أنّها جُثّته. الآن بإمكاني أن أطمئنّ بشأن ما حدث بين الـ25 والـ 30 من أبريل».

شعرتُ ذلك المساء حقيقة بالحاجة إلى التطهّر بجانب مايا. ولإبعاد صورتها عن صُورة هيئة التحرير، قرّرتُ أن أقول لها الحقيقة، أي إن جريدة **الغد** لن تَصْدر أبداً.

«هذا أفضل»، قالت مايا، «لن أغتمّ بعد الآن بشأن مُستقبلي. لنَصبِرْ بضعة أشهر، ولنربحْ تلك النقود، القليلة والمَلْعونة وعلى الفَوْر، ثمّ إلى بِحار الجنوب».

13
أواخر مايو/ أيار

باتَتْ حياتي تسير الآن على سِكّتَيْن. ففي أثناء النهار الحياة المُخزية في هيئة التحرير، وعند المساء في شِقّة مايا الصغيرة. أمّا يوما السبت والأحد ففي أورتا. وكانت الأُمسيات تُعوّض كلينا عن الأيام التي نقضيها معَ سيماي. عدلت مايا عن القيام بمُبادرات تُواجَه بالرفض، واقتصرت على عَرْضها عليّ، للتسلّي، أو للتعزّي.

ذات مساء أَرَتْني صحيفة صغيرة لإعلانات الزواج. «انظُر إليها، ما أجملها»، قالت لي، «غير أنّي أودّ نشرها مصحوبة بتأويلها».

«أَيْ؟»

«اسمع: **مرحباً، أنا سَمانتا، عمري 29 عاماً، حاصلة على شهادة، أعمل في البيت، أعيش مُنفصلة عن زوجي، ليس لي أبناء، أبحث عن رجل لطيف وأهمّ ما فيه أنّه أَلُوف وبَشُوش.** التأويل: أقترب من الثلاثين، وبعد أن هجرني زوجي، وبشهادة المُحاسبة التي نلتها بعد جهد كبير لم أجد عملاً، والآن أقضي يومي كلّه في البيت عاطلة (ليس لي حتّى صِغَار أعتني بهم)؛ أبحث عن رجل، ولو كان غير جميل، يكفي ألّا يضربني مثل ذلك التعس الذي تزوّجته. أو هذه: **كارولينا، 33 عاماً، عانس، مُجازة، مقاولة، ذات ذوق رفيع جداً، سمراء، نحيفة، واثقة النفس، مُغرمة بالرياضة، والسينما، والمسرح، والأسفار، والقراءة، والرقص، منفتحةٌ على اهتمامات أُخرى جديدة، بودّها أن تتعرّف رجلاً له جاذبيّة**

وشخصيّة، مُثقّفاً، وضعه المهنيّ جيّد، مُوظّفاً أو عسكريّاً، لا يزيد عمره على 60 عاماً، والهدف الزواج. التأويل: في 33 من عمري لم أجد شقيّاً يُريدني، ربّما لأنّني يابسة مثل أُنشوفة ولم أستطع أن أُصبح شقراء ولكنّي أُحاول عدم التفكير في ذلك؛ حصلت بصعوبة على الإجازة في الآداب، ولكنّني رُفضت دائماً في المُباريات، لذا أسّستُ مصنعاً صغيراً أشغّل فيه في السرِّ ثلاثة ألبانيّين وأصنع فيه جوارب للأسواق الصغيرة في القُرى؛ لستُ أدري ماذا يُعجبني، أُشاهد التلفاز قليلاً، أذهب إلى السينما أو إلى مسرح الخَوْرَنيّة أنا وصديقة، أقرأ الجرائد لأطّلع بالخُصوص على إعلانات الزواج، أودّ أن أرقص ولكن لا أجد أحداً يحملني إلى المَرْقص، ولكي أجد زوجاً أيَّ زوجٍ أنا مستعدّة لهواية أيّ شيء آخر، يكفي أن يكون لديه بعض المال لأترك الجوارب والألبانيّين؛ أقبله ولو كانَ شيخاً، صاحب مهنة حرة إن أمكن، ولكنّني مُستعدّة للرضا ولو بموظف بلدية أو دركي شرطة. وأُخرى: **باتريتسيا، 42 عاماً، عزباء، تاجرة، سمراء، طويلة القدّ، حلوة وحسّاسة، تودّ تعرّف رجل نزيه، طيّب وصادق، لا تُهمّ حالته المدنيّة، أمتزوّجٌ هو أم غير متزوّجٍ، يكفي أن يكون شهوانياً.** التأويل: تبّاً، ها أنا في سنّ الثانية والأربعين (لا تقولوا لي إنّ من اسمها باتريتسيا يجب أن تكون في الخمسين مثل كلّ من يحمل اسم باتريتسيا) ولم أنجح في التزوّج وأعيش على كشك لوازم خياطة تركته لي أمّي المسكينة، أنا لا أشتهي الطعام إلّا قليلاً ومريضة بالأعصاب أصلاً؛ هل مِن رجل يحملني إلى فراشه، لا يهمّ أن يكون مُتزوّجاً، يكفي أن تكون لديه الشهوة الجنسية المُناسبة؟ وهذا أيضاً: **لا يزال لديّ أمل العثور على امرأة قادرة على الحب حقاً، إنّي أعزب أعمل موظفاً في مصرف، عمري 29 عاماً، أظنّ أن مظهري جميل وطبعي حيويّ جدّاً، أبحثُ عن فتاة جميلة وجادّة، مُثقّفة وتعرف كيف تُشركني في قصّة حبّ رائعة.** التأويل: لم أعرف قطّ كيف أتصرّف مع الفتيات، والقليلات اللاتي عرفْتُهُنَّ غبيّات لا يُرْدن إلّا الزواج، تصوّروا كيف يُمكنني براتبي الحقير أن أُنفِق عليها هي أيضاً؛ ويقولون إنّ طبعي حادّ جدّاً لأنّني في كلّ مرّة أطردهنّ؛ إذن، لستُ مُقزّزاً، هل هناك مَن تقول في الأقلّ: «هيّا تفضّل»، وتُوافق على بعض المضاجعات الجيدة دون تكلّف؟

وجدتُ أيضاً إعلاناً لا علاقة له بالزواج: **جمعيّة مسرحية تبحث عن مُمثّلين، وممثّلين ثانويّين، ومُطربين، ومُخرِج، وعاملة تجميل، وخَيّاطة، للفصل القادم.** والجُمهور، تُرى هل سيتكفَّلون أيضاً به؟

كانت مايا مَهْدورة حقاً في جريدة **الغد**: «لا تُريدين بحقّ أن ينشر سيماي أشياء مثل هذه؟ رُبّما الإعلانات، لا تأويلاتك!»

«أعرف، أعرف ذلك، ولكن ليس ممنوعاً أن يحلم المرء».

ثُمّ، قبل الاستسلام للنوم، قالت لي: «أنت الذي تعرف كلّ شيء، هل تعرفُ لماذا يقول الإيطاليّون «أضاع تريبِزوندا» لمن أضاع اتجاه الشمال و «ضرب الصُّنوج» لمن سكر؟»

«لا، لا أعرف، هذه أسئلة تُلقينها في مُنتصف الليل؟»

«أنا، على العكس، أعرف ذلك، أو بالأحرى قرأتها في الأيام الماضية. هناك تفسيران. الأوّل، لمّا كان تريبِزوندا أكبر مرفإٍ في البحر الأسود، كانت إضاعة وجهة تريبِزوندا تعني للتجّار ضياع المال المُستثمَر في الرحلة. الثاني، وهو يبدُو لي أكثر مقبوليّةً، هو أنّ تريبِزوندا يُمثّل نُقطة مرجعيّة مرئيّة للسُّفن، بإضاعتها يضيع التوجّه، أو البوصلة، أو الشمال. أمّا «ضرب الصُّنوج»، الذي يُستعمل عادة لحالة سُكر، فالمعجم الاشتقاقي يقول لنا إنّها في الأصل عبارة تعني أن يكون المرء مرحاً جدّاً، وكان قد استعملها أريتينو* واستمدّها من المزمور 40 [150]* *Laudate eum in cymbalis bene sonantibus* [سبّحوه بصنوج الرَّنين]».

«بين أيدي مَن وقعتُ. كيف انتهى بكِ الأمر بما لديكِ من حبّ اطّلاع إلى العمل سنوات في متابعة غراميّات الناس؟»

---

* بيترو أريتينو [Pietro Aretino] (1492–1556) شاعر وكاتب إيطالي من أبرز الشخصيّات الأدبية في عصر النهضة. [م].
* المزمور 150 لا 40 كما جاء في النصّ الأصلي. [م].

«من أجل النُّقود، النُّقود الملعونة. يحدث ذلك عندما نكون من الخاسرين». ثمّ التصقتْ بي. «ولكنّي الآن لستُ خاسرة كما كنتُ في الماضي لأنّني ربحتُك في اليانصيب».

ماذا يُمكن القول لمخبولة كهذه، غير العودة مرّةً أخرى إلى صراع الحبّ؟ وفي أثناء مُصارعتها كدتُ أحسّ بأنيّ منتصرٌ.

في مساء الـ 23 لم نُشاهد التلفاز ولم نقرأ في الصحف خبر اغتيال فالكوني* إلّا في اليوم التالي. أصابنا الهلع، وكان الآخرون أيضاً مُرتاعين شيئاً ما، عند التقائنا في الصباح التالي، في مكتب التحرير.

سأل كوستانتسا سيماي هل علينا أن نُحرّر عدداً عن تلك القضيّة. «لنفكّرْ في الأمر»، قال سيماي ببعض التحفّظ. «إذا تحدّثنا عن مقتل فالكوني، كان علينا أن نتحدّث عن المافيا، وأن نَعيب تَهَاون قوّات الأمن، وأشياء من هذا القَبيل. بضربة واحدة سنُصبح أعداء الشرطة، والحرس و«كوزا نوسترا»*. لستُ أدري هل سيُعجب هذا الكومندتور. عندما نصنع جريدة حقيقيّة، يجب علينا دون شكّ إذا مات قاضٍ في انفجار الحديث عنه، ولو تحدّثنا عنه فوراً لجازَفْنا بفرضيّات قد تُكذَّب في الأيام اللاحقة. وهي مُجازفة يُمكن أن تُقْدِمَ عليها جريدةٌ حقيقيّة، ولكن لِمَ نحن؟ في العادة، أكثر الحلول حذَراً، حتّى للصحيفة الحقيقيّة، هو الالتجاء إلى ما هو عاطفي، كإجراء حوار مع الأقارب. لو انتبهتم قليلاً لرأيتم أنّ قنوات التلفاز أيضاً تفعل ذلك، عندما يدقّون جرس باب منزل الأمّ التي أذابوا ابنها في العاشرة من عمره في الأسيد: سيّدتي، ماذا كان شعوركِ عندما علمتِ بموت ابنك؟ تبتلّ عيون الناس بالدموع ويذهب الجميع راضين. هناك كلمة ألمانية رائعة، *Schadenfreude*، تعني الاستمتاع بمآسي الغير. هذه هي العاطفة

---

* جيوفاني فالكوني [Giovanni Falcone] (1939–1992) قاضٍ إيطالي معروف بكفاحه للمافيا الصقليّة. اغتيل في انفجار قنبلة تزن 350 كلغ من الديناميت هو وزوجته وثلاثة من حرّاسه. [م].

* Cosa Nostra: اسم آخر يُطلق على المافيا الصقليّة. [م].

التي ينبغي للجريدة احترامها وتعزيزها. ولكن في الوقت الحالي لسنا مُضطرّين إلى الاهتمام بهذه التعاسات، ولنترك السُّخط لجرائد اليسار، فهذا اختصاصها. وعلى أيّ حالٍ، ليس هذا بالخبر المُثير جدّاً. سبق أن اغتيل قُضاة وسيُغتال آخرون. ستكون لدينا مُناسبات أُخرى جيّدة. لنتركْ ذلك الآن».

بعد القضاء على فالكوني مرّة أخرى، صرفنا اهتمامنا إلى أشياء أكثر جديّة.

بعد ذلك اقترب مني برغّادوتشيو ولكزني بمرفقه: «أرأيت؟ أظنّك فهمتَ أنّ هذه الحادثة أيضاً تُؤكّد قصّتي».

«ولكن ما علاقة هذا بذاك؟»

«ما زلتُ لا أدري، ولكن لها علاقة بالضرورة. كلّ شيء له دائماً علاقة بكلّ شيء، إذا عرف المرء كيف يقرأ فنجان القهوة. أمْهِلْني قليلاً فقط».

14
الأربعاء 27 مايو/ أيار

ذات صباح استيقظت مايا، وقالت لي: «ولكنّه لا يُعجبني إلّا قليلاً».

كنتُ قد اعتدتُ لعبة وحداتها المعنويّة. «تتحدّثين عن برغّادوتشيو؟»

«بلا شكّ، ومن غيره؟»، ثمّ قالت، كأنّها راجعت نفسها: «ولكن، كيف فهمتَ أنت ذلك؟»

«يا جميلتي، كما يقول سيماي، نحن نعرف ستّة أشخاص، فكّرتُ في من كان فظّاً معكِ أكثر من غيره، والنتيجة هي برغّادوتشيو».

«ولكن، كان بإمكاني أن أُفكّر، لستُ أدري، في رئيس الجمهورية كوسّيغا».

«وعلى عَكْس ذلك، كنتِ تفكّرين في برغّادوتشيو. باختصار، نجحتُ هذه المرّة في أن أُجسّد أفكارك، لماذا تُريدين تعقيد الأشياء؟»

«أرأيتَ كيف صِرتَ تفكّر في ما أُفكّر فيه أنا؟»

يا للّعنة، إنّها على حقّ.

«اللوطيّون»، قال سيماي ذلك الصباح خلال الاجتماع اليومي. «اللوطيّون يُمثّلون دائماً موضوعاً يجذب القرّاء».

«لم نَعُدْ نقول الآن لوطيّون»، جازفتْ مايا. «نقول مثليّون gay. أليس كذلك؟»

«أعرف، أعرف ذلك يا جميلتي»، ردّ سيماي مُتضايقاً، «ولكنَّ قُرّاءنا

يقولون دائماً «لوطيّون»، أو في الأقلّ هكذا يُفكّرون لأنّ هذه الكلمة تُثير اشمئزازهم. أعرف أنّه لا يُقال اليوم زنجي بل يُقال أسود، ولا يُقال أعمى بل فاقد البصر. ولكن الزنجي يبقى زنجيّاً وفاقد البصر لا يرى شيئاً، مسكين هو. أنا لا أعيب شيئاً على اللوطيّين، مثل الزنوج، أقبلهم جيّداً ما داموا في بُلدانهم».

«ولكن لماذا نُعنى إذن بالمثليّين إذا كان قُرّاؤنا يشمئزّون منهم؟»

«لستُ أفكّر في اللوطيّين بصفة عامّة، يا جميلتي، إنّي أُؤمن بالحريّة، كلٌّ وشأنه. ولكنّهم موجودون في السياسة، وفي البرلمان، وحتى في الحكومة. يظنّ العامّة أنّ اللوطيّين هم الكُتّاب وراقصو الباليه فقط، لكنّ بعضهم يحكموننا دون أن نفطن إليهم. إنّهم يُكوّنون مافيا ويتعاونون فيما بينهم. وهذا يُمكن أن يجرح مشاعر قرّائنا».

أصرّت مايا قائلة: «ولكن الأشياء بدأت تتغيّر، رُبّما يستطيع المثليّ في غضون عشر سنوات أن يقول إنّه مِثْليّ دون أن يأبه لذلك أحد».

«ليحدثْ بعد عشر سنوات ما يحدث، نعرف كلّنا أنّ العادات آخذةٌ في الانحلال. ولكن قارئنا حسّاس تجاه الموضوع حاليّاً. لوتشيدي، أنت الذي لديك عدّة مصادر مُهمّة، ماذا يُمكنك أن تقول لنا عن اللوطيّين في السياسة - ولكن حذارِ، دون ذكر أسماء، لا نريد المُثول أمام المحكمة، يكفينا تحريك الفكرة، أو الشبح، إحداث رعشة، حسّ بالنُّفور...».

قال لوتشيدي: «إن شئتَ فبإمكاني أن أمِدَّك بعدد من الأسماء. وإذا تعلّق الأمر على العكس بإحداث رعشة، مثلما تقول، فبإمكاني أن أحدّثك عمّا يُشاع عن مكتبة لبيع الكُتب في روما، يلتقي فيها المثليّون من عِلْيَة القوم، دون أن يفطن إليهم أحد، لأنّ المكان يرتاده أُناس عاديّون جدّاً. وهم يرون أنّها مكان يُمكن أن يمدّوك فيه بقرطاس كوكايين، فأنت تأخذ كتاباً، ثمّ تحمله إلى صندوق الدفع، فيأخذه منك عامل الصندوق ليُغلّفه ويحشر فيه القرطاس. هناك حكاية عن... لا علينا، لنتركْ هذا الأمر، شخص كان فيما مضى وزيراً أيضاً، مثليّ ومُدمن على الكوكا. كلّهم يعرفون ذلك، أو بالأحرى يعرف ذلك أكابر القوم، لا

يذهب إلى ذلك المكان المُتخنّث البروليتاري، أو الراقص، الذي يلفتُ الأنظار بحركاته الأُنثويّة».

«جيّد أن تتحدّث عن الشائعات، ولكن مع بعض التفاصيل المُثيرة، كما لو كان ذلك لإضفاء لون ما. ولكن هناك طريقة للإيحاء ببعض الأسماء. يُمكن مثلاً أن تقول إنّ المكان مُحترَم جدّاً لأنّه قبلة أشخاص لا غُبار عليهم، وعندها تذكر سبعة أسماء أو ثمانية لكُتّاب وصُحفيّين ومُستشارين لا تشوبهم شائبة. إلّا أنّك تحشر بين تلك الأسماء اسماً أو اسمَيْن لشخصَيْن هما بحقّ لوطيّان. لا يُمكن القول إنّنا نفتري، لأنّ تلك الأسماء ذُكرت بالذات أمثلةً لأشخاص هم محلّ ثقة. بل افعَلْ أكثر من ذلك، ضَعْ بينهم شخصاً معروفاً بمعاشرة النساء من الصباح إلى المساء، بل نعرف حتى اسم عشيقته. نكون هكذا قد بعثنا برسالة مُشفّرة، والحليم تكفيه الإشارة، وسيفهم أحدهم أن لو أردنا لكتبنا أكثر من ذلك بكثير».

كانت مايا مُرتاعة، وكان ذلك واضحاً، ولكنّ الآخرين كانوا مُثارين تجاه الفكرة، وبحَسَب ما يعرفون عن لوتشيدي، كانوا ينتظرون منه مقالاً جميلاً ومسموماً.

خرجت مايا قبل الآخرين، مُرسلة إليّ إشارة تعني الاعتذار، كأنها تقول: هذا المساء أُريد الانفراد بنفسي، اذهبْ للنوم مع قرص ستيلنوكس. وهكذا سقطت فريسة بين أيدي برغّادوتشيو الذي واصل سَرْد حكاياته حين كنّا نسير إلى أن وصلنا، ويا للمصادفة، إلى شارع بانييرا، وكأنّ عتمة المكان كانت تلائم طبيعة حكاياته المأتميّة.

«استمع إليّ، اعترضتني مجموعة من الأحداث قد تُناقض فرضيّتي، ولكن سترى أنّها ليست كذلك. إذاً، مُوسُّوليني الذي تحوّل إلى كوم لحم مهروس جرى ترقيعه كيفما أمكن ودُفن مع كلاريتّا وبقيّة الرفاق في مقبرة موزوكّو، ولكن في قبر بغير اسم، بحيث لا يُصبح من بعدُ قِبلة بعض الحجيج الذين يحنّون إلى الماضي. ولعلّ هذا كان يلائم رغبة أُولئك الذين خطّطوا لفرار مُوسُّوليني الحقيقي، أي أن يُنسى تقريباً حادث موته. أكيد أنّه لم يكن بالإمكان خَلْق

أسطورة بَربَروسا المختفي، التي يُمكن أن تصلح لهتلر الذي لا يعرف أحد مصير جُثمانه ولا حقيقة موته. ولكن، حتّى إذا صَدَّقنا أنّ مُوسُّوليني قد مات (وأوساط المُقاومة تواصل الاحتفال بساحة لوريتو بوصفها لحظة سحريّة من لحظات التحرير)، ينبغي أن نكون مُستعدّين لفكرة أنّ الميّت سيظهر يوماً مرّةً أخرى - كما ظهر من قبل وأكثر من قبل، كما تقول الأغنية*. ولا يُمكنك أن تُعيد إلى الحياة جثّة مهروسة ومُرقّعة. ولكن عندئذٍ يدخل إلى المشهد ذلك المشاكس ليتشيزي».

«يبدو لي أنّي أتذكّره، هو ذلك الذي سرق جُثمان الدوتشي».

«بالفعل. شابّ غرّ أبله سنّه 26 سنة، آخر خرطوشة من سالو، كلّه مثاليّة ولا يملك ذرّة عقل. كان يريد إقامة تأبين فخم لمعبوده، أو في الأقلّ إشاعة فضيحة تكون بمقام الدعاية للفاشية الجديدة الناشئة؛ كوّن مجموعة من المعتوهين أمثاله، وفي ليلة من ليالي أبريل/نيسان عام 1946، دخلوا إلى المقبرة. كان الحرّاس الليليّون القليلون غارقين في النوم، ويبدو أنّه ذهب مباشرة إلى القبر ومن الواضح أنه كانت لديه معلومات من الداخل، واستخرج الجُثمان وقد صار في حالة أتعس من ذي قبل - كان قد مرّ عام، وأتركك تتصوّر ماذا وجد - وبكلّ أناة وبكلّ طُمأنينة حمله كيفما كان، فاقداً منه هنا جزءاً من مادّة عضويّة وهناك ما قد يبلغ أصبعَيْن. وهذا يبيّن لك كم كانوا فوضويّين».

كان انطباعي أنّ برغّادوتشيو كان سيلتذّ لو أمكنه أن يُشارك في ذلك النقل المأتمي: صرتُ الآن أنتظر كلّ ما فيه التذاذٌ له بالموتى. تركته يُواصل قصّته.

«كانت مُفاجأة، عنواناتٌ بالحرف الكبير في الجرائد، الشرطة والدرك حائرون يبحثون هنا وهناك طوال مئة يوم دون العُثور على أثر لتلك الجُثّة، مع أنّ الرائحة النَّتنة التي كانت تفوح منها كان ينبغي أن تترك أثراً يُشَمّ على طول الطريق الذي قطعوه. على أيّ حالٍ، بعد أيّام قليلة على خطف الجُثمان ألقوا

* أغنية لفريق ABBA: As good as new.

القبض على أوّل رفيق منهم، شخص يُدعى رانا، ثمّ الواحد تلو الآخر من شُركائهم، إلى أن قبضوا على ليتشيزي نفسه في آخر يوليو/تموز. واكتُشف أنّ الجثّة أُخفيَت بعض الوقت في منزل رانا بفالتيلّينا، وفي ماي/أيار سُلّمت إلى الأب زوكّا، رئيس دير فرنشسكاني من دير سانتانجلو بميلانو، الذي دفن الجثّة في حائط الجناح الثالث من كنيسته. ومسألة الأب زوكّا وشريكه الأب باريني لها قصّة أُخرى: فهناك من رأى فيهما كاهنَيْن لميلانو المُنافقة والرجعيّة، بل كانا يُتاجران بالنُّقود المُزيّفة وبالمُخدّرات في الأوساط الفاشيّة الجديدة، وهناك من كان يرى فيهما راهبَيْن طيّبَي القلب لا يقدران على التخلّي عن واجب كلّ مسيحي، *parce sepulto*، أي الغفران للميّت، ولكن حتّى هذه الحادثة لا تُهمّني كثيراً. ما يُهمّني هو أنّ الحكومة الإيطالية سارعت، بمُوافقة الكاردينال شوستر، إلى تأبين الجثّة في مُصلّى بالدير الكابوتشيني في تشيرّو ماجيوري، وتركتها هنالك من عام 1946 إلى عام 1957، أحد عشر عاماً، دون أن يخرج السرّ إلى العلن. هل تدرك أنّ هذه هي النقطة الحاسمة في المسألة كلّها؟ ذلك الغبيّ ليتشيزي جازف باستخراج جُثّة الشبيه، ولا أظنّ أنّها في تلك الحالة يُمكن التثبّت منها حقيقةً، على أنّ الأفضل لمن كان يحرّك خيوط حادثة مُوسُّوليني أن يُسدل الصّمت على كلّ شيء، وأن يُذكر الأمر أقلّ ما يُمكن. ولكن، بينما كان لوتشيزي (بعد قضاء واحد وعشرين شهراً في السجن) يسلك مساراً برلمانيّاً ناجحاً، سمح رئيس مجلس الوزراء الجديد أدوني زولي، الذي تولّى الحكم بالأصوات التي حصل عليها أيضاً من الفاشيّين الجدد، سمح بتسليم الجُثّة إلى الأسرة، وأن تُدفن في مسقط رأسه بريدابيو، في نوع من أنواع المزار حيث يجتمع إلى اليوم المشتاقون القدامى والمُتعصّبون الجدد، بالأقمصة السُّود والتحية الرومانية. أنا أظنّ أن زولي لا علم له بوجود مُوسُّوليني الحقيقي، فلم يكن يُضايقه إذن تقديس الشبيه. لستُ أدري، ربما سارت الأمور بطريقة مُختلفة، ولكن مسألة الشبيه ربّما لا تكون بالفعل بين أيدي الفاشيّين الجدد، بل في أيدٍ أُخرى، أعظم قُوّة بكثير».

«أطلب المعذرة، ولكن ما الدّور الذي كان لأُسرة مُوسُّوليني؟ إمّا أن

يكونوا لا يعرفون أن مُوسُّوليني لا يزال حيّاً، وهذا يبدُو لي مستحيلاً، وإمّا أن يكونوا قد قبلوا أن يدفنوا في مَدفَن أُسرتهم جُثّة مُزيّفة».

«الحال هو أنّني لم أفهم بعد وضع الأُسرة. ما أظنّه هو أنهم كانوا يعرفون أنّ زوجهم وأباهم موجود حيٌّ في مكان ما. إن كان يختفي في الفاتيكان، فمن الصعب رُؤيته، إذ لا يدخل أحد من آل مُوسُّوليني إلى الفاتيكان دون أن يفطن إلى ذلك أحد. فرضيّة الأرجنتين أفضل. الأدلّة على ذلك؟ لنأخذْ مثلاً فيتّوريو مُوسُّوليني. نجا من القتل، عَمِل في إخراج الأفلام وألّف موضوعاتٍ للسينما وذلك مدّةً طويلة، في مرحلة ما بعد الحرب، الآن في الأرجنتين. في الأرجنتين، هل فهمت؟ ليكون قريباً من أبيه؟ لا يُمكننا الجزم بذلك، ولكن لماذا في الأرجنتين بالذات؟ وهناك أيضاً صُوَر لرومانو مُوسُّوليني وأشخاص آخرين في مطار تشامبينو يُحيّون فيتّوريو مُوسُّوليني عند سفره إلى بوينس آيرس. لمَ كلّ هذه الأهميّة لرحلة شقيق سبق له أن سافر قبل الحرب إلى الولايات المتّحدة الأميركية؟ ورومانو؟ بعد الحرب أصبح عازف بيانو جاز ذائع الصيت، يُقيم حفلات حتى في الخارج، لا يُعنى التاريخ دون شكّ برحلات رومانو الفنيّة، ولكن ألا يُمكن أن يكون قد مرّ هو أيضاً بالأرجنتين؟ والسيّدة راكيلي؟ هي حرّة طليقة، ولا أحد يمنعها من القيام بسفرة، ولعلّها كي لا تلفت الأنظار مرّت بباريس أو بجنيف ومن هناك إلى بوينس آيرس. من يدري؟ حين وقع ما وقع بين ليتشيزي وزولي كما رأينا، وأخرجوا بقايا الجُثّة تلك، لم يمكنها أن تقول للغادي والرائح إنّ الجُثّة لشخص آخر، تقبل على مَضَض وتضعها عندها، وهذا يصلح لإذكاء الشوق إلى الفاشيّة عند من كان يشعر بالحنين إلى الماضي، في انتظار عودة الدّوتشي الحقيقي. على أيّ حالٍ، قصّة الأُسرة لا تُهمّني، فهنا تبدأ المرحلة الثانية من تحقيقي».

«ماذا حدث؟»

«فات وقتُ العشاء، وتنقصني بعض القِطَع لأُكمل فُسيفسائي. سنعود إلى الحديث عن ذلك بعد حينٍ».

لم أكن أعلم أكانَ برغّادوتشيو راويةَ مُسلسلات ماهراً، يَقُصُّ عليَّ في كلّ مرّة حلقة من حلقات روايته، مع العبارة المألوفة «يتبع»، أم كان بحقّ لا يزال يُعيد تركيب حكايته قطعة بعد قطعة. على أيّ حال، لم يكن من المُجدي أن أُلحّ أكثر، لأنّ ذلك التجوال لبقايا مُتعفّنة كان قد أحظَث فيَّ رغبة في التقيّؤ. عُدت إلى البيت وتناولتُ أنا أيضاً قرصَ ستيلنوكس.

15
الخميس 28 مايو/ أيار

«ينبغي التفكير في كتابة مقال أساسيّ عن النزاهة في العدد 0/ 2»، قال سيماي ذلك الصباح. «لا أحد يجهل الآن أنّ الأحزاب فيها كثير من الفساد وأنّ أفرادها جميعاً يتلقّون الرِّشا، ويجب أن نجعلهم يفهمون أنّ لو أردنا لأمكننا أن نُثير حملة ضدّ الأحزاب. ينبغي التفكير في حزب النُّزهاء، حزب فيه مُواطنون قادرون على التكلّم على سياسة مختلفة».

«لنتحرّكْ بحذر»، قلتُ له، «ألم تكن هذه مواقف «حزب الإنسان العادي»*؟»

فردّ سيماي قائلاً: «الإنسان العادي كان حزب الديمقراطية المسيحيّة التي كانت آنذاك قويّة وماكرة قد خَصاهُ وامتصَّهُ. على عكس الديمقراطية المسيحية التي هي الآن تعرج وقد انقضت حقبتها البُطولية، ويحكمها جماعة من الأغبياء. علاوة على أنّ قُرّاءنا لا يعرفون ماذا كان «الإنسان العادي»، فهو شيء يعود إلى خمس وأربعين سنة مضت، وقُرّاؤنا لا يتذكّرون حتّى ما وقع قبل عشر سنوات. في جريدة يوميّة مُهمّة، لِمناسبة الاحتفال بالمُقاومة، شاهدتُ صورتَيْن فوتوغرافيّتَيْن، إحداهما فيها شاحنة مملوءة بالمُقاومين والأُخرى تُمثّل مجموعة من الرجال بِبزّة فاشيّة من قماش الصوف الخشن الأسود وهم يُؤدّون التحيّة

---

* L'Uomo Qualunque: الإنسان العادي، نشأ في البداية حركةً ثمّ صار حزباً سياسيّاً أُسِّسَ سنة 1944 على يد الصُحفي غوليالمو جيانّيني.

الرومانية يُقال لهم: «الكتائب»: مجموعات الصدم المسلحة، كيف؟ كنا في عشرينيّات القرن العشرين، ولم يكونوا آنذاك يسيرون بالبزّة التي من الصوف الأسود! ما نراه على الصورة هو الميليشيا الفاشية، بين سنة 1930 وبداية الأربعينيات، وشاهد من جيلي يمكن أن يعرفهم بسهولة. لا أطلب أن يعمل بهيئات التحرير فقط شهود في مثل سنّي، ولكنّني أقدر على التمييز جيّداً بين أزياء مُشاة الجنرال لامرمورا وأزياء جنود الجنرال بافا بيكّاريس، وإن كنتُ قد وُلدتُ بعد أن انقرضوا كلّهم منذ سنوات طويلة. إذا كانت ذاكرة زُملائنا ضعيفة، فلنتصوّرْ: هل يتذكّر قُرّاؤنا «الإنسان العادي»؟ ولكن لنعد الآن إلى فكرتي: حزب جديد من النُّزهاء قد يُحرج كثيراً من الأشخاص».

«**رابطة النُّزهاء**»، قالت مايا مُبتسمة، «كان عنوان رواية قديمة لجيوفاني موسكا، تعود إلى ما قبل الحرب، ولكن قراءتها مجدداً مسلّيةٌ. يُحكى فيها عن **اتّحاد مقدّس** بين أناس شُرفاء كان عليهم أن يندسّوا بين اللئام لفَضْحهم، ولتحويلهم إلى النزاهة، إن أمكن لكن كان على أعضاء الرابطة أن يتصرّفوا بطريقة غير نزيهة من أجل أن يُقبَلوا بين اللّئام. أتركَكم تتصوّرون الباقي، أصبحت رابطة النُّزهاء شيئاً فشيئاً رابطة لئام».

«هذا أدب، يا جميلتي»، ردّ عليها سيماي، «وموسكا هذا لا أحد يعرف من هو. أنتِ تقرئين كثيراً. لنتركْ جانباً صاحبكِ موسكا، ولكن إنْ كان الأمر يُثير اشمئزازكِ فليس عليكِ أنتِ أن تُعْنَي بالموضوع. دكتور كولونّا، هل لك أن تُساعدني على كتابة مقال أساسيّ قويّ جدّاً. ونزيه.

«يُمكن ذلك»، قلتُ له. «الدعوة إلى النزاهة بضاعة تُباع دائماً جيّداً».

«رابطة النُّزهاء اللّئام»، قال برغّادوتشيو بضحكة استهزاء وهو ينظر إلى مايا. حقّاً، لم يُخلق الاثنان ليكونا مُتّفقَيْن. وكنتُ أنا آسفاً أكثر فأكثر أن يكون ذلك الشحرور الصغير الموسوعي سجين قفص سيماي. ولكنّني لم أكن أعرف في تلك اللحظة ما بمقدوري أن أفعل لتحريرها. أصبحت مُشكلتها همّي الأكبر (وقد يكون همّها هي أيضاً؟) وكنتُ أفقد الاهتمام بكُلِّ ما بقي.

عند الغداء، بينما كنّا نازلَيْن إلى المقهى لشراء الشطائر، قلتُ لها: «هل تُريدين أن نترك كلّ شيء، أن نكشف هذه الخزعبلات وأن نفضح أمر سيماي ومن معه؟»

«ولِمَن ستقول ذلك؟» سألتني. «أوّلاً لا تهدم مستقبلك من أجلي، وثانياً على مَنْ ستقصّ هذه الحكاية إذا كانت الصُّحف، وعلى ما قد بدأتُ أفهم شيئاً فشيئاً، من الطينة نفسها؟ إنّهم يُساندُ بعضهم بعضاً...».

«لا تُصبحي الآن مثل برغّادوتشيو، الذي يرى في كلّ مكان مُؤامرات. على أيّ حالٍ اعذريني. إنّي أتحدّث هكذا لأنّني.».. لم أكن أدري كيف أصوغ جملتي، «...أظنّ أنّني أُحبّكِ».

«هل تعرف أنّها المرّة الأولى التي تُصارحني فيها بذلك؟»

«يا لكِ من غبيّة، ألستِ تعرفين أنّ لدينا الأفكار نفسها؟»

كان ذلك صحيحاً. لم أقل شيئاً كهذا منذ ثلاثين سنة في أقل تقديرٍ. كنّا في شهر ماي/أيار، وبعد ثلاثين سنة أحسستُ بالربيع في عظامي.

لماذا ذهب تفكيري إلى العظام؟ الحال هو أنّ برغّادوتشيو في تلك العشيّة نفسها حَسَب ما أذكر واعدَني في سوق الخضراوات والغلال فارتسيري، أمام كنيسة سان برناردو- للعظام. كانت في شارع ضيّق في زاوية من ساحة سانتو ستيفانو.

«كنيسة جميلة»، كان برغّادوتشيو يقول لي في أثناء دخولنا إليها، «كانت موجودة منذ القُرون الوسطى ولكن بعد الدمار والحرائق وكوارث أُخرى لم يُعَدْ بناؤها إلّا في القرن الثامن عشر. أُنشِئت في البداية لجمع عظام مقبرة للمجذومينَ، كانت في الماضي غير بعيد من هنا».

لم يكن لديّ شكّ في ذلك. بعد الانتهاء من جُثّة مُوسُوليني، الذي لم يبقَ ثمّة إمكان لاستخراجها مرّةً أخرى، كان برغّادوتشيو يبحث عن إيحاءات موتيّة أُخرى. وبالفعل، عبر رُواق نفذنا إلى المَعْظَمة. كان المكان خالياً، إلّا من امرأةٍ

عجوز جالسة على مقعد في الصفّ الأوّل كانت تُصلّي مُمسكة برأسها بين يديها. كانت جماجم الموتى مُجمّعة في كُوى عالية جُعِلَتْ بين عمودٍ وآخر، وصناديق من العظام، وجماجم موضوعة في شكل صليب ومغروسة في فسيفساء من الحُجيْرات البيض كانت هي أيضاً عظاماً، ورُبّما أجزاء من عمود فقري، ومفاصل، وتراقٍ، وأقفاص، وألواح، وفقرات عصعصيّة، وأمشاط وسلاميات، ورَضْف، وأرساغ، وأوظفة، وكعوب، وما يُدريني بغير ذلك؟ كانت تتعالى من كلّ النواحي مبانٍ من عظام تقود العَيْن عموديّاً إلى قبّة على طريقة تيبولو، مشعّة، وجذلة في غبار من السُّحب الورديّة والقشديّة تسبح وسطها ملائكة مُجنّحة وأرواح ظافرة. وعلى رفّ أُفقيّ فوق الباب القديم الموصَد تصطف، مثلَ قماقم الصيادلة الخزفيّة، جماجمُ بحدقاتها المُتّسعة. وفي الكوى في مُستوى الزائر، وراء حاجز من الحديد المُشبّك مُتّسع الثقوب التي يُمكن من خلالها إقحام الأصابع، كانت العظام والجماجم لامعة ومصقولة من فَرْط لَمس أيْدٍ وَرِعة أو عاشقة للموتى طوال قرونٍ، مثل قدم القديس بطرس في روما. كانت الجماجم، حَسَب ما تراه العين، تُناهز الألف، والعظام الصغرى لا تُعدّ، وعلى الأعمدة كانت منقوشة طغراءات للمسيح مصنوعة من ظنابيب، تبدو مسروقة من «جولي روجر» رايات قراصنة جزيرة السلحفاة (Tortuga).

«ليست عظام المجذومين فقط»، كان يقول لي برغّادوتشيو، كما لو كانت أجمل شيء في الدنيا. «فمنها هياكل عظميّة من مقابر أُخرى قريبة، أغلبها جُثث مقتولين، أو مرضى تُوفّوا في مُستشفى برولو، أو أشخاص قُطعت رُؤوسهم، أو مساجين ماتوا في الأسر، ومن المُحتمل أيضاً سُرّاق وقُطّاع طُرق جاؤوا ليموتوا في الكنيسة لأنّهم لم يجدوا مكاناً آخر يلفظون فيه أنفاسهم الأخيرة - كان فارتسيري حيّاً سَيِّئ السُّمعة جدّاً. . . تُضحكني رؤية تلك المرأة التي تُصلّي هنا كما لو كان مدفن قدّيس ورفات مُقَدَّس، في حين أنّه بقايا لئام وقُطّاع طرق، وأرواح شريرة. ومع ذلك كان الرُّهبان القُدامى أرحمَ من دافني مُوسُوليني ومُخرجيه من القبر، انظرْ بأيّ عناية وبأيّ حبّ للفنّ - ومع ذلك بأيّ وقاحة - رتّبوا هذه الأكوام من العظام، كما لو كانت فُسيفساء بيزنطيّة. العجوز سَحَرتْها

صُوَر الموت هذه وظنّتها صُور قداسة، ولكنّني لا أستطيع تحديد المكان، قد يكون تحت ذلك المحراب، حيث تُمكن رؤية الجسم الذي صار كمومياء طفلة صغيرة يُقال إنّها تخرج في ليلة الأموات هي وهياكل عظميّة أُخرى لأداء رقصة الموت».

أتصوّر أنّ تلك الطفلة أمسكت بأيدي أصدقائهما العظميّين وحملتهم إلى شارع بانييرا، ولكنّني لم أُعلّق. وممّا كنت قد شاهدتُهُ من المَعاظِم المفزعة الأُخرى مَعْظَمة الكابوتشيّين في روما، ودواميس بالرمو المخيفة، وفيها الرهبان الكابوتشيّين كاملين، مُحنّطين ومُرتدين خِرَقهم المهيبة، ولكن برغّادوتشيو كان يُفضّل بكلّ وضوح هياكله الأمبروزيّة.

«يوجد هنا أيضاً الـ «*putridarium*» المَعْفن. يجب النُّزول من سُلّم أمام المذبح الكبير، ولكن ينبغي العُثور على خادم الكنيسة، وأن يكون على حالٍ حسنةٍ. كان الرهبان يُجلسون جثث رفاقهم للتعفّن والانحلال فوق كراسيَّ من الحجر، فتجفّ الأجساد شيئاً فشيئاً، وتخرج منها كلّ السوائل، وها هي ذي الهياكل العظمية تبرز ناصعة مثل الأسنان التي نُشاهدها في إعلان معجون الأسنان «باستا دل كابيتانو». قبل الآن ببضعة أيّام فكّرتُ في أنّ هذا الموضع هو أمثل مكان لإخفاء جُثمان مُوسُوليني بعد اختطاف ليتشيزي لهُ، ولكن للأسف لستُ أكتب رواية وأُعيد تركيب أحداث تاريخية، والتاريخ يقول لنا إنّ ما بقي من الدوتشي وُضع في مكان آخر. إنّها لخسارة. ولكن هذا ما جعلني في المدّة الأخيرة أزور هذا المكان الجميل كثيراً، فقد ألهمني كثيراً من الأفكار الجميلة بشأن حكاية الرفات الأخيرة. هناك من يستمدّ إلهامه، لستُ أدري، من جبال الدولوميت أو من بحيرة ماجيوري، أمّا أنا فأستمدّ إلهامي من هذا المكان. كان عليّ أن أعمل حارساً لمخزن الجُثث. لعلّ ذلك راجع إلى ذكرى جدّي الذي مات موتة شنيعة، لترقدْ روحه في سلام».

«ولكن لماذا جئتَ بي **أنا بالذات** إلى هذا المكان؟»

«هكذا. كان عليّ أن أقصّ على شخصٍ ما الأشياء التي تغلي بداخلي،

وإلّا فقدتُ صوابي. كونك الوحيد الذي خمّن الحقيقة قد يُحدِث لك الدوار. وهنا لا يُوجد أحد أبداً، ما عدا بعض السُّيّاح الأجانب أحياناً الذين لا يفهمون منه شيئاً. الحال هو أنّني وصلتُ أخيراً إلى البقاء في الخلف.

«البقاء ماذا ؟»

«إذن، أنت تتذكّر أنّه كان عليّ أن أُقرّر ماذا سيكون مصير الدوتشي، الحيّ، حتى لا يفنى في الأرجنتين أو في الفاتيكان، ويُصبح في مثل حال شبيهه. ماذا سنفعل بالدوتشي؟»

«ماذا سنفعل به؟»

«ها هو ذا، الحلفاء أو من يعمل لهم كانوا يُريدونه حيّاً، لإخراجه في الوقت المُناسب واستعماله لمُواجهة ثورة شيوعيّة أو هجوم سوفياتي. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية نسّق البريطانيّون أنشطة حركات المُقاومة في البلدان التي احتلّها المحور بوساطة شبكة يُشرف عليها قسم من مصالح المخابرات في المملكة المتّحدة، الـ Special Operations Executive، الذي حُلَّ بعد نهاية النزاع، ولكن أُعيدَ تفعيله في بداية الخمسينيّات، ليكون نواةً لتنظيم جديد يسعى، في البلدان الأُوروبية المُختلفة، إلى مُواجهة اجتياح الجيش الأحمر أو الشيوعيّين المحليّين في حال انقلابهم على الدولة. وكانت القيادةُ العليا لقوّات التحالف في أوروبا هي الجهة المنسّقة، وهكذا نشأ الـ *stay-behind* («البقاء في الخلف»، «البقاء وراء الخطّ») في بلجيكا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا الغربية وهولندا واللوكسمبورغ والدنمارك والنرويج. هيكل مُوازٍ عسكري سرّي. في إيطاليا ظهرت بوادره منذ سنة 1949، وفي سنة 1959 دخلت المُخابرات السريّة الإيطالية ضمن لجنة تخطيط وتنسيق، وأخيراً في سنة 1964 نشأت رسميّاً منظّمة غلاديو [Gladio]، بتمويل من وكالة الاستخبارات الأميركية [CIA]. غلاديو : الاسم يذكّرك دون شكّ بشيء لأنّ الغلاديو، أو الحُسام ذا الحدَّين، كان سلاح الفيالق الرومانيّة، وإذا قلتَ غلاديو فكأنّك قلتَ حزمة الفأس الفاشية أو شيئاً من هذا القَبيل. اسم يُمكن أن يجذب إليه العسكريّين المُتقاعدين، ومُحبّي المُغامرات ومن

يشعر بالحنين إلى الفاشيّة. كانت الحرب قد انتهت ولكن الكثيرين كانوا لا يزالون يعيشون على ذكرى الأيام البُطولية، وعلى هجمات بقُنبلتَيْن ووردة في الفم، ورصاصات الرشاش. كانوا أتباعاً سابقينَ لجمهورية سالو، أو مثاليّين في سنّ الستّين وكاثوليكيّين، يَروعُهم إمكان أن يروي القوزاق خيولهم أجران الماء المُقدّس في كنيسة القديس بطرس، ولكن فيهم أيضاً مُتعصّبون للملكيّة المخلوعة، ويقول بعضهم إنّ من المتورّطين فيها أيضاً إدغاردو سونيو، الذي كان مع ذلك أحد قادة كتائب المُقاومة في بيمونتي، بطل، ولكنّه ملكيّ حتى النخاع ومُرتبط من ثمَّ بتقديس عالم كان قد انقرض. كان المُتطوّعون الجُدد يتدرّبون في مُخيّم بسردينيا، حيث يتعلّمون (أو يتذكّرون كيف كانوا يعملون) طرائق تفجير الجُسور، واستعمال الرشّاشات، والهُجوم ليلاً على العدوّ والسكاكين بين أسنانهم، وأعمال التخريب وحرب العصابات.»..

«ولكنّهم عُقداء مُتقاعدون، ومُشيرون أوهنهم المرض، ومُحاسبون هزيلو البِنية، لا أظنّهم قادرين على تسلّق الأسوار والأعمدة كما في فيلم **جسر نهر كواي**».

«صحيح، ولكن فيهم فتية الفاشية الجديدة والراغبون في القتال وكلّ أجناس الغاضبين الذين لا يُعنَونَ بالسياسة».

«يبدو لي أنّي قرأتُ شيئاً عن هذا منذ سنتَيْن».

«دون شكّ، بقي تنظيم غلاديو سريّاً جدّاً من نهاية الحرب إلى ما بعد ذلك، لم يكن يعرفه إلّا رجال المُخابرات والضُّباط الرفيعو الرتبة، ويُبلّغ الأمر مرّة بعد أُخرى وإلى رُؤساء الحكومة، ووُزراء الدفاع ورُؤساء الجُمهورية فقط. بوعد سقوط الإمبراطورية السوفياتية فقدت المسألة عمليّاً كلّ وظيفتها ولعلّها كانت تتطلّب إمكانات ضخمة، فكان الرئيس كوسّيغا بالذات هو الذي تسرّبت منه بعض المعلومات في 1990، وفي السَّنة نفسها أعلن أندريوتّي، رئيس المجلس، رسميّاً أنّ غلاديو كانت بحق موجودة، ولا داعي إلى أن نجعلها حكاية طويلة، كان وجودها ضروريّاً، أمّا الآن فقد انتهت القصّة، وكفى أقاويل وإشاعات. ولم

يوَسِّع أحدٌ المسألة، ونسي الجميع تقريباً كلّ ذلك. ولم تكن ثمّة تحقيقات برلمانيّة إلّا في إيطاليا وبلجيكا وسويسرا، ولكن جورج بوش رفض أيّ تعليق، لأنّه كان في خضمّ الإعداد لحرب الخليج ولم يكن يُريد أن تلطَّخ سُمعة حلف شمال الأطلسي. وفُرض التكتّم على هذا الموضوع في كلّ البلدان التي انضمّت إلى تنظيم «البقاء في الخلف»، مع بعض الحوادث غير المُهمّة؛ ففي فرنسا كان معروفاً منذ زمن أنّ الـ OAS التعسة السمعة كوّنها أعضاء من تنظيم «البقاء في الخلف» الفرنسيّة ولكن بعد انقلاب باء بالفشل في الجزائر، أَجبر ديغول المُنشقّين على الطاعة. وفي ألمانيا كان من المعروف أنّ قنبلة الـ Oktoberfest سنة 1980 في ميونيخ كانت مصنوعة من متفجّرات مصدرها مخبأ منظمة «البقاء في الخلف» الألمانية؛ وفي اليونان كان جيش الـ «البقاء في الخلف»، قوّة التدخل الهيلينيّة، هو الذي أعدّ انقلاب العُقداء، وفي البُرتغال خطّطت وكالة سريّة، Aginter Press، لاغتيال إدواردو موندلان، زعيم جبهة التحرير بالموزمبيق. وفي إسبانيا، بعد سنة على موت فرانكو، وقع اغتيال كارلِيَّيْن على أيدي إرهابيّين من اليمين المُتطرّف، وفي السَّنة اللاحقة أحدث تنظيم الـ «البقاء في الخلف» مجزرة في مدريد، في مكتب هيئة قضاء تابع للحزب الشيوعي؛ وفي سويسرا قبل الآن بسنتَيْن أعلن العقيد آبوث، قائد سابق لتنظيم «البقاء في الخلف» المحليّة، في رسالة سريّة لوزارة الدفاع استعداده لكشف «كلّ الحقيقة»، وبعد ذلك وجدوه مقتولاً في بيته بحربة بندقيّته. وفي تركيا ينتمي الذئاب الرماديّون إلى تنظيم الـ «البقاء في الخلف»، أولئك الذين تورّطوا من بعد في محاولة اغتيال البابا يوحنّا بولس الثاني. وبإمكاني أن أُواصل، لقد قرأتُ عليك شيئاً قليلاً من مُذكّراتي، ولكن كما ترى هي أشياء تافهة، اغتيال هنا واغتيال هناك، أخبار تُوضع في صفحة الأحداث الإجرامية، وفي كلّ مرّة ينتهي كلّ شيء في غياهب النسيان. المسألة هي أنّ الصُّحف لا تسعى لنشر الأخبار بل لإخفائها. تحدث الواقعة كذا، لا يُمكنك أن لا تتحدّث عنها ولكنّها تُحرج الكثيرين، لذا تضع في العدد نفسه عنوانات بالحروف الغليظة يقشعرّ لها البدن، أمّ تذبح أبناءها الأربعة، مُدّخراتنا مُهدّدة بالنفاذ، اكتشاف رسالة سبّ من غاريبالدي لنينو بيكسيو إلى

آخره، وخبرك يغرق في البحر الكبير للإعلام. ولكن ما يُهمّني أنا هو ما فعله تنظيم غلاديو في إيطاليا من الستينيات إلى سنة 1990. والظنّ أنّه فعل كلّ المساوئ التي يتصوّرها العقل، ولعلّه تورّط مع الحركات الإرهابيّة التابعة لليمين المُتطرّف، وكان له دور في تفجير بياتسا فونتانا سنة 1969، ومنذ ذلك الوقت - وكنّا آنذاك في زمن ثورات عام 1968 الطُّلابية والخريف الساخن للعُمّال - عَلم بعضهم أنّ بالإمكان التحريض على العمليّات الإرهابية لتُنْسَبَ المسؤولية في ذلك إلى الاتّجاهات اليساريّة. ويُقال إنّ مِن المتورّطين فيها أيضاً الغرفة الماسونية «P2»* لليتشيو جيلّي. ولكن ما الذي جعل مُنظّمة أُسِّست لمكافحة السوفيات تُسَخِّر نفسها لممارسة أعمال إرهابيّة؟ وكان عليّ أن أكتشف قصّة الأمير يونيو فاليريو بورغيزي كاملةً».

هنا ذكّرني برغّادوتشيو بأشياء كثيرة كانت تُقرأ في الصُّحف، ففي الستينيات كان قد كَثُر الحديث عن الانقلابات العسكريّة، وعن «قعقعة السيوف»، وكنتُ أتذكّر ما أُشيعَ عن انقلاب سياسي كان يُفكّر فيه (وإن لم يُحقّقه قط) الجنرال دي لورانتسو. ولكن برغّادوتشيو يُذكّرني الآن بمُحاولة الانقلاب المُسمّى بانقلاب **حُرّاس الغابة**. وهي قصّة على قَدْر من الغرابة المُضحكة، يبدُو لي أنّهم استوحوا منها أيضاً فيلماً ساخراً. يونيو فاليريو بورغيزي، المُلقّب أيضاً بـ «الأمير الأسود»، كان سابقاً على رأس الفيلق العاشر للبحريّة «ماس». كان رجلاً على قَدْر من الجُرأة، حَسَب ما يُقال، فاشيّاً حتى النخاع، وانضمّ دونَ شكّ إلى جُمهورية سالو، ولم يعرف أحد قطّ لماذا نجا هو خاصّةً في عام 1945، عندما كانوا يرمون الفاشيّين بالرصاص دون خشية من عقاب، بل حافظ على سمعته مقاتلاً مثاليّاً، والقبّعة على رأسه مائلة نحو المغيب، والرشّاش مُعلّق على كتفه، والسروال المُميّز لكتيبته منتفخٌ في مُستوى العرقوب، وقميص الصوف المستدير الرقبة، وإن كانت سحنته لو اعترضك في الشارع بلباس المحاسب لا تُساوي فلساً مثقوباً.

* غرفة ماسونيّة «Propaganda Due» كان يرأسها ليتشيو جيلي [Licio Gelli] تورّطت في عدّة قضايا فساد وإجرام. [م].

الحال هو أنّ بورغيزي هذا فكّر سنة 1970 في أنّ وقت الانقلاب السياسيّ قد حان. وكان رأي برغّادوتشيو أنّهم قد راعَوا أنّ مُوسُّوليني، إن قُدِّر أن له أن يعود من منفاه، كان آنذاك في نحو السابعة والثمانين، ولا يُمكن الانتظار طويلاً، لأنّه حتّى في عام 1945 كان يبدُو مُرهقاً.

«أشعر أحياناً بالشفقة»، كان برغّادوتشيو يقول، «على ذلك الرجل المسكين، تصوّر، فلو كان في الأرجنتين، حيث يُمكنه - إن لم نقُلْ التهام تلك الشرائح الضخمة من اللحم لأنّ القَرح في المعدة يمنعه من ذلك - في الأقلّ الاستمتاع بمنظر السهول المُعشوشبة اللامتناهية (يا للمُتعة، طوال خمس وعشرين سنة) لكان ذلك أمراً حَسَناً، ولكن أسوأ من ذلك أن يكون في الفاتيكان، حيث لا يُمكنه في الأكثر إلّا التجوّل عند المساء في بعض الحدائق وتناول طبق من الحساء تُقدّمه له راهبة مُشعرة الذقن، وهو يفكّر في أنّه خسر، مع إيطاليا، محبوبته، ولا يُمكنه حتّى أن يُعانق أبناءه، ولعلّه بدأ يفقد شيئاً فشيئاً صوابه وهو جالس طوال النهار كلّه على أريكة يجترّ الأمجاد القديمة، ويُشاهد ما يحدث في العالم من خلال التلفاز فقط، بالأبيض والأسود، في حين أنّ الذاكرة المُضبّبة بفعل السنّ والمُهتاجة بفعل الزُّهري تُعيد إليه انتصارات شُرفة قصر فينيتسيا، وأيام الصيف وهو عاري الصدر يحصد القمح، ويُقبّل الأطفال الصغار وأُمّهاتهم المُتهيّجات يُبلّلن بريقهنّ يديه، أو العشيّات في قاعة الكرة الأرضية، حيث يُدخل إليه الخادم نَفارّا سيّدات مُرتعشات شوقاً فيفتح ما يكفي من سرواله ويقلبهنّ على مكتبه وفي لحظة يعاشرهنّ، وهنّ يُطلِقْنَ صيحات استمتاع كالقطط وقت السِّفاد ويهمسن آه يا دوتشي، آه يا دوتشي... وبينما يتذكّر ذلك ويتحلّب ريقه، بأيره الذي صار الآن مُرتخياً، كان صوت يُعيد عليه كالمطرقة أنّ ساعة البعث قد حانت - يُذكّرني ذلك بتلك الطُّرفة عن هتلر، وهو منفيٌّ أيضاً في الأرجنتين، إذ يُريد النازيّون الجدد إقناعه بالعودة إلى المشهد السياسي لغزو العالم، لكنّه يهمهم ويتردّد طويلاً، لأنّ السنّ له ثقله حتى عليه، ولكنه في نهاية الأمر يقبل ويقول حسناً، ولكن هذه المرّة. . . **أشرار بحقّ**، مفهوم؟»

«باختصار»، واصل برغّادوتشيو، «سنة 1970 كان كلّ شيء يُوحي بأنّ الانقلاب مُمكن، إذ كان على رأس المُخابرات الجنرال ميتشيلي، وهو أيضاً في الخليّة «ب2»، وبعد ذلك ببضع سنوات أصبح نائباً عن الحركة الاجتماعية الإيطالية - ولاحظْ هذا، كان مُشتبهاً به وخضع لتحقيقٍ في قضيّة بورغيزي، ولكنه خرج منها سالماً وتُوفّي مطمئنّ البال منذ سنتَيْن. وعرفتُ من مصدر موثوق به أنّه، بعد سنتَيْن من محاولة انقلاب بورغيزي، تسلّم ميتشيلي آنذاك أيضاً ثمانمئة ألف دولار من السفارة الأميركية، لا نعرف لماذا وبإزاء ماذا. كان بإمكان بورغيزي إذن أن يعتمد على مُساندات عالية المُستوى وعلى «غلاديو»، على قُدماء كتائبيِّي الحرب الأهلية في إسبانيا، وعلى الأوساط الماسونيّة، ويُقال إنّ المافيا دخلت في اللعبة أيضاً، وهي كما تعرف لها موردٌ على الدوام. وفي الظلّ، دائماً ليتشيو جيليّ الذي كان يُحرّض الشرطة والقيادات العُليا للجيش، التي كانت مملوءةً بالماسونيّين. اسمعْ جيّداً حكاية ليتشيو جيلّي لأنّها أساسيّة في أُطروحتي. إذ شارك جيلّي في حرب إسبانيا، وهو لم ينفِ هذا البتّة، وكان في الجُمهورية الاجتماعية وكان ضابط ارتباط بالـ «SS»؛ ولكنّه في الوقت نفسه كان على صلة بالمقاومة، وبعد الحرب كانت له علاقة بالـ «CIA». ومن ثَمَّ فإنّ شخصاً مثل هذا لا يُمكن أن لا يكون له دور في «غلاديو». ولكن اسمعْ هذا: في يوليو عام 1942 كُلّف بوصفه مُفتّش الحزب القومي الفاشي نقل كنوز ملك يوغوسلافيا بيترو الثاني إلى إيطاليا: 60 طنّاً من سبائك الذهب، وطنّان من النقود القديمة، و6 ملايين دولار، ومليونا ليرة استرلينيّة احتجزها الـ «SIM» (مصلحة المُخابرات العسكريّة). وفي سنة 1947 أُعيد الكنز أخيراً، ولكن كان ينقص 20 طنّاً من السبائك ويُقال إنّ جيلّي حوّلها إلى الأرجنتين. إلى الأرجنتين، هل تُدرك ذلك؟ كانت لجيلّي في الأرجنتين علاقة صداقة ببيرون، وكأن هذا ليس كافياً، وبجنرالات كفيديلا، وحصل أيضاً من الأرجنتين على جواز ديبلوماسي. ومن يُحرّك الأمور في الأرجنتين؟ ذراعه الأيمن أومبارتو أورتولاني، الذي كان وسيطاً بين جيلّي ومونسينيور مارشينكُس وكانت له مهمّات أخرى. وإذن؟ كلّ شيء يحملنا إلى الأرجنتين حيث يُوجد الدوتشي وحيث تُعدّ العُدّة لرجوعه، ولا

شكّ في أنّ ثمّة حاجةً إلى الأموال، والتنظيم المحكم، والدعم المحلّيّ. وهذا يكشف عن سبب كون جيلّي أساسيّاً في مخطّط بورغيزي».

«لا شكّ أنّ كلّ هذا يبدُو مُقنعاً.»..

«وهو كذلك. وهذا لا ينفي أنّ الجماعة التي كوّنها بورغيزي كانت أشبه شيء بجيش برنكاليوني*، حيث تجد مع الشيوخ الذين يحنّون إلى الماضي (وبورغيزي نفسه كان عُمره قد جاوز الستّين) قطاعات للدولة وحتّى كتائب من حُرّاس الغابات، ولا تسألني لماذا حُرّاس الغابات بالذات، ربما لم يَعُدْ لهم ما يفعلونه بعد قطع أشجار الغابات بعد الحرب. ولكن هذا الخليط كان بإمكانه أن يُحدث شيئاً فظيعاً. من المصادر التي تلت المحاكمة اتّضح أنّ ليتشيو جيلّي كان مُكلّفاً أن يعتقل رئيس الجمهورية، الذي كان آنذاك سارَغات [Saragat]، وتولّى مُجهِّز سفن مِنْ تشيفيتافيكّيا نَقْلَ من احتجزهم مدبّرو الانقلاب بمراكبه إلى جزيرة ليباري. ولن تُصدّق إن أخبرتُك مَن كان مُتورّطاً في العمليّة! أوتّو سكورزيني [Otto Skorzeny]، ذلك الذي حرّر مُوسُّوليني من قلعة غران ساسّو سنة 1943! كان لا يزال ناشطاً، وهذا عُنصر آخر لم تمسّه التصفيات العنيفة في مرحلة ما بعد الحرب، وكانت له في علاقة بالـ «CIA» وهو الذي كان عليه أن يضمن عدم اعتراض الولايات المتّحدة الأميركيّة على الانقلاب، على أن تُمسك بالحُكم لجنة عسكريّة «الوسط- الديمقراطي». لاحظْ نِفاق هذه الصّياغة. ولكن ما لم تكشفه قطّ التحقيقات التالية هو أنّ سكورزيني كان بكلّ وضوح على صلةٍ مستمرّةٍ بموسّوليني، الذي يدين له بالكثير، وربّما كان عليه هو أن يُعنى بعودة مُوسُّوليني من منفاه لكي يقدّم الصورة البُطوليّة التي كان مُدبّرو الانقلاب يحتاجون إليها. باختصار، كان الانقلاب كلّه قائماً على العودة الظافرة لمُوسُّوليني. الآن استمعْ إليَّ جيّداً: أُعِدَّ الانقلاب بإحكام منذ سنة 1969، انتبه جيّداً، سنة مجزرة بياتسا فونتانا، التي كانت دون شكّ مُدبَّرة بحيث تذهب كلّ الشكوك ناحية اليسار ويُهيّأ

* فيلم ساخر أخرجه ماريو مونيتشيلّي وكان بطله فيتّوريو غاسمان «L'Armata Brancaleone» وهو جيش من خليط لا نظام له ولا زيّ. [م].

الرأي العامّ بهذا تهيئةً نفسيّةً لعودة استتباب النظام. كان بورغيزي يُخطّط لاحتلال وزارة الداخليّة، ووزارة الدفاع، ومقرّات الإذاعة والتلفزة RAI، ووسائل الاتّصال (الهاتف) واعتقال المُعارضين الحاضرين في البرلمان. وليست هذه أشياء اختلقتها لأنّه قد عُثر بعد ذلك على بيان كان على بورغيزي أن يقرأه في الإذاعة، ومفاده تقريباً أنّ التحوّل السياسي المُرتقب قد حدث أخيراً، وأنّ الفئة السياسية التي حكمت طوال خمس وعشرين سنة أوصلت إيطاليا إلى حافة الانحلال الاقتصادي والأخلاقي، وأنّ قوّات الجيش وقوّات الأمن تؤيّد تسلّم الانقلابيّين للسلطة. أيّها الإيطاليّون، كان على بورغيزي أن يختم بيانه، إذ نُعيد إليكم الراية الثلاثية الألوان المجيدة ندعوكم إلى الصَّدح بنشيد الحب الغامر، تحيا إيطاليا. خطابة فاشيّة بأتمّ معنى الكلمة».

بين 7 و8 من ديسمبر/كانون الأول (كان يُذكّرني برغّادوتشيو) تلاقى في روما بضع مئات من المُتآمرين، وشُرع في توزيع الأسلحة والذخيرة، في حين اتّخذ جنرالان موقعهما في وزارة الدفاع، وتمركزت مجموعة مُسلّحة من الحرس الغابي بالقرب من مقرّات التلفزة التابعة لـ RAI، وفي ميلانو بدأ الإعداد لاحتلال ساستو سان جيوفاني، معقل الشيوعيّين التقليدي.

«وفجأة، ماذا حدث؟ بينما كان المُخطَّط كلّه يبدُو سائراً نحو النتيجة المُنتظرة، وكان بالإمكان القول إنّ المُتآمرين أحكموا قبضتهم على روما، أبلغ بورغيزي الجميع أنّ العمليّة قد عُلّقت. وقد قيل بعد ذلك إنّ مؤسّسات مُخلصة للدولة عارضت المُؤامرة، ولكن في هذه الحالة كان بإمكانهم وَقْف بورغيزي في اليوم السابق للعمليّة دون انتظار امتلاء روما بالحُرّاس الغابيّين وهم يرتدون أزياءهم الرسميّة. على أيّ حال أُسدل الستار على العمليّة بطريقة تكاد تكون سريّة، وتشتّت المُتآمرون دون حوادث، ولجأ بورغيزي إلى إسبانيا، لكن اعتقِلَ بعض الأغبياء، وسُمح لهم جميعاً بـ «أن يُعْتَقَلوا» في مصحّات خاصّة، وقد زارَ بعضُهم في أثناء إقامتهم ميتشيلي، الذي وعدهم بالحماية على أن يصمتوا. هناك بعض التحقيقات البرلمانية التي لم تتحدّث عنها الصحف إلّا قليلاً، بل إنّ الرأي العامّ لم يعرف تقريباً ما حدث إلّا بعد ثلاثة أشهر. لا أُريد أن أعرف ماذا

حدث، ما يُهمّني هو أن أعرف لماذا أُلغيت مؤامرة دُبّرت بهذه العناية في غضون بضع ساعات، بحيث تحوّلت عمليّة هي غاية في الجدِّ إلى مهزلة. لماذا؟»

«أسألك أنت لماذا؟»

«يبدو أنّني الوحيد الذي ألقى على نفسه هذا السؤال ولا شكّ في أنّني الوحيد الذي وجد الإجابة عن ذلك، وهو واضح وضوح الشمس: في تلك الليلة بالذات وصل خبر أنّ مُوسُّوليني، الذي ربّما كان قد وصل إلى التراب القومي مُستعدّاً لإعلان حضوره، **مات فجأة** - وهو أمرٌ لا يبدو غريباً بالفعل في مثل سنّه ومع نقله هنا وهناك كطردٍ بريدي. وهكذا انتهت مُحاولة الانقلاب لأنّ رمزها القياديّ لم يعد موجوداً، وهذه المرّة بصفة حقيقيّة، بعد خمس وعشرين سنة من موته المزعوم».

كانت عينا برغّادوتشيو تلمعان، وتكادان تُضيئان صُفوف الجماجم المُحيطة بنا، وكانت يداه ترتعشان ويكسو شفتيه لعاب أبيض، وأمسكني بشدّة من كتفيّ: «فهمتَ، يا كولونّا؟ هذه هي إعادة تركيبي للأحداث!»

«ولكنّي أذكر حدوث محاكمة.»..

«مهزلة، بوجود أندريوتّي الذي كان رئيس الوزراء آنذاك والذي تعاون لإخماد كلّ شيء، ولم ينتهِ إلى السجن إلا بعضُ الأشخاص الثانويين. المسألة هي أنّ كلّ ما عرفناه كان زائفاً، أو مُشوّهاً، لقد عشنا في الخدعة طوال السنوات العشرين للاحقة. لقد قلت لك إنّه لا ينبغي أبداً تصديق ما يقصّونه علينا.»...

«وهنا تنتهي قصّتك.»..

«لا، هنا تبدأ قصّة أُخرى، ولم أكن لأهتمَّ لو أنّ ما حدث بعد ذلك لم يكن نتيجة مباشرة لموت مُوسُّوليني. فبغياب صورة الدوتشي، لم يعُدْ ممكناً لأيّ «غلاديو» أن تأمل الاستحواذ على الحُكم، في حين أصبح بعيداً كلّ البعد إمكان أيّ غزو سوفياتي، لأنّ الوضع كان يسير شيئاً فشيئاً نحو الانفراج. ومع ذلك فإنّ «غلاديو» لم تُحلّ، بل صارت تنشط فعليّاً ولا سيّما بعد موت مُوسُّوليني وما بعد ذلك».

«كيف؟»

«لمّا كانت المسألة لم تعُدْ تتعلّق بتركيز سُلطة جديدة في قلب الحكومة، اتّحدت غلاديو ومع كلّ تلك القوى الخفيّة التي تُحاول خلخلة الاستقرار في إيطاليا لتجعل صعود أحزاب اليسار غير مُحتَمَلٍ، ولتمهيد الطريق لأشكال جديدة من القمع المُمارَس بكلّ المعايير القانونيّة. هل تُدرك أنّه قبل محاولة انقلاب بورغيزي وقعت اعتداءات قليلة، من نوع بياتسا فونتانا، وفي تلك السَّنة فقط بدأت تتشكّل الألوية الحُمْر، وفي السنوات التالية بدأت على الفور سلسلة من المجازر؟ 1973، قُنبلة في مقرّ الشرطة بميلانو، وفي سنة 1974 مجزرة ساحة لوجيا ببريشيا، وفي السَّنة نفسها انفجرت قنبلة ذات فاعليّة قويّة في قطار إيتاليكوس، روما-ميونيخ، 12 قتيلاً و48 جريحاً. ولكن، انتبِهْ، كان من المُفترض أن يوجد على متن ذلك القطار ألدو مورو [Aldo Moro] إلّا أنّه تخلّف عن القطار لأنّ بعض المُوظّفين بالوزارة أنزلوه في آخر لحظة للتوقيع على وثائق عاجلة. وبعد عشر سنوات من ذلك انفجرت قنبلة أخرى في القطار السريع نابولي - ميلانو. دَع عنك قضيّة مورو، فنحن لا نعرف حتى الآن حقيقة ما جرى. ولا يكفي هذا، ففي سبتمبر/أيلول عام 1978، مات البابا الجديد ألبينو لوتشياني ميتة غامضة بعد شهر على انتخابه. جلطة قلبية أو دماغية، حسب ما قالوا، ولكن إن صَحَّ ذلك فلماذا اختفت من غُرفة البابا أمتعته الشخصيّة: النظّارات، والخُفّان، وبعض مُذكّراته وقارورة إيفورتيل من الواضح أنّ البابا كان يستعملها لمعالجة انخفاض الضغط الدمويّ؟ لماذا تبخّرت كلّ هذه الأشياء؟ ربّما لأنّه لا يُعقل أن يموت شخصٌ يشكو انخفاض الضغط بجلطة دمويّة؟ ولماذا كانت أوّل شخصيّة مهمّة دخلت إلى الغرفة بعد ذلك هي الكاردينال فيلّو؟ ستقول لي إنّ ذلك طبيعيّ لأنّه كاتب الدولة، ولكن يُوجد كتاب لرجل يُدعى يالّوب يكشف وقائع مُختلفة: منها أنّ البابا قد عُني بوجود جماعة كَنَسِيّة - ماسّونية يشترك فيها فيلّو بالذات، والكاردينالات أغوستينو كزارولي، نائب مدير صحيفة *Osservatore Romano*، ومدير إذاعة الفاتيكان ومارشينكُس دون شكّ، الكاردينال الحاضر دائماً في كلّ المَحَاضر وصاحب الحلّ والربط في الـ IOR، المصرف الفاتيكاني، الذي اكتُشف من بعد أنّه يُساعد على الإفلات من دفع الضرائب

وغسل الأموال، ويتستّر على أعمال مُريبة لأشخاص كروبارتو كالفي وميكيلي سيندونا - اللذَيْن، ويا للمُصادفة، انتهى أمرهما في السنوات اللاحقة إلى أن يُشنَقَ أحدهما في بلاك فريارز [Black Friars] بلندن، وإلى أن يُسَمَّ الآخرَ في السجن. وعلى مكتب لوتشياني عُثر على نُسخة من المجلّة الأسبوعية **العالم**، مفتوحة على الصفحة التي فيها تحقيق بشأن عمليّات المصرف الفاتيكاني. ويَتَّهِم يالّوب بالجريمة ستّة أشخاص: فيلّو، وكاردينال شيكاغو جون كودي، ومارشينكُس، وسيندونا، وكالفي وليتشيو جيلّي، والمُعلّم الماسوني الجليل للخليّة «ب2». ستقول لي إنّ كلّ هذا لا صلة له البتّة بـ «غلاديو» ولكن، ليس مُصادفة أنّ كلّ هؤلاء مُتورِّطون في دسائس أُخرى، والفاتيكان كان مُتورّطاً في إنقاذ مُوسُّوليني وفي حراسته. قد يكون لوتشياني اكتشف هذا الأمر بالذات، وإن مرّت بضع سنوات على موت الدوتشي الحقيقي، وأراد تطهير الأرض من تلك الزُّمرة من الأوباش التي كانت تُعدّ لانقلاب سياسي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. زِدْ على ذلك أنّه بعد موت لوتشياني، وقعت القضيّة بين يدَيْ يوحنا بولس الثاني، الذي تعرّض بعد ثلاث سنوات لمحاولة اغتيال من «الذئاب الرمادية التركية»، أولئك الذئاب الرماديّين الذين، كما قلتُ لك، كانوا مُنخرطين في منظّمة «البقاء في الخلف» التركيّة... ثمّ سامح البابا المُعتدي، والمتآمر كفّر عن ذنبه في السجن، ولكن البابا كان قد تملّكه الخوف وكفّ عن متابعة تلك القضيّة، وذلك أيضاً لأنّه لا يُهمّه كثيراً شأن إيطاليا، وكان بالأحرى مَعْنِيّاً بمُكافحة الطوائف البروتستانتية في العالم الثالث. وهكذا، تركوه في سلام. هل تكفيك كلّ هذه التطابقات؟»

«ولكن مؤامرات في كلّ مكان هو الذي يدعوك إلى جَعْل الحبّة قُبّة؟»

«أنا؟ ولكنها أحكام عدليّة، وبإمكان كلّ شخص أن يعثر عليها، إن عرف كيف يبحث عنها في الأرشيف، إلّا أنّهم أخرجوها للناس بين خبر وآخر. خذْ مثلا قضيّة بيتيانو [Peteano]. في مايو/أيار عام 1972، بالقرب من غوريتسيا، أخبر أحدهم رجال الأمن أنّ هناك سيّارة فيات 500 متروكة في شارع وفيها ثُقبان لرصاصتَيْن في الزجاج الأمامي. جاء ثلاثة من الشرطة، وحاولوا فتح

صندوق المُحرّك فلقوا مصرعهم بانفجار. ذهب الظنّ مدّة من الزمن إلى أنّ ذلك من فعل الألوية الحُمْر، ولكن بعد ثلاث سنوات ظهر شخص اسمه ماريو فينشيغويرّا. اسمعْ قصّة هذا السيّد: بسبب قضيّة أُخرى غامضة نجا من الإيقاف وهرب إلى إسبانيا مُلتجئاً إلى الشبكة المُضادّة للشيوعية الدولية، أجينتر براس [Aginter Press]، وهنا من خلال اتصالات بإرهابيّ آخر يميني، هو ستيفانو ديلّي كيايي [Stefano Delle Chiaie]، انضمّ إلى «الطليعة القوميّة»، ثمّ اختفى في التشيلي وفي الأرجنتين، ولكن في سنة 1978 قرّر، يا لطيبة قلبه، أنّ كلّ قتاله للدولة لا معنى له وسلّم نفسه في إيطاليا. انتبهْ، لا يعني ذلك أنّه تاب، كان يُفكّر دائماً أنه كان مُحِقّاً في ما فعله إلى ذلك الحين، وقد تسألني : لماذا سلّم نفسه إذن؟ أجيبك بأن السبب هو الشهرة، هناك مُجرمون يعودون دائماً إلى مكان الجريمة، ومجرمون متسلسلون يرسلون أدلّة للشرطة لأنّهم يرغبون في أن يُلقى القبض عليهم وإلّا فلن يظهروا على الصفحة الأولى من الجرائد، وفينشيغويرّا هذا شرع منذ ذلك الحين يتقيّأ الاعترافات تلو الاعترافات. إذْ نُسبت إليه مسؤوليّة مؤامرة بيتيانو ووَضَعَ في حَرَج أجهزة الدولة التي، حَسَب قوله، وفّرت له الحماية. وفي سنة 1984 فقط اكتشف أحد القُضاة، وهو كاسّون، أنّ المُتفجّرات المستعملة في بيتيانو كانت من مخزن أسلحة تابع لـ «غلاديو»، وما هو أكثر إثارةً للدهشة أنّ معرفة وجود ذلك المخزن جاءته - لن تتصوّر ذلك أبداً - من أندريوتّي [Andreotti]، الذي كان يعرف كلّ شيء إذن ولم يفتح فمه البتّة. وأعَدَّ خبير يعمل في أجهزة الشرطة الإيطالية (وهو عضو في «النظام الجديد» [Ordine Nuovo]) تقريراً أكّد فيه أنّ المُتفجّرات المُستعملة مُطابقة لتلك التي تستعملها الألوية الحُمْر، ولكن كاسّون أقام الدليل على أنّ المُتفجّر هو C-4، المُستعمل لدى قوّات الناتو. باختصار هي مكيدة رائعة، وكما ترى، سواء كان الفاعل هو حلف الناتو أو الألوية الحُمْر، فغلاديو موجودة دائماً. إلّا أنّ التحقيق أظهر أيضاً أنّ «النظام الجديد» تعاون هو ومصلحة المُخابرات السريّة الإيطالية، «SID»، وهذا يعني أنّه إذا كانت المُخابرات العسكريّة قد فجرّت ثلاثة رجال شرطة، فليس ذلك لأنّها عدوّة هذا السلك الأمني بل لتنسب المُؤامرة من بعد

إلى مُناضلي اليسار المُتطرّف. لن أُطيل عليك، بعد تحقيقات وتحقيقات مُضادّة، حُكم على فينشيغويرّا بالسجن المُؤبّد، وفيه يُواصل اعترافاته بشأن استراتيجية التوتّر. إذ تحدّث عن مجزرة بولونيا (وهذا يُبيّن لك أنّ العلاقات بين مجزرة وأُخرى قائمة وليست من صُنع خيالي)، وقال إنّ مؤامرة بياتسا فونتانا سنة 1969 كانت غايتها إرْغام رئيس المجلس آنذاك ماريانو رومر [Mariano Rumor] على إعلان حالة الطوارئ. وأضاف أيضاً، أقرأ عليك: «لا يُمكن العيش هرباً من العدالة دون أموال ودون مُساندة. كان بإمكاني اختيار الطريق الذي اتّبعه آخرون، وأن أبحث عن مُساندات أُخرى، ربّما في الأرجنتين لدى مصالح المُخابرات. وكان بإمكاني أيضاً اختيار درب الجريمة المُنظّمة. ولكنّني لستُ مؤهّلاً لا للتعاون مع المُخابرات ولا لأن أصبح مُنحرفاً. لذا، لم تُبقِ لي رَغبتي في استعادة حريّتي سوى خيار واحد. أن أسلّم نفسي. وهذا ما فعلته». كان بلا شكٍّ منطقَ معتوه مريض بحُبّ الظهور، ولكنه معتوه يملك معلومات قابلة للتصديق. وها هي ذي قصّتي، وقد أُعيد تركيبها فعلياً: شبح مُوسُّوليني، الذي يُعتقد أنّه مات، سيطر على كلّ الأحداث الإيطالية منذ سنة 1945 إلى الآن، حَسَب رأيي، وموته الحقيقي أطلق أحلك حقبة في تاريخ هذا البلد، مشركاً «البقاء في الخلف»، ووكالة الاستخبارات الأميركية، وحلف الناتو، وغلاديو، و«ب2»، والمافيا، والمُخابرات، وكبار القادة العسكريّين، ووُزراء مثل أندريوتّي ورُؤساء مثل كوسّيغا، ودون شكٍّ جُزءاً كبيراً من التنظيمات الإرهابية لليسار المُتطرّف، بعد اختراقها وتوجيهها كما ينبغي. دَع عنك مورو الذي اختُطف وقُتِل لأنّه كان على علم بشيء ما وينوي الكشف عنه. وإن شئتَ فزِدْ على ذلك أحداث جرائم ثانويّة ليس لها في الظاهر أيّ أهميّة سياسيّة.»..

«نعم، وحش شارع سان غريغوريو، ومُذيبة الصابون، وغول شارع سلاريا.»..

«لا تَسخَرْ، لا أقول إنّ تلك قد تكون الجرائم الأولى بعد الحرب، ولكن من باب الاقتصاد في سائرها، كما يُقال، أن نرى قصّة واحدة تُسيطر عليها صورة افتراضية واحدة تبدو كأنّها تسيّر حركة المرور من شُرفة قصر فينيتسيا،

حتى وإن لم يكن يراها أحد. «الهياكل العظميّة»، كان يقول مُشيراً إلى الضيوف الصامتين من حولنا، «بإمكانها دائماً أن تخرج ليلاً وتَعرِض رقصتها الجنائزيّة. هناك أشياء لا حصر لها في السماء وفي الأرض إلى آخر ذلك إلى آخر ذلك، تعرف ذلك. ولكن المُؤكّد هو غلاديو وُضِعت رسميّاً في خزانة الأشباح البالية، بعد انتهاء التهديد السوفياتي، وسواء أكان كوسّيغا هو مَن تحدَّث أندريوتّي عنها لطَرْد شبحها، ولتقديمها بوصفها أمراً عاديّاً وقع بمُوافقة السلطات، ومجموعة من الوطنيّين، تماماً مثل الفحّامين في العهود الغابرة. ولكن هل انتهى كلّ شيء بحقّ أم لا تزال بعض الجماعات المُتعنّتة تعمل في الخفاء؟ أظنّ أنّنا نرى أشياء عجيبة».

ونظر حوله، قلقاً: «الآن، من الأفضل أن نخرج، لا تعجبني تلك المجموعة من اليابانيين التي هي بِصَدَد الدخول. الجواسيس الشرقيّون في كلّ مكان، الآن دخلت الصين في اللعبة أيضاً، فضلاً عن كونهم يفهمون كلّ اللغات».

بينما كنّا خارجَيْن، وقد عدتُ إلى تنفّس الهواء الطلق بكامل رئتيّ، سألته: «ولكن، هل تثبَّتَّ جيّداً من كلّ شيء؟»

«تحدّثتُ إلى أشخاص مُطّلعين على عدّة أشياء بل طلبتُ نُصح زميلنا لوتشيدي. ربّما لا تعرف أنّ له علاقة بالمخابرات».

«أعرف، أعرف ذلك. ولكن هل تَثِق به؟»

«إنّه من أولئك الذين اعتادوا التزام الصمت، لا تقلق. تلزمني بضعة أيام أُخرى لجمع أدلّة أُخرى لا يُمكن دحضها، فهمتَ، لا يُمكن دحضها، وبعد ذلك سأذهب إلى سيماي وسأعرض عليه نتائج تحقيقي. اثنتا عشر حلقة لاثنيْ عشر عدداً من العدد صفر».

في ذلك المساء، من أجل أن أنسى عظام القديس برناردينو، خرجتُ أنا ومايا للعشاء في مطعم، على ضوء الشموع. لم أُحدّثها دون شكٍّ عن غلاديو، وتجنّبتُ الأطباق التي يلزمني فيها تجريد العظام من لحمها، وبدأتُ أخرج شيئاً فشيئاً من الكابوس الذي عانيتُه في العشيّة.

16
السبت 6 يونيو/ حزيران

بعد ذلك أخذ برغّادوتشيو لنفسه عُطلة بضعة أيّام لإعداد مُذكّراته وفي يوم الخميس قضى الصبيحة كلّها معتكفاً في مكتب سيماي. خرج منه في نحو الساعة 11، هو وسيماي الذي كان يشدِّد عليه: «تثبَّتْ جيّداً من تلك المعلومة، أرجوك، أُريد أن أكون واثقاً».

«كُن مُطمئنّاً»، أجابه برغّادوتشيو وملؤه البهجة والتفاؤل، «في هذا المساء سألتقي شخصاً أَثِق به وسأتثبّتُ نهائيّاً من كلّ شيء».

أمّا ما عدا ذلك فقد انشغل كامل فريق التحرير بإعداد الصفحات العادية للعدد صفر الأوّل: الرياضة، وألعاب بلاتينو، وبعض رسائل التكذيب، والأبراج والإعلانات المأتميّة.

«ولكن مهما اختلقنا من أنباء»، قال في لحظةٍ حدّ ما كوستانتسا، «لا أظنّ أنّ بإمكاننا أن نملأ أربعاً وعشرين صفحة. تلزمنا أنباء أُخرى».

«حسناً»، قال سيماي، «ساعدْه أنت أيضاً، يا كولونّا، أرجوك».

فقلتُ: «ليس من الضروري أن نختلق الأنباء، يكفي إعادة تدويرها».

«كيف؟»

«الناس ذاكرتهم ضعيفة. انطلق من مثال غير معقول، الجميع يعرف أنّ يوليوس قيصر اغتيل في منتصف مارس/آذار، ولكن الأفكار مضطربة. نبحث عن

كتاب إنكليزي صدر حديثاً فيه بحث جديد في مقتل القيصر، لذا يكفي عنوان مُثير على شاكلة **اكتشاف مُذهل لمُؤرّخي كامبريدج. القيصر اغتيل حقيقة في منتصف مارس/آذار**، ونقصّ من جديد كلّ الحكاية، وها نحن قد صنعنا مقالاً مُمتعاً جدّاً. ربّما أكون قد غاليتُ قليلاً في حكاية القيصر، ولكن إنّ تكلّمنا على قضيّة إقامة تريفولتسيو، فبالإمكان كتابة مقال عن التماثل بين هذه القضيّة وقضيّة المصرف الروماني Banca Romana. إنّها حكاية تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر ولا علاقة لها البتّة بالفضائح الحالية، ولكن كلّ فضيحة تذكّر بفضيحة أُخرى، تكفي الإشارة إلى بعض الشائعات، وسيُمكن الحديث عن مسألة المصرف الروماني كما لو أنّها وقعت أمس. أظنّ أنّ لوتشيدي سيعرف كيف يستمدّ منها مقالاً جيّداً».

«حسناً»، قال سيماي. «ماذا لديك يا كامبريا؟»

«خبر جاء من وكالة : تمثال آخر للعذراء يذرف الدموع في قرية صغيرة في الجنوب».

«رائع، استمدَّ منه مقالاً مُثيراً!»

«مقالاً بشأن الطابع التكراري للمُعتقدات. . . !»

«لا، أبداً ! ليست صحيفتنا مجلّة لجمعيّة المُلحدين والعقلانيّين. الناس يريدون المُعجزات، لا الشكوكيّة على وَفق الموضة. وسَرْدُ واقعة مُعجزة لا يعني التورّط بالقول إنّ الجريدة تُؤمن بذلك. يُقصّ الحدث، أو يُقال إنّ أحدهم كان شاهداً على الواقعة. أمّا كَونُ تماثيل العذراء تبكي بحقّ أم لا فذلك ليس شأننا. على القارئ أن يخرج باستنتاجاته، فإن كان مُؤمناً فسيُؤمن بذلك. العنوان على عدّة أعمدة».

أخذ الجميع يعملون بهمّة. ومررتُ أنا بالقرب من طاولة مايا، وهي مُنكبّة بكلّ تركيز على إعلاناتها الجنائزية، وقلتُ لها : «لا تنسَيْ أرجوكِ، عائلة أُسرَةُ في حُزن لا يُفيد معه عزاء.».

فأجابت : «والصديق فيليبارتو يضمّ إليه بشديد التأثّر الحبيبة ماتيلد والعزيزَيْن ماريو وسِرينا».

«الأفضل كتابة جيسّيكا بحرف *g* أو سَمانتا بلا حرف *h*». وأردفتُ ذلك بابتسامة تحفيز.

أمضيتُ ذلك المساء عند مايا جاعلاً تلك القبّة المملوءة بأبراج غير ثابتة من كُتب متراكمٍ بعضُها فوق بعضٍ مخدعاً غرامياً، كما يحدث أحياناً.

وبين تلك الأكوام من الكُتب كانت هناك أيضاً عدّة أُسطوانات، كلّها كلاسيكيّة مصنوعة من الفينيل، ورثتها من جدّيها. كنّا نبقى طويلاً مُستلقيَيْن نستمع إليها. في ذلك المساء وضعت مايا السيمفونية السابعة لبيتهوفن وكانت تقصّ عليّ وعيناها مُغرورقتان بالدموع أنّها منذ سنّ المُراهقة يغلبها البكاء عند سماع الحركة الثانية. «بدأ ذلك عندما بلغتُ السادسة عشرة: كنتُ دون نُقود وبفضل شخص كنتُ أعرفه تمكّنتُ من التسلّل مجاناً إلى الرُّواق الأعلى، ولكن لم يكن لي مقعد، فجلستُ على درجات السلّم وشيئاً فشيئاً كدتُ أستلقي. كان الخشب صلباً، ولكنّني لم أكن أشعر به. وعندما بدأت الحركة الثانية قلتُ في نفسي إنّي أودّ لو متُّ هكذا، وانفجرتُ بكاء. كنتُ مجنونة شيئاً ما. ولكنّني واصلتُ البكاء حتّى عندما صرتُ حكيمة».

أنا لم أبكِ قطّ عند الاستماع إلى الموسيقى، ولكنْ أثَّرَتْ فيَّ رؤيتها تبكي. بعد بضع دقائق من الصمت قالت مايا : «أمّا هو فبليدٌ أخرق». من هو؟ كيف مَن، شومان، قالت لي مايا كما لو كنتُ أُفكِّرُ في أشياء أُخرى. إنَّه انطواؤها، كالعادة.

«شومان بليد أخرق؟»

«نعم، فيض كبير من الرومانسيّة، ولا غرابة في ذلك إذا نظرنا إلى تلك الحقبة، ولكنه من صنع الدماغ. ولفرط إرهاقه لدماغه أصابه الخَبَل. أفهم لماذا عشقت زوجته برامز. طَبْعٌ آخر، وموسيقى أُخرى، ويُحبّ الحياة *bon vivant*، كما يقول الفرنسيّون. ولكن، انتبه، لستُ بصَدَد أن أقول إنّ روبرت لا يُساوي شيئاً، أعرف أنّه موهوب، ليس كأحَدِ أولئك المُتبجّحين».

«مثل مَن ؟»

«نعم، مثل ذلك الصخّاب ليسزت liszt، أو ذلك النوّاح رخمانينوف، كلاهما يصنع موسيقى رديئة، كلّها للإبهار، ولجَمْع النقود، حفلات موسيقيّة في سلّم دو الكبير للأغبياء، أشياء من هذا القبيل. لو بحثتَ لما وجدت أسطواناتهما في تلك الكومة. ألقيتُ بها. أيدٍ طُرحت للزراعة».

«ولكن، من تَرَينَ أنّه أبرعُ من ليسزت؟»

«ساتي، بلا شكٍّ، أو لا؟»

«ولكنك لا تبكين عند الاستماع لساتي، صحيح؟»

«لا بلا شكٍّ، لن يُريد ذلك. لا أبكي عند الاستماع للحركة الثانية من السيمفونية السابعة». ثمّ، بعد استراحة صغيرة، أضافت : «أصبحتُ منذ سنّ المراهقة أبكي أيضاً عند سماع بعض مقطوعات شوبان. لا أقصد الحفلات دون شكّ».

«لماذا لا تَهِمُّكِ الحفلات؟»

«لأنّك لو انتزعته من البيانو وأعطيته المخصرة لإدارة الأوركسترا، لما عرف كيف يتصرّف. ألَّف بيانيّات للآلات الوتريّة والنحاسيّة والطبلة. أَفَلَم تُشاهد ذلك الفيلم مع كورنل وايلد حيث دفقت من شوبان قطرة دم على ملامس البيانو؟ فماذا كان سيحدث لو أدارَ جوقةً، إذن لرَشَّ بالدّم عازف الكمان الأوّل؟»

كانت مايا لا تزال تُدهشني، حتّى بعد أن خِلتُ أنّي أعرفها جيّداً. كنتُ سأتعلّم معها كيف أفهم حتّى الموسيقى. في الأقلّ، على طريقتها.

كانت تلك آخر ليلة سعيدة. استيقظتُ أمس مُتأخّراً ولم أصل إلى مكتب التحرير إلّا في آخر الصباح. ما إن دخلتُ حتّى وجدتُ رجالاً بزيّ الشرطة يفتّشون في أدراج برغّادوتشيو، ورجلاً بالزيّ المدني كان يستنطق الحاضرين. وكان سيماي على باب مكتبه، وجهه بلون التراب.

اقترب مني كامبريا مُتحدّثاً إليّ بصوت خافت كما لو كان يريد إبلاغي سرّاً: «قتلوا برغّادوتشيو».

«ماذا؟ برغّادوتشيو؟ كيف؟»

«هذا الصباح في الساعة السادسة، بينما كان حارسٌ ليليّ يعود إلى بيته بدرّاجته، شاهد جُثّة مُلقاة ووجهها نحو الأرض، وبها جُرح في الظهر. في تلك الساعة أضاع بعض الوقت وهو يبحث عن مقهى مفتوح ليبلغ بالهاتف المستشفى والشرطة. طعنة واحدة، حدّد الطبيب الشرعي على الفور، ضربة واحدة بقوّة كبيرة. لم يتركوا السكِّين مغروساً في الجُثّة».

«ولكن أين؟»

«في زُقاق قريب من شارع تورينو، لا أذكر اسمه... أظنّه شارع بَنيارا أو بانييرا».

اقترب مني الشخص ذو الزيّ المدني وقدّم نفسه، كان مُفتّشاً في الأمن العامّ، سألني عن آخر مرّة رأيتُ فيها برغّادوتشيو. «هنا، في المكتب، يوم أمس» أجبتُه، «مثل جميع زُملائي، على ما أظنّ. ثمّ يبدُو لي أنّه خرج وَحْدَهُ، قبل الآخرين بقليل».

ثمّ سألني، كما سأل الآخرين على ما أظنّ، كيف قضيتُ مسائي. قلتُ له إنّي تناولتُ العشاء مع صديقة، وذهبتُ فوراً إلى الفراش. لا شكّ في أنّه لم تكن لي حُجّة غياب ولكن يبدُو أنّ لا أحد من الآخرين كانت لديه حجّة غياب ولم يظهر لي أنّ المُفتّش كان يهُمّه ذلك كثيراً. كان ذلك، كما يقولون في المُسلسلات البوليسيّة، ليس سوى سؤال تقليديٌّ.

كان بالأحرى يريد أن يعرف هل كان لبرغّادوتشيو بحَسَب علمي أعداء، أو كان، بوصفه صُحفيّاً، بصَدَد التحقيق بشأن قضيّة خَطِرة. هل تتصوّرون أنّني سأكشف له عمّا أعرف، ليس ذلك منّي صمتاً مُتواطئاً، بل بدأتُ أفهم أنّ من قتل برغّادوتشيو قد فعل ذلك بسبب التحقيق الذي كان يُجريه، وكان انطباعي

الفوري أنّه إنّ أظهرتُ أنّي أعرف شيئاً ما فسيعتقد أحدهم أنّ من المُفيد التخلّص مني أنا أيضاً. ينبغي ألّا أتّحدث في ذلك حتى إلى الشرطة، كنتُ أقول في نفسي، ألم يقل لي برغّادوتشيو في حكايته إنهم مُتورّطون جميعاً، حتّى الحرس الغابي؟ وحتّى إن كنتُ إلى يوم أمس أظنّه مُولعاً بالكذب، فإنّ اغتياله يضمن له الآن شيئاً من المصداقية.

كنتُ أتصبّب عرقاً، ولكن المفتّش لم ينتبه إلى ذلك، وعزا ذلك إلى مشاعر اللحظة.

«لستُ أدري»، قلت له، «ما كان يفعله بالتحديد برغّادوتشيو في هذه الأيام ربّما يمكن أن يخبرك الدكتور سيماي، لأنّه هو من يُوزّع المهمّات. يبدُو لي أنّه كان مَعْنِيّاً بإعداد تحقيق بشأن البِغاء، لستُ أدري هل هذا مفيدٌ».

«سنرى ذلك»، قال المُفتّش، ثمّ مرّ لاستنطاق مايا، التي كانت تبكي. لم تكن تُحبّه، كنتُ أقول في نفسي، ولكن المقتول مقتول، يا للعزيزة المسكينة. كنتُ أُحسّ بالشفقة، لا على برغّادوتشيو، بل عليها، هي التي كانت دون شكّ تُحسّ بالذنب لأنّها أساءت الحديث عنه.

في تلك اللحظة أشار إليّ سيماي بأن ألحق به إلى مكتبه. «كولونّا»، قال لي، وهو يجلس إلى مكتبه ويداه ترتعشان، «أنتَ تعرف ما كان برغّادوتشيو مَعْنِيّاً به».

«أنا أعرف ولا أعرف، لوَّحَ لي بشيءٍ ما ولكنّني لستُ على يقينٍ من.»..

«لا تكن غبيّاً، يا كولونّا، لقد فهمتَ جيّداً أنّ برغّادوتشيو اغتيل لأنّه كان يوشك أن يُفشي بعض الأسرار. لستُ أدري حتّى الآن ما الصحيح من بين هذه الأشياء وما الذي اختلقه، ولكن من المُؤكّد أنّه إذا كان تحقيقه يتعلّق بمئة قضيّة، فقد أصابَ في إحداها في أقلّ تقدير، وبسبب تلك القضيّة أُجبر على الصمت. ولكن ما دامَ قد قصَّ أمس حكايته عليّ أنا أيضاً، فأنا أيضاً أعرف تلك القضيّة، وإن كنتُ أجهل أيّها المقصود. وقد قال لي إنّه كاشَفَكَ، فأنتَ أيضاً تعرف. ومن ثَمَّ فكلانا في خطر. وليت هذا كان كافياً، ولكن الكومندتور فيمركاتي بَلَغَتْه قبل

الآن بساعتَيْن مُكالمة هاتفيّة. لم يقل لي مَن المتَّصِل، ولا بشأن ماذا، ولكن فيمركاتي رأى أنّ كلّ مشروع جريدة **الغد** صار خَطِراً حتى عليه، وقرّر إنهاء المسألة. وقد أرسل لي الصكوك لتسليمها إلى المُحرّرين، سيحصلون على ظرف فيه أجر شهرين، وكلمات إعفاء لطيفة. كلّهم يعملون بلا عقد، ولن يُمكنهم الاعتراض. لا يعرف فيمركاتي أنّك أيضاً في خطر، وأظنّ أنّه سيَصْعُبُ عليك التجوال في الخارج لصَرف الصكّ، ولذا سأُمزّقه، عندي رصيد في الخزانة ووضعتُ لك في الظرف راتب شهرَيْن نقداً. في غُضون يوم غد ستُفرغ هذه المكاتب. أمّا ما يتعلّق بنا نحن الاثنيْن، فانْسَ اتّفاقنا، والمهمّة الموكَلَة إليك، والكتاب الذي كان ينبغي أن تكتبه. **الغد** سيموت: هذا اليوم. ولكن، وإن انتهت جريدة **الغد**، فأنا وأنت ما زلنا نعرف أكثر ممّا ينبغي».

«ولكنّني أظنّ أنّ برغّادوتشيو تحدّث أيضاً إلى لوتشيدي.»..

«هو لم يفهم إذن شيئاً. تلك كانت غلطته. لقد حدس لوتشيدي أنّ صديقنا المُتوفَّى كان يشتغل على قضيّة خَطِرة وذهب لتوّه للإعلام... إعلام مَن؟ لستُ أدري، ولكن لا شكّ في أنه شخص رأى أنّ برغّادوتشيو باتَ يعرف أكثر ممّا ينبغي أن يعرف. لن يمسَّ أحد لوتشيدي بضرر، فهو في الشقّ الآخر. أمّا نحن فقد يُصيبنا مكروه. أقول لك ما سأفعله أنا. ما إن تترك الشرطة هذا المكان، فسأضع ما بقي من نُقود في حقيبة، وأُهْرَع إلى المحطّة لألحق بأوّل قطار مُتّجه إلى لوغانو. دون أمتعة. أعرف هنالك شخصاً بإمكانه أن يُغيّر المُعطيات الشخصيّة لأيّ شخصٍ: اسم جديد، جواز سفر جديد، إقامة جديدة، سنرى أين. سأختفي قبل أن يعثر عليّ المُجرمون الذين قتلوا برغّادوتشيو. أرجو أن أسبقهم في الوقت. وطلبتُ من فيمركاتي أن يدفع لي مُستحقّاتي بالدولار في الـ Crédit Suisse. أما أنت، فلستُ أدري بِمَ أنصحك، ولكن قبل كلّ شيء أغلق على نفسك بابَ البيت ولا تتسكّع في الشوارع. ثمّ جِدْ لنفسك طريقة للاختفاء في مكان ما، لو كنتُ مكانك لاخترتُ بلداً في أُوروبا الشرقية، حيث لم يوجد قطّ «البقاء في الخلف».

«ولكن هل تظنّ أنّ كلّ هذا من أجل «البقاء في الخلف»؟ إنّه شيء معروف لدى الجميع. أو بشأن مُوسُوليني؟ إنّها قصّة مُضحكة لن يُصدّقها أحد».

«والفاتيكان؟ حتّى إن لم تكن القصّة حقيقيّة، فستقول كلّ الصُّحف إنّ الكنيسة أسهمت في فرار الدوتشي سنة 1945 ووفّرت له ملاذاً مُدَّةً تقربُ من خمسينَ سنة. وزيادةً على كلّ المُشكلات التي تُواجهها الآن بفضائح سيندونا، وكالفي ومارتشينكُس وغيرهم، وقبل أن يُقامَ الدليل على أنّ قضيّة مُوسُّوليني أكذوبة، ستملأ الفضيحة صفحات الجرائد العالمية. لا تَثِقْ بأحد، يا كولونّا، أغلقْ على نفسك باب البيت في الأقلّ هذه الليلة، ثمّ فكّر في الاختفاء. بإمكانك العيش بضعة أشهر، وإذا ذهبت، مثلاً، إلى رومانيا، فكلّ شيء هناك بخس وسيُمكّنك المبلغ الذي في الظرف والذي قدره اثنا عشر مليون ليرة من العيش بعض الوقت في رَغَد، ثمّ تدبَّر أمرك. إلى اللقاء يا كولونّا، يُؤسفني أنّ الأمور انتهت على هذا النحو، فهي مثل تلك الطرفة التي قصّتها علينا صديقتنا مايا بشأن راعي بقر أبيلين: خسارة، قد أخفقنا. اتركني أعدّ العُدّة للرحيل حين يترك أعوان الشرطة هذا المكان».

كان بودّي لو اختفيتُ في الحال ولكن ذلك المُفتّش الملعون واصل استنطاق الجميع، دون الخُروج بنتيجة، إلى أن حلّ المساء.

مررتُ بالقرب من طاولة لوتشيدي، الذي كان بصَدَد فتح ظرفه، فسألته: «هل كوفئتَ كما ينبغي؟»، ولا شكّ في أنّه فهم إلامَ أُشير.

نظر إليّ من أسفل إلى أعلى واكتفى بسؤالي: «ولكن ماذا قال لك برغّادوتشيو بالضبط؟»

«أعرف أنّه كان يقتفي أثراً ما، ولكنّه لم يُرد البتّة الكشف عنه».

«حقّاً؟»، كان تعليقه، «يا للتَّعِس، تُرى فيمَ تورّط؟». ثمّ أدار وجهه إلى الناحية الأُخرى.

ما إن سمح لي المُفتّش بالذهاب شارطاً عليَّ الشرط المُعتاد وهو أن أبقى على ذمّة التحقيق، حتى همستُ لمايا: «اذهبي إلى البيت وانتظري أخباري، ولكنّني لا أظنّ أنّه سيُمكنني مُخاطبتك بالهاتف قبل صباح الغد».

نظرتْ إليّ بارتياع: «ولكن ما صِلَتُك أنت بالأمر؟»

«لا شيء، لا صِلَةَ لي، ماذا ظننتِ، ولكنّني مُتوتّر، هذا طبيعي».

«وماذا يحدث؟ أعطوني ظرفاً فيه صكّ وبطاقة شكر لتعاوني الثمين».

«الجريدة أُغلقت، سأفسّر لكِ كلّ شيء».

«ولكن لِمَ لا تُفسّر لي الآن؟».

«غداً، أقسمُ أنّني سأقول لكِ كلّ شيء. ابقي هادئة في البيت. أرجوكِ، خُذي بنصيحتي».

أخذتْ بنصيحتي، بعينَيْن مُتسائلتَيْن ومُغرورقتَيْن بالدموع. وتركتها أنا دون أن أَزيدَ شيئاً.

أمضيتُ الأُمسية في البيت، دون أكل، وأفرغتُ نصف زُجاجة ويسكي، وأنا أفكّر في ما ينبغي لي فعله. ثمّ أحسستُ بالتعب فتناولتُ حبّة ستيلنوكس واستسلمتُ للنوم.

وهذا الصباح، لا يسيل الماء من الحنفيّة.

17
السبت 6 يونيو/حزيران عام 1992، الساعة 12 ظُهراً

ها أنا ذا الآن أعدتُ تركيب كلّ شيء. أحاول أن أُجمّع أفكاري. من «هؤلاء»؟ لقد قال سيماي ذلك، لقد صفَّ برغّادوتشيو، مخطئاً أو مصيباً، مجموعة من الوقائع. ما الواقعة التي، من بين الوقائع، يُمكن أن تُقلق أحداً ما؟ حكاية مُوسُّوليني؟ ولكن من ليس ضميره في هذه الحالة مطمئناً هو الفاتيكان، وبعض المُتواطئين في مُحاولة انقلاب بورغيزي الذين كانوا لا يزالون يحتلّون مناصب مُهمّة في الدولة (ولكن بعد أكثر من عشرين سنة سيكونون كلّهم قد ماتوا)، المُخابرات (أيّها)؟ أو لا، لا يتعلّق الأمر إلّا بمجنون مريض يعيش خائفاً ويحنّ إلى الماضي ويصنع كلّ شيء وحده، وربّما مُتسلّياً حتّى بتهديد فيمركاتي، كما لو كانت تسانده من الخلف، لستُ أدري، الـ «Sacra Corona Unita»*. هو مجنون إذن، ولكن إذا بحث عنك مجنون لقتلك فهو خَطِر تماماً مثل سليم العقل، وقد يكون أخطر. على سبيل المثال، سواء «هؤلاء»، أو المجنون وحدَهُ، فقد دخل أحدهم بيتي هذه الليلة. وإذا أمكنه الدخول مرّة فسيُمكنه ذلك مرّة ثانية. لذا لا ينبغي لي أن أبقى هنا. وبعد، هذا المجنون أو «هؤلاء» هل هم موقنون بأني أعرف حقيقة شيئاً ما؟ هل قال برغّادوتشيو شيئاً

---

* Sacra Corona Unita [التاج الواحد المقدّس]، جمعيّة إجرامية من جهة بوليا في جنوب إيطاليا شبيهة بالمافيا الصقليّة تتمثل في اتحاد المافيوزيّين المحليّين والعصابات الإجرامية لفرض سيطرتها على المنطقة، تنشط في بريندیزي وليتشي وتارنْتو خصوصاً. [م].

عنّي للوتشيدي؟ لا أظنّ ذلك، أو لا أظنّ ذلك تماماً، بالنظر إلى الحوار الأخير الذي تبادلته مع ذلك الجاسوس. ولكن هل يُمكن أن أَعُدَّ نفسي في مَأمَنٍ؟ لا، دون شكٍّ. الهرب من هنا إلى رومانيا ليس بالأمر السهل، لعلّ الأفضل أن أنتظر الأحداث، وربّما قراءة ما تقوله جرائد الغد. وإذا لم تتحدّث عن مقتل برغّادوتشيو، فإنّ الأمور أبشع ممّا أتصوّر، فذلك يعني أنّ شخصاً مّا يُحاول دفن كلّ القضيّة. ولكن لا شكّ في أنّه يلزمني الاختفاء بعض الوقت. أين، فكلّ شيءٍ خَطِرٌ حتّى وضع قدمي في الخارج؟

فكّرتُ في مايا وفي الملجإ بأورتا. أظنّ أنّ حكايتي مع مايا لم تُثِر انتباه أحد، فهي ليست مُراقبةً إذن. ليست هي مُراقبةً، ولكن هاتفي هو المراقب، لذا لا يُمكنني الاتصال بها من البيت، وإذا أردتُ بها من الخارج كان عليّ أن أخرج.

تذكّرتُ أنّه يُمكن من فِناء بيتي الدخول من باب المراحيض إلى المقهى في زاوية الشارع. وتذكّرتُ أيضاً أنّ في قاع الفِناء باباً حديديّاً مُغلقاً منذ عشرات السنين. قصّ عليّ الحكاية صاحب البيت عندما أعطاني مفاتيح الشقة. ومع مفتاح الباب الكبير السفلي ومفتاح الشقة مفتاح آخر، قديم ومُغطّى بالصدأ: «لن يصلح لك»، قال صاحب البيت مُبتسماً، «ولكن منذ خمسين عاماً كلّ ساكن يملك هذا المفتاح. الحال هو أنّه في زمن الحرب لم يكن لدينا هنا ملجأ من الغارات الجويّة، في حين يُوجد ملجأ كبير في البناية المُقابلة، تلك التي تُطلّ على شارع كوارتو داي ميلّي، المُوازي لشارعنا. لذا فُتح هذا الممرّ في قاع الفِناء لتمكين الأُسَر من الوصول بسرعة إلى الملجإ عند انطلاق صفّارات الإنذار. الباب يبقى دائماً مُغلقاً، سواء من هذه الجِهة أو من تلك، ولكن كلّ ساكن يملك مفتاحاً، وهو كما ترى أصبح بعد نحو خمسين سنة قد أكله الصدأ. لا أظنّ أنّك ستستعمله يوماً، ولكن ذلك الباب يظلّ في نهاية الأمر ممرّاً صالحاً للفرار في حال اندلاع حريق. ضَعْه إن أردت في درج من الأدراج، وانسَه».

هذا ما يجب أن أفعل. نزلتُ إلى الأسفل، ودخلتُ من الخلف إلى المقهى، صاحب المقهى يعرفني، وكنتُ قد فعلتُ ذلك مرّات أُخرى. نظرتُ

حولي، في الصباح لا يكاد يوجد أحد، زوجان من المُسنّين جالسان إلى طاولة أمام فنجانَيْ قهوة وكعكتَيْن، لا يبدوان من رجال المُخابرات. طلبتُ قهوة مُضاعفة، كان عليّ أن أُفيق، ودخلتُ إلى مقصورة الهاتف.

أجابتني مايا على الفور وهي غاية في الاضطراب، فطلبتُ منها أن تصمت وأن تستمع إلى ما سأقوله.

«إذن، انتبهي ولا تُلقي أيّ سؤال. ضعي في حقيبة بعض الأمتعة لقضاء يومَيْن في أورتا، ثمّ خُذي سيارتكِ. خلف بنايتي، في شارع كوارتو داي ميلّي، لستُ أدري في أيّ عدد بالضبط، باب كبير، في مستوى شقتي تقريباً. قد يكون مفتوحاً إذ يبدُو لي أنّه يفتح على فِناء يوجد فيه مُستودع لا أعرف طبيعته. ربّما يمكنك الدخول، أو انتظاري في الخارج. اضبطي ساعتكِ على وفق ساعتي، سيُمكنكِ الوصول في غضون ربع ساعة، ليكُن لقاؤنا إذن هناك بعد ساعة بالضبط. إذا كان الباب الكبير مُغلقاً، فسأكون في انتظاركِ في الخارج، ولكن كوني هناك في الموعد لأنّني لا أريد البقاء طويلاً في الشارع. أرجوكِ، لا تسأليني. خذي الحقيبة، اصعدي إلى السيارة، احسبي جيّداً الوقت وتعالي. بعد ذلك سأقول لكِ كلّ شيء. لا أظنّ أنّه سيتبعكِ أحد، ولكن للاحتياط ألقي من حين إلى آخر نظرة على المرآة الداخليّة وإذا تبيّن لك أنّ ثَمّة مَن يتبعكِ فعوِّلي على مُخيّلتكِ، دُوري دوراتٍ لامعقولة، أضيعي أثركِ، سيكون صعباً ما دمتِ مُحاذية للقناة، ولكن بعد ذلك لديكِ عدّة طرائق للتملّص بصفة فجائية، مثل أن تمرّي عند اشتعال الضوء الأحمر، بحيث يُضطرّ الآخرون إلى الوقوف. إنّي أثق بكِ يا حبيبتي».

كان بإمكان مايا أن تكون نشّالة مُسلّحة لأنّها تصرّفت بدقّةٍ كاملةٍ، وفي الساعة المُتّفق عليها كانت قد دخلت من الباب الكبير، مُهتاجة ولكنها راضية.

قفزتُ إلى داخل السيارة، وأريتها من أين يجب أن تنعطف، بحيث تصل بأقصى سرعة إلى آخر شارع تشارتوزا، وهنالك تعرف وحدها كيف تصل إلى الطريق السيّارة في اتّجاه نوفارا وتعرف خيراً مني كيف الخروج نحو أورتا.

لـم أَكَدْ أنطق بكلمة طَوَال الرحلة. عند وصولنا إلى البيت قلتُ لها إنّ معرفتها بما سأقصّه عليها قد يجعلها في خطر. هل تُفضّل الثقة بي وجهل الباقي؟ مُستحيل، ولا نقاش في ذلك: «اعذرني»، قالت لي، «أنا لا أعرف حتّى الآن مَن تخاف أو ما تخاف ولكن، إمّا ألّا يكون لدى أحد علمٌ بأنّنا معاً فلا خطر عليّ إذن، وإمّا أن يكونَ لدى أحدٍ ما عِلمٌ بذلك وسيقتنع بأنّي صرتُ أعرف الآن. هاتِ ما عندك، وإلّا فكيف سأتمكّن من التفكير في ما تفكّر فيه أنت؟»

جريئة. كان عليّ أن أقصّ عليها كلّ شيء، وهي في نهاية الأمر قد صارت جزءاً من لحمي ودمي، كما يُريد الكتاب المقدَّس.

18
الخميس 11 يونيو/ حزيران

في الأيام الماضية تحصّنتُ بالمنزل وكنت أخاف الخُروج. «هيّا»، كانت تقول لي مايا، «لا يعرفك أحد هنا، ومهما يَكُنْ أولئك الذين تخشاهم، فهم لا يعرفون أنّك هنا.»..

«لا يُهمّ»، أجبتُها، «من يدري؟»

شرعت مايا تعتني بي كما لو كنتُ مريضاً، ناولتني أقراصاً مضادّة للقلق، وكانت تمسح رقبتي وأنا أجلس إلى النافذة أنظر إلى البُحيرة.

في صباح يوم الأحد ذَهَبَتْ باكراً كي تشتري بعض الصُّحف. كان مقتل برغّادوتشيو في صفحة الأخبار المُتفرّقة، دون إلحاح كبير: مقتل صُحفي، يُحتمل أنّه كان يُجري تحقيقاً في سوق البِغاء، وعاقبه أحد المُتاجرين بالجنس.

يبدو أنّهم تقبّلوا تلك الفرضيّة، متابعين ما سَبَقَ أن صرّحتُ به أنا، أو ما لوَّحَ به سيماي. لا شكّ في أنهم لا يُبالون بنا نحن المُحرّرين، ولم يفطنوا حتى لاختفائي أنا وسيماي. ومن ناحية أُخرى، إنْ عادوا إلى مكتب التحرير فسيجدونه فارغاً، وذلك المُفتّش لم يُسجّل حتى عنواناتنا. أحسنتَ يا ميغري*. ولكنّني لا أظنّه يهُمّهُ أمرنا. كانت فرضيّة البِغاء أيسر، إنه أمر اعتيادي. لا شكّ في أنّه كان بإمكان كوستانتسا أن يقول إنّه هو الذي كان مشغولاً بأمر هؤلاء السيّدات، ومن المحتمل،

* Maigret، مفتّش وبطل روايات بوليسية ألّفها جورج سيمنون [Georges Simenon]. [م].

أن يكون قد اقتنع هو أيضاً بأنّ لمقتل برغّادوتشيو صلةً بذلك القطاع بطريقة ما واعتراه هو أيضاً الخوف على نفسه. ولذا لزم الصمت.

في اليوم اللاحق اختفى برغّادوتشيو حتّى من صفحة الأخبار المُتفرّقة. للشرطة دون شكّ قضايا على تلك الشاكلة لا تُحصى ولا تُعدّ، والميّت لم يكن سوى مُجَمِّع أخبار من الصنف الرابع. من جُملة المشتَبَه فيهم كما يُقال «*Round up the usual suspects*»، وانتهى الأمر.

وكنتُ أنا عند الغُروب أنظر مُكدَّرَ الخاطر إلى البحيرة المُسودّة. كانت جزيرة سان جوليو، الساطعة عادة تحت الشمس، تبرز من المياه مثل جزيرة أموات بوكلين*.

قرّرت مايا أن تنفض عنّي الغبار ورافقتني في نزهةٍ على الجبل المُقدّس. لم يسبق لي أن زرته، وكان مجموعة من المصلّيات المُتراصّة على جوانب الهضبة، تنفتح فيها ديورامات صوفية لتماثيل متعدّدة الألوان طبيعيّة الحجم، وملائكة ضاحكة ومشاهد من حياة القديس فرانشسكو خاصّةً. واأسفاه، كنتُ أرى في مشهد أمّ تضمّ إليها مخلوقاً مُتوجّعاً ضحايا مُؤامرة بعيدة، وفي اجتماع مَحْفَلي مع البابا، وكاردينالات من مختلف الرُّتب وكابوتشينيّين عابسين، كنتُ أرى مَجْمعاً للمصرف الفاتيكاني يُبرمج للإمساك بي، ولم تكن كلّ تلك الألوان وكلّ تلك الأشكال الخَزَفيّة الأُخرى كافية لجعلي أُفكّر في مملكة السماء: كان كلّ شيء يبدُو رُموزاً، مُتنكّرة بدهاء، لقُوى جحيميّة كانت تخطّط في الخفاء. بل بلغ بي الأمر إلى أن أتخيّل أنّ تلك الصُّور تتحوّل في أثناء الليل إلى هياكل عظميّة (ففي نهاية الأمر، ما الجسم الوردي للملاك إن لم يكن غلافاً زائفاً يُخفي وراءه هيكلاً عظميّاً، وإن كان سماويّاً؟) وتُشارك في الرقصة المأتميّة للقديس سان برناردينو صاحب العِظام.

لم أكن أظنّ حقيقةً أنّي جبانٌ بهذا القدر، وكنتُ أخجل من الظُّهور على تلك الحالة أمام مايا (ها هو ذا، كنتُ أقول في نفسي، الآن ستهجرني هي أيضاً)، ولكن

* أرنولد بوكلين [Arnold Böcklin] رسّام ونحّات سويسريّ (1827–1909) وجزيرة الأموات مجموعة من خمس لوحات تُمثّل رحلة المُتوفّين إلى جزيرة الأموات.

جُثّة برغّادوتشيو المُلقاة على وجهها في شارع بانييرا كانت ماثلة دائماً أمام عينيّ.

كنتُ آمل أحياناً أن يحدث شقّ في ستار الفضاء-الزمن (كما كان يقول فونّيغوت، أن أكون في عدّة أماكن في الوقت نفسه* وأن يتجسّد في شارع بانييرا في أثناء الليل بوجيا، المُجرم الذي عاش قبل الآن بمئة سنة، ليتخلّص من ذلك الدخيل. ولكن هذا لا يُفسّر الاتصال الهاتفي الذي تلقّاه فيمركاتي، وكانت تلك هي الحُجّة التي أُواجه بها مايا عندما تقول لي إنّ مقتله ربما لا يعدو أن يكون جرماً تافهاً، فمن النظرة الأولى يظهر أنّ برغّادوتشيو كان قذراً، ليغفرْ له الربّ، ولعلّه حاول ابتزاز إحدى تلك المُومسات فانتقم منه قَوّادها، أمر عاديّ من تلك الأمور الصغيرة التي لا ينبغي لقاضٍ أن يُعنى بها *de minimis non curat praetor*.

«صحيح»، كنتُ أكرّر، «ولكن القوّاد لا يُهاتف ناشراً ويأمره بإغلاق الجريدة!»

«ولكن من قال لك إنّ فيمركاتي تلقّى تلك المُكالمة الهاتفية حقيقة؟ لعلّه ندم على تأسيس ذلك المشروع الذي صار يُكلّفه كثيراً، وما إن سمع بمقتل أحد أعضاء هيئة التحرير حتى انتهز الفرصة لتسويغ إغلاق جريدة **الغد**، ولدفع أجر شهرَيْن فقط من الرواتب بدلاً من أجور سنة... أو هذا الاحتمال الآخر: قلتَ لي سابقاً إنّ فيمركاتي كان يريد نشر جريدة **الغد** لكي يقول له أحدهم كُفّ عن ذلك وسنقبلك في صالون الشُّرفاء. إذن، افترض أنّ شخصاً مثل لوتشيدي أبلغ هؤلاء، في صالون الشُّرفاء، أنّ جريدة **الغد** ستنشر تحقيقاً مُحرجاً، فهاتفوا فيمركاتي قائلين له: طيّب، اتركْ تلك الجريدة القذرة، وسنقبلك في نادينا. ثمّ قُتِل برغّادوتشيو بصفة مُستقلّة، رُبّما على يد مجنون، وها أنت ذا قد أزحتَ مسألة المُكالمة الهاتفية لفيمركاتي».

«ولكنني لم أُزح المجنون. فمن يكون إذن قد دخل ليلاً إلى بيتي؟»

«هذه حكاية قصصتَها أنت عليّ. كيف يُمكنك التثبُّت من أنّ ثَمَّة من قد دخل إلى بيتك؟»

«فمن الذي قطع الماء إذن؟»

---

* العبارة هي لـ Kurt Vonnegut، كاتب أمريكي (1922-2007).

«ولكن استمع إليّ. ألا تأتي خادمة لتنظيف البيت؟»

«مرّة في الأسبوع فحَسْب».

«حسناً. متى كانت آخر مرّة جاءت فيها؟»

«إنّها تأتي دائماً عشيّة الجمعة. بالمُناسبة، كان اليوم الذي علمنا فيه بمقتل برغّادوتشيو».

«وإذن؟ ألا يُمكن أن تكون هي من قطع الماء، لأنّ تساقط تلك القطرات في الدشّ كان يضايقها بالفعل؟»

«ولكنّني كنتُ في مساء تلك الجمعة قد شربتُ كأس ماء لابتلاع قرص المنوّم.»..

«قد شربت نصف كأس إذن، وهو يكفيك. حتى عند انحباس الماء يبقى دائماً في الأنبوب قَدْر ضئيل وكلّ ما في الأمر أنك لم تفطن إلى أنّ ذلك الماء هو آخر ما خرج من حنفيّتك. هل شربتَ مرة أخرى في أثناء الليل؟»

«لا، بل لم أتعشَّ، أفرغتُ نصف قارورة من الويسكي فقط».

«أرأيتَ؟ لا أقول إنّك تهذي، ولكن مع وجود هاجس أنّ برغّادوتشيو مات مقتولاً ومع ما قاله لك سيماي، فكّرتَ على الفور في أنّ أحدهم دخل إلى منزلك ليلاً. ولم يكن ذلك، سوى الخادمة، في العشيّة».

«ولكن برغّادوتشيو قد قُتِلَ بحقّ!»

«لقد رأينا أنّ هذه الحادثة يُمكن أن تكون قصّة أُخرى. لذا من المُحتمل أن لا أحد يبحث عنك».

أمضينا الأيّام الأربعة الأخيرة نجترّ الأشياء نفسها، نصنع فرضيّات لنُلغي أخرى، أنا دائماً أكثر سوداويّة، ومايا دائماً أكثر إخلاصاً، لا تملّ الذهاب والإياب بين القرية والبيت لتوفير المؤونة الطازجة وقوارير الويسكي، التي تجرعّتُ منها ثلاثاً. ضاجعتها مرّتَيْن، ولكنّني فعلتُ ذلك وأنا فريسة للغضب، كما لو كنتُ أريد التنفيس عن نفسي، دون متعة. ومع ذلك كنتُ أحسّ أنّني أزداد حُبّاً لتلك المخلوقة

التي تحوّلت من شحرور محتاج إلى حماية، إلى ذئبة مخلصة، مستعدّة لعضّ كلّ من يحاول إلحاق الضرر بي.

إلى أن وصلنا إلى هذا المساء، عندما شغّلنا جهاز التلفاز وبمحض المصادفة تقريباً وجدنا أنفسنا أمام برنامج لكورّادو أوجياس* يقدّم فيه إنتاجاً إنكليزيّاً بثّته الـ «بي بي سي» في اليوم السابق بالذات عنوانه **عمليّة غلاديو**.

شاهدنا البرنامج مذهولَينِ، دون أن ننبس بحرف.

كان يبدُو أنّه شريط أخرجه برغّادوتشيو، فيه كلّ ما تخيّله برغّادوتشيو، وأكثر، ولكن الكلمات كانت مفسّرة بصور وبوثائق أخرى، وكانت صادرة عن أشخاص منهم حتّى من له بعض الشهرة. وتنطلق الحكاية من أفعال السوء التي مارسَها تنظيم الـ «البقاء في الخلف» في بلجيكا، ويُكتشف أنّ وجود غلاديو كان يُصرَّح به لرؤساء المجلس، ولكن لأولئك الذين تثق بهم وكالة الاستخبارات المركزيّة فقط [CIA]، ففنفاني ومورو، على سبيل المثال، لم يعلما بذلك، وكانت تظهر على طول الشاشة بعض تصريحات كبار الجواسيس مثل أنّ «L'inganno è uno stato della mente, ed è la mente di uno Stato» [الخدعة حالة عقل وهي عقل الدولة]. وكان يظهر طوال مدّة البرنامج كلّه (ساعتَيْن ونصفاً) فينشيغورّا [Vinciguerra] الذي كان يكشف عن كلّ شيء، حتّى عن أنّه قبل انتهاء الحرب طلبت مصالح قوات التحالف من بورغيزي ورجال فيلقه العاشر Decima Mas التوقيع على التزام التعاون في المستقبل لمواجهة غزو سوفياتي، وكان مختلف الشهود يؤكّدون بكلّ سذاجة أنّ من الطبيعي لعمليّة كعمليّة غلاديو ألا يمكن فيها إلا تجنيد فاشيّين سابقين - ومن جهة أخرى، قد رأينا كيف ضمنت الإدارة الأميركية عدم العقاب في ألمانيا حتّى لجلّاد مثل كلاوس باربي*.

---

* Corrado Augias: من أهمّ منشّطي الحياة الثقافية في إيطاليا وشخصيّة تلفزيّة مشهورة. [م].

* Klaus Barbie، كان في الشرطة الألمانية في أثناء احتلال فرنسا مقرّه مدينة ليون وعُرف بـ «جلّاد ليون». بعد أربعين عاماً أمضاها مختفياً في بوليفيا أُمسِكَ به وحُكِمَ عليه في فرنسا بالسجن المؤبّد، حيث مات سنة 1991. [م].

وظهر مرّات متعدّدة ليتشيو جيلّي، بريئاً مثل الثلج وهو يؤكد إعانته لِمُخابرات التحالف، ولكن فينشيغورّا عرّفه بأنّه كان فاشيّاً صادقاً، وتحدّث جيلّي عن أعماله، وعن اتصالاته، وعن مصادر أخباره، دون التفاتٍ إلى كوننا نعلم جيداً أنّه كان دائماً طَرَفاً في لُعبة مُزدوجة.

وقصّ كوسّيغا كيف زوّدوهُ في سنة 1948، وهو لا يزال مُناضلاً كاثوليكيّاً شابّاً، برشّاش ستان وبقنابل يدويّة، وكان متأهّباً للتدخل في حال لم يقبل الحزب الشيوعي نتيجة الاقتراع. ثمّ ظهر فينشيغورّا ليُؤكّد بكلّ طمأنينة أنّ كلّ اليمين المُتطرّف سخَّرَ نفسه لاستراتيجية التوتّر لإعداد الجمهور العريض إعداداً نفسيّاً لتقبّل إعلان حالة الطوارئ، ولكنه كان يُوضّح جيّداً أنّ «النظام الجديد» و «الطليعة القومية» كانا يعملان بالتنسيق مع مُختلف مسؤولي الوزارات. والشيوخ (senators) الذين كانوا يقودون التحقيق البرلماني قالوا بكل صراحة إنّ رِجالَ المُخابرات والشرطة عند حدوث كلّ عمليّة قتل أو تفجير كانوا يخلطون الأوراق لشلّ التحقيقات القضائيّة. ووضّح فينشيغورّا أنّ عملية بياتسا فونتانا لم يكن وراءَها الفاشيّون الجدد الذين وُصفوا بأنّهم مُخطّطو العمليّة الدمويّة فحسبُ، أي فريدا وفانتورا، بل إنّ العمليّة كلها كانَ يُديرُها من طرف مكتب الشؤون السريّة بوزارة الداخلية. ثمّ أسهب في الحديث عن الطرائق التي استعملها كلٌّ من «النظام الجديد» و «الطليعة القومية» لاختراق مجموعات اليسار ولدفعها لممارسة اعتداءاتٍ إرهابية. وأكّد العقيد أوزوالد لي وينتر، وهو رجل من الوكالة المركزيّة للاستخبارات [CIA]، أنّ «الألوية الحُمْر»* لم تُختَرَقْ فحسبُ، بل كانت تتلقّى الأوامر من الجنرال سانتوفيتو التابع للمُخابرات الإيطالية [SISMI].

وفي حوار مُذهل، تساءل أحد مُؤسّسي «الألوية الحُمْر»، فرانشسكيني، الذي كان من أوائل المعتقلين، وهو فريسة للارتياع، ألا يمكن أنّه في تصرّفه بحسن نيّة، كان في الواقع قد حرّكَتْهُ جهةٌ ما نحو أهداف أُخرى. وأكّد فينشيغورّا

* Brigate rosse: منظمة إرهابية من اليسار المتطرّف أُسِّسَتْ سنة 1970 لقيادة الثورة المسلّحة من أجل الشيوعيّة. [م].

باستمرارٍ أنّ «الطليعة القومية» أُوكِلَ إليها توزيعُ مناشير مُوالية لماو، لخَلْق الرعب من أعمال مؤيدة للصين.

ولم يتردّد أحد قادة «غلاديو»، الجنرال إنزيريلّي، في القول إنّ مخازن السلاح كانت في ثكنات القربينيّين وإنّ الغلاديّين يُمكنهم الذهاب إلى هناك لأخذ ما يلزمهم مُظهرين (كما في المسلسلات البوليسية) نصف ورقة نقديّة قيمتها ألف ليرة علامةً تعريفيّةً. وانتهى البرنامج بلا شكٍّ بقضيّة مورو، وكيف كان بعض عُملاء المخابرات يسيرون في شارع فاني عند ساعة الاختطاف، وسَوَّغ أحدهم وُجوده في ذلك المكان بأنّه كان مَدْعوّاً إلى الغداء عند صديق، ولا يُدرَى لماذا ذهب إلى ذلك الموعد في التاسعة صباحاً.

ولا شكّ في أنّ الرئيس السابق للوكالة المركزية للاستخبارات [CIA]، كولبي، نفى كلّ ذلك، ولكن عملاء آخرين في الوكالة تحدّثوا بوجه مكشوف عن وثائق تظهر فيها بكلّ التفاصيل الرواتب التي كانت الوكالة تدفعها إلى شخصيّات مشارِكةٍ في الاعتداءات الدمويّة، مثال ذلك خمسة آلاف دولار شهريّاً لميتشيلي.

وجاء في التعليق خلال البرنامج التلفزي أنّ كلّ هذه المُعطيات ربّما لا تكون سوى دلائل أوليّة، لا يُمكن إدانة أحدٍ استناداً إليها، ولكنّها كافية لبعث القلق في الرأي العام.

كنتُ أنا ومايا مذهولَيْنِ. لقد فاقت الكُشوف كلّ خيالات برغّادوتشيو الشديدة الغرابة. «أكيد»، كانت مايا تقول، «لقد ذكّرك هو أيضاً أنّ هذه الأخبار كانت رائجة منذ زمن طويل، إلا أنها قد مُحِيت من الذاكرة الجماعيّة، كان يكفي الذهاب إلى الأرشيف وإلى مكتبة الدوريات لإعادة تركيب كلّ قِطَع الفُسيفساء. أنا أيضاً، حتى عندما عملتُ في **الصداقات الحميمة** لا عندما كنتُ طالبة فحسبُ، كنتُ أقرأ الصُّحف، ماذا تظنّ، وأنا أيضاً سمعتُ عن كلّ هذه الأشياء، إلا أنّني كنتُ أنا أيضاً أنسى، كما لو أنّ كلّ خبر جديد يمحو الآخر. يكفي استخراج كلّ ذلك مرّةً أخرى، وهذا ما فعله برغّادوتشيو وهذا ما فعلته الـ «بي بي سي». امزجْ وتَحصَلْ على مشروبَيْن كاملَيْن، ولن تعرف أيّهما الأصل».

«نعم، ولكن من المحتمل أن برغّادوتشيو قد زادَ أشياء من عنده، مثل حكاية مُوسُّوليني، أو اغتيال البابا لوتشياني».

«صحيح، كان مُولعاً بالكذب ويرى مُؤامرات في كلّ مكان، ولكن جوهر المسألة يبقى هو هو».

«يا إلٰهي»، قلتُ لها، «ولكن هل تُدركين أنّ شخصاً ما قَتَلَ أحدهم برغّادوتشيو قبل بضعة أيّامٍ خوفاً من خروج هذه المعلومات والآن، بهذا البرنامج، صار يعرف ذلك ملايينُ الأشخاص؟»

«يا حبيبي»، قالت مايا، «هذا بالفعل خيرٌ لك. افترضْ أنّ ثمّةَ جهةً ما حقّاً، إمّا هؤلاء الأشباح وإمّا ذلك المجنون المُنعزل، تخشى حقيقة أن يتذكّر الناس مرّةً أخرى تلك الأشياء، أو أن يبرز حدث ثانوي، لم ننتبه إليه نحن أيضاً حتى بعد أن شاهدنا البرنامج، يُمكن أن يُحرج مجموعة من الأشخاص أو شخصاً بعَيْنه... حسناً، بعد هذا البرنامج لم يَعُدْ من مصلحة المجنون ولا هؤلاء قَتْلك لا أنت ولا سيماي. وإذا ذهبتما غداً إلى بعض الصُّحف لإعلامها بما عرفتماه من برغّادوتشيو، فإنّها ستنظر إليكما كما لو كنتما مهووسَيْن يُعيدان ما رَأَياه على شاشة التلفاز».

«ولكن قد يخاف أحدهم أن نتحدّث عن شيء سكتت عنه الـ «بي بي سي»، مثل مُوسُّوليني أو لوتشياني».

«حسناً، تصوّرْ أنّك ستذهب لتقصّ حكاية مُوسُّوليني. كانت بعيدة عن الواقع حتّى في أقوال برغّادوتشيو، دون أيّ دليل، فرضيّات مُهَلْوسة فحَسْب. سيقولون لك إنّك فريسة للاضطراب الذهني وبعد أن أثارك برنامج الـ «بي بي سي» فجَّرْتَ كلّ ينابيع مُخيّلتك المريضة. بل وستخدمهم: أرأيتم، سيقولون، من اليوم فصاعداً كلّ مُهيّج سيختلق شيئاً جديداً. وتكاثر هذه الكشوف سيدعو إلى الشكّ في أنّه حتّى كشوف الـ «بي بي سي» نتيجة افتراضات صُحفيّة، أو هذيان، كما يُراجِعُ الماضيَ أولئك الذين يقولون إنّ الأميركيين لم تطأ أقدامهم قطّ سطح القمر أو إنّ البنتاغون يعمل كلّ ما في وسعه ليخفي عنّا الأجسام الطائرة المجهولة. هذا البرنامج يجعل كلَّ كشف جديد عديم الفائدة وسخيفاً لأنّه كما تعرف (أيّ كتاب فرنسي قال ذلك؟)

la réalité dépasse la fiction، أي أنّ الواقع يفوق الخيال، والآن، لم يَعُدْ بإمكان المرء أن يختلق شيئاً أفضل».

«تعتقدين أنّني حرّ» إذَن.

«أكيد، من قال إنّ الحقيقة ستجعلكم أحراراً؟ هذه الحقيقة ستظهر أنّ كلّ الكشوف الأُخرى كاذبة. الواقع أنّ الـ «بي بي سي» قدّمت إلى هؤلاء خدمة رائعة. منذ الغد بإمكانك أن تخرج وأن تقول لمن يعترضك إنّ البابا يذبح الأطفال الصغار ويأكلهم، أو إنّ الأمّ تيريزا دي كالكوتا هي التي وضعت القُنبلة في قطار إيطاليكوس، وسيقول لك النّاس، آه صحيح؟ غريب، ثمّ سيُولّون وجههم إلى الناحية الأُخرى لمُواصلة ما كانوا بصَدَد فعله. أُراهن على أنّ صحف الغد لن يكون فيها حتى حديثٌ عن هذا البرنامج. لا شيء بعد الآن يُمكن أن يُحيّرنا، في هذا البلد. في نهاية الأمر قد عانينا اجتياحات البرابرة، ونهب روما، ومجزرة سينيغاليا، وستمئة ألف قتيل في الحرب الكبرى، وجحيم الحرب الثانية، ما أهميّة بضع مئات من الأشخاص احتاج تفجيرهم إلى أربعين سنة. مُخابرات خائنة؟ إنّه مُضحك بالمقارنة مع آل بورجيا. لقد كنّا دائماً شعب خناجر وسُموم. لدينا مَناعةٌ، ومهما تكُن الحكاية الجديدة التي سيقصّونها علينا، فسنقول إنّنا قد سمعنا ما هو أشنع، ولعلّ هذه الحكاية وأختها زائفتان أيضاً. إذا كانت الولايات المتحدة، ومصالح الاستخبارات في نصف أوروبا، وحكومتنا، والصُّحف، قد كذبت علينا فلِمَ لا يُمكن أن تكون الـ «بي بي سي» قد كذبت علينا أيضاً؟ المسألة الوحيدة التي تهمّ المُواطن الصالح هي عدم دفع الضرائب، وأمّا ما عدا ذلك فليفعل الحكّام ما يُريدون، على أيّ حال هي دائماً البقرة الحلوب نفسها. وآمين يا ربّ العالمين. أرأيت أنّه كفاني شهران مع سيماي لأُصبح أنا أيضاً ماكرة».

«ماذا سنفعل إذن؟»

«قبل كلّ شيء، اهدَأْ، وسأذهب غداً بكلّ طمأنينة لصَرْفِ صكّ فيمركاتي، واسحب أنت ما لديك في المصرف، إن كان لديك شيء»..

«منذ أبريل ادّخرتُ بعض المال، فعندي إذن ما يَعْدِل راتبَيْن، عشرة ملايين

تقريباً، زيادةً على الملايين الاثني عشر التي أعطاني إيّاها سيماي في ذلك اليوم. أنا ثري».

«رائع، أنا أيضاً وفّرتُ بعض المال، لنأخذ معنا كلّ شيء ونرحل».

«نرحل؟ ألم نكن نقول إنّ بإمكاننا الآن التجوال دون خشية؟»

«صحيح، ولكن أما زلت تُريد العيش في هذا البلد، حيث ستُواصل الأُمور سيرها كما في السابق، وحيث لو جلستَ في بيتزاريا (مطعم يقدّم البيتزا) لما أمنتَ أن يكون جارك في الطاولة من جواسيس المُخابرات، أو أنّه سيقتل قاضياً آخر مثلما قُتل فالكوني، بتفجير قنبلة وأنت تمرُّ مُصادفة هناك؟»

«ولكن أين سنذهب، لقد رأيتِ وسمعتِ أنّ الأشياء نفسها تقع في كلّ أوروبا، من السويد إلى البرتغال، تُريدين الهرب إلى تركيا بين الذئاب الرمادية، أو إلى أميركا، إن سمحوا لكِ بذلك، حيث يقتلون رؤساءهم وحيث يحتمل أن تكون المافيا اخترقت وكالة الاستخبارات المركزية [CIA]؟ العالم صار كابوساً، يا حبيبتي. أنا أُريد النُّزول، ولكنّهم قالوا لي إنّه غير مُمكن، نحن في قطار سريع لا يقف في المحطّات الوسطى».

«يا عزيزي، سنبحث عن بلد لا تُوجد فيه أسرار وكلّ شيء يقع في وضح النهار. بين وسط أمريكا وجنوبها الكثير منها. لا يخفى شيء، معروف من ينتمي إلى جماعة المخدّرات، ومن يُدير الجماعات الثوريّة، تجلس إلى طاولة في المطعم، ويمرّ جمع من أصدقائك فيقدّمون لك فلاناً على أنّه رئيس تهريب الأسلحة، كلّه أناقة وجمال، مُعطّر وحليق الذقن، بذلك القميص الأبيض المَكْوي المحمول خارج السراويل، والنادلون يُجلّونه: **سينيور** من هنا، و **سينيور** من هناك، وقائد الحرس المدني ينهض ليقدّم له تحيّاته. هي بُلدان دون غموض، كلّ شيء يجري تحت أشعّة الشمس، والشرطة تقول إنّها فاسدة بمُقتضى القانون، والحكومة وهيئات الجريمة المُنظّمة يعملون معاً كما ينصّ على ذلك الدستور، والمصارف تعيش على غسل الأموال والويل لك إن لم تأتِ بأموال أُخرى من مصادر مشكوك فيها، فإنّهم يُلغون ترخيص إقامتك، يقتلون ولكن بعضهم بعضاً فقط ويتركون السيّاح في

أمان. بإمكاننا أن نعمل في إحدى الصُّحف أو في بعض دور النشر، لديّ هنالك أصدقاء يعملون في مجلّات الصداقات الحميمة - عمل جميل وشريف، لو فكّرنا جيّداً، تقصّ خُزَعْبَلات ولكن الجميع يعرف ذلك ويتسلّى بها، وأولئك الذين تفضح أسرارهم كانوا قد فعَلوا ذلك في اليوم السابق في التلفاز. والإسبانية سنتعلّمها في غضون أُسبوع، وها نحن أولاء قد وجدنا جزيرتنا في بحار الجنوب يا حبيبي توزيتالا».

لا أعرف أبداً كيف أبدأ وَحْدي في فعل شيء ما، ولكن إذا ناولني شخصٌ ما الكُرة فإنّي أقدر أحياناً على إيداعها الشبكة. الحال هو أن مايا لا تزال ساذجة في حين أنّي بحُكم السنّ قد صرتُ حكيماً. وإذا كنتَ تعرف أنّك فاشل، فالعزاء الوحيد هو فكرة أنّ كلّ من حولك فاشلون، حتّى المُنتصرون منهم.

وهكذا كان ردّي على مايا.

«يا حبيبتي، ألم تفطني إلى أنّ إيطاليا أيضاً بدأت تصير شيئاً فشيئاً مثل بُلدان الأحلام التي تريدين نَفْي نفسكِ إليها. إذا استطعنا قبل الآن قَبول كلّ الأشياء التي قصّتها علينا الـ «بي بي سي» ونسيانها فهذا يعني أنّنا بدأنا نفقد الشعور بالحياء. ألم تشاهدي كيف كان كلّ المَدْعوين في حوار هذا المساء يقصّون بكلّ طمأنينةٍ كيف فعلوا هذا الشيء أو ذاك، وكأنهم ينتظرون أن يحصلوا على وسام؟ لا حاجة إلى النور والظلال على الطريقة الباروكية، كان ذلك صالحاً في عصر الإصلاح المُضادّ، ستجري المعاملات غير المشروعة *en plein air*، في الهواء الطلق، كما لو رسمها الانطباعيّون: الفساد مسموح به، والمافيوزو جالس رسميّاً في البرلمان، والمتفلّت من الجباية في الحكومة، ولن تَجِدي في السجون إلا سارقي الدجاج الألبانيّين. والأُناس الطيّبون سيُواصلون الاقتراع لانتخاب المُحتالين لأنّهم لن يصدّقوا الـ «بي بي سي»، أو لن يُشاهدوا برامج مثل برنامج هذا المساء لأنّهم سيكونون مُلتصقين بالشاشة لمُشاهدة برامج القُمامة، قد تنتهي تجارة فيمركاتي التلفزيّة في بداية السهرة، وإذا اغتيلت شخصيّة مُهمّة، أُقيمَتْ لها جنازة رسميّة. نحن سنبقى خارج اللعبة : أنا أعود إلى ترجماتي من الألمانية وأنت ستعودين إلى مجلّاتك الجديرة بصالونات حلاقة السيّدات وقاعات انتظار أطبّاء الأسنان. وما عدا

ذلك، هناك مُشاهدة فيلم جميل عند المساء، ونهايات الأسبوع هنا في أورتا - وليذهَب الآخرون كلّهم إلى الشيطان هناك. يكفي أن ننتظر: عندما يصبح بلدنا من العالم الثالث تماماً، آنذاك يُصبح قابلاً للعيش، كما لو كان كلّ شيء كوباكابانا، المرأة هي الملكة، المرأة هي السيّدة».

الحال هو أنّ مايا أعادت لي السلام، والثقة بنفسي، أو في الأقلّ عدم الثقة الهادئة بالعالَم الذي يُحيط بنا. الحياة مقبولة، يكفي أن نكون قانعين. غداً (مثلما كانت تقول سكارلت أوهارا - استشهاد آخر، أعرف ذلك، ولكنّني عدلتُ عن التحدّث بضمير المُخاطب وأترك الكلام للآخرين) هو يوم آخر.

جزيرة سان جيوليو ستسطع مرّةً أخرى تحت الشمس.

المحتويات



العدد صفر

Numero Zero

يروي لنا هذا الكتاب قصّة جريدة لن ترى النور أبدًا، لأنّ ناشرها أرادها منذ البداية أن تكون أداة ابتزاز أكثر من أن تكون أداة إعلام. وبذريعة البحث عن الحقيقة، دُعي خمسة أفراد لَهم جَميعًا تجارب سابقةٌ مختلفةٌ وفاشلةٌ إلى تكوين هيئة تحريرٍ، مهمّتها الظاهرة هي كشف الحقيقة للرأي العامّ وللقارئ. نقطة الانطلاق هي سنة 1992، ومن خلال الاجتماعات الدورية لأعضاء هيئة التحرير ونقاشاتهم وبرامج عملهم لإعداد العدد صفر من الجريدة تنكشف أسرار العمل الصحفي الخفيّة وأساليبه المريبة الرامية إلى التأثير في الرأي العامّ وتوجيهه إلى ما يخدم مصالح بعض الجهات. هذا معروفٌ وليس هو بالجديد. ما يلفت انتباهنا في هذه الرواية الجديدة لإيكو هو تشابك الحاضر بالماضي، فإذا بالكتاب يسرد لنا تاريخ إيطاليا في العقود الأخيرة من القرن المنصرم، ملوّنًا إيّاها بشبح موسوليني زائف يعود لتسلّم السلطة مرّةً أخرى ولكنه يموت فجأةً ويخفق الانقلاب على الدولة. مؤامرةٌ ربما تكون قد نشأت في مخيّلة «برغادوتشيو»، المحرّر الذي هوَ أكثر هوسًا من غيره بفكرة المؤامرة الكونية التي تشترك فيها أطرافٌ سياسيّةٌ، والفاتيكان، والاستخبارات المركزية الأمريكية، والماسونية، وبعض الأوساط المالية. وكان ظنّ الجميع أنّ كلّ ذلك من مبتكَرات عقل «برغادوتشيو» المريض، ولكن عندما عُثر عليه مقتولًا صار كلّ شيءٍ حقيقةً.

رواية إيكو متاهةٌ جديدةٌ مخيفةٌ أكثر من سابقاتها لأنّها تجعلنا نتساءل: هل نحن أيضًا، في كلّ يوم، ضحيّة أيدٍ تعمل في الخفاء من خلال الصحف وقنوات التلفاز وتحرّكنا مثل الدمى. وإذا برغبتنا في معرفة الحقيقة تتحوّل إلى خوفٍ من اكتشاف الحقيقة. روايةٌ مشوّقةٌ تركها لنا إيكو قبل رحيله في 19 من فبراير عامَ 2016، ليشعرنا بضرورة عدم التسليم بما يُحكى لنا وبالتحاكم دائمًا إلى العقل في كلّ الأحوال.

موضوع الكتاب رواية

ISBN 978-9959-29-695-5





موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com